أدب مصر الإسلامية
عصر الولاة

محمد كامل حسين

دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع

أدب مصر الإسلامية

عصر الولاة

تأليف
محمد كامل حسين

عنوان الكتاب	أدب مصر الإسلامية: عصر الولاة
اسم المؤلف	محمد كامل حسين
سنة النشر	2020
عدد الصفحات	224
مقاس الكتاب	24×17
الترقيم الدولي	978-977-6675-20-9

دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة المشهرة برقم 24821 بتاريخ 1/10/2015 إن دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع والترجمة غير مسئولة عن آراء المؤلف و أفكاره ؛ و إنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه و أفكاره

البريد الإلكتروني

tahreradbe@gmail.com

المحتويات

مقدمة ٧

الباب الأول: تطور الآداب واللغة في مصر ٩
١- الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي ١١
٢- مكتبة الإسكندرية ١٩
٣- قبائل العرب بمصر ٢١
٤- الصراع بين اللغات: اليونانية – القبطية – العربية ٣١

الباب الثاني: في الحياة العقلية ٣٧
١- المدارس الدينية ٣٩
٢- اللغة والتاريخ ٦٣

الباب الثالث: كتاب الرسائل والإنشاء ٨١
١- قبل الطولونيين ٨٣
٢- ديوان الإنشاء في العصر الطولوني والإخشيدي ٨٧

الباب الرابع: في الشعر ١٠٥
١- من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية ١٠٧
٢- من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون ١٢٣
٣- الشعر في عهد الطولونيين والإخشيديين ١٧٧
خاتمة ٢١٩
ثبت بالمراجع والمصادر ٢٢١

مقدمة

قد يكون موضوع هذا الكتاب جديدًا، فالكتاب والمؤرخون المحدثون لم يعنوا بدراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية عنايتهم بدراسة الحياة الفكرية والأدبية في غير مصر من الأقطار الإسلامية، مع أن القدماء وجهوا إلى مصر عناية خاصة، فالواقدي وأبو إسحاق الأموي وغيرهما وضعوا كتابًا في فتوح مصر، وزار المسعودي مصر وتحدث عنها في مروج الذهب، ووضع الصولي كتابًا في «شعراء مصر»، وجعل الثعالبي في يتيمته بابًا خاصًّا لشعراء مصر، وهكذا كان القدماء أبرَّ بمصر من المحدثين، ولا أدري سبب تقصير الباحثين عن دراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية سوى وَهْمِهم أن مصر الإسلامية لم تنتج أدبًا يضارع أدب الشام أو العراق، وما ضر هؤلاء لو بحثوا عن الأدب المصري وأثبتوا ما وهموه، أما انزواؤهم عن البحث لفكرة اختمرت في أذهانهم فهو النقص بعينه، فلا شك أن مصر كانت مركزًا هامًّا من مراكز الفكر الإسلامي منذ دخلها العرب فاتحين، واستقروا بها ونشروا في مصر الدين الإسلامي واللغة العربية، وامتزج العرب بالمصريين فتأثر العرب بمصر، وتأثر المصريون بالعرب وكان نتيجة هذا المزج هو الشعب المصري الإسلامي تتمثَّل فيه خصائص العرب والمصريين، وخضع هذا الشعب لعوامل الشخصية المصرية والبيئة المصرية، وظهر ذلك واضحًا في تفكيره وفي أدبه.

وقد كان لعلماء مصر أثرٌ في غيرهم من العلماء، فقد اعتمد كل المؤرخين في حديثهم عن مصر على ابن عبد الحكم ومحمد بن زكريا الغلابي وعمار بن وسيمة المصري والكندي وابن زولاق وغيرهم من مؤرخي مصر، وأُخِذَ فقه الشافعي عن المصريين كما كان أجل أصحاب مالك وتلاميذه من أهل مصر، وعن مُحدِّثي مصر روى البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم، وعن علماء مصر أخذ علماء الأندلس والمغرب العلوم الإسلامية والعربية. فمصر إذن كانت عظيمة الحظ من الحياة العقلية وسايرتها الحياة الأدبية من شعر ونثر، ولكن الحياة

الأدبية في مصر استغرقت زمنًا طويلًا حتى ازدهرت، ولا غرابة في ذلك، فانتقال مصر بعد الفتح الإسلامي وتطور الحياة فيها لم يأت دفعة واحدة، فقد كانت مصر مسيحية الدين فأصبحت إسلامية، وكانت يونانية وقبطية اللغة فأصبحت عربية، وكل هذا احتاج إلى زمن طويل حتى استقر هذا التطور وتمَّ امتزاج العرب بالمصريين، ومع ذلك فقد ظهرت بواكير الحياة الأدبية المصرية إبَّان هذا الانتقال والتطور مما بشَّر بازدهار حياة أدبية خصبة ابتداء من العصر الطولوني، وبدأ النضوج الأدبي واستمر في العصر الفاطمي وما يليه.

وهذا الكتاب بحث من أبحاثٍ أرجو أن أُوفَّق إلى إتمامها وهي البحث في الأدب المصري الإسلامي منذ دخل العرب مصر إلى الآن، فقد تحدثت في هذا الجزء عن تطور مصر في عصر الولاة؛ أي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين، وهو عصر غامض أشد الغموض، والمصادر التي بين أيدينا قليلة والنصوص متفرقة مبعثرة، ومع ذلك فقد استطعنا استخلاص ما يمكن استخلاصه، وتحدثنا عما أمكننا الحصول عليه، أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فسيكون عن «أدب مصر الفاطمية».

وسنرى كيف أصبحت إلى مصر الزعامةُ الأدبية والفكرية في العالم الإسلامي، وكيف استطاعت مصر أن تنهض بهذه الزعامة منذ العصر الفاطمي إلى الآن.

وهذا البحث قديم، فقد كتبته لأول مرة سنة ١٩٣٤، وتقدمت به إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية — إذ ذاك — وحصلت به على درجة الماجستير في الآداب مع مرتبة الشرف، ولما عُهِد إليَّ بتدريس الأدب المصري بكلية الآداب قدمته للمطبعة سنة ١٩٣٩ بعد تغيير بعض فصوله وبعض آرائه، والآن أقدمه للمطبعة مرة ثانية وقد أضفت إليه بعض آراء جديدة ليست في الطبعة الأولى.

وبعد، فقد قدمت شكري في الطبعة الأولى إلى أساتذتي الأجلاء الذين أعانوني في هذا البحث منذ بدأت كتابته، وليس لي الآن إلا أن أكرِّر لهم شكري الخالص، فلا يزالون خير عون لي في أبحاثي التي أكتبها، وأخص بالشكر أستاذي الأكبر الدكتور طه حسين بك، الذي يواليني برعايته وتوجيهه ويشملني بعطفه وعنايته، فهو أول من نادى بدراسة الأدب المصري، وعمل على إنشاء كرسي الأدب المصري بكلية الآداب، وهو الذي دفعني ووجهني إلى هذه الدراسات، فالفضل كله منه وإليه، ولست أملك ما أوفِّيه حقَّه، فالله — تعالى — نسأل أن يجزيه عن تلاميذه أحسن الجزاء.

محمد كامل حسين

الباب الأول

تطور الآداب واللغة في مصر

الفصل الأول

الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي

كان الحكم الروماني في مصر يتمايز بالظلم والفساد، وكانت الحياة في مصر حياةَ شعب مجرد من كل حقوقه، فالمدنية المصرية العتيدة التي كانت إبَّان حكم الأسرات الفرعونية، والتي انتقلت إلى أيدي البطالسة فحاولوا البقاء عليها، جاءت إلى أيدي الرومان فأضعفوها في مصر ولم يعملوا على إحياء مدنية أخرى.

هذا الفساد الذي لحق جميع مرافق الحياة في مصر؛ امتد إلى مدرسة الإسكندرية التي حافظت على تراث الفلسفة والآداب اليونانية طوال عصر البطالسة، وفيها نشأ عدد كبير من الفلاسفة والمفكِّرين والأدباء، ولكن إبَّان الحكم الروماني ضعف أمرها واضْمَحلَّ شأنها، وهجرها أكثر تلاميذها؛ لِما كان ينتابهم من ظلم الحاكمين، ولا سيما بعد أن دخلت الديانة المسيحية مصر، فخسرت مدرسة الإسكندرية بعض عناصرها الأساسية، وبعد أن انتشر الدين المسيحي في مصر اشتد الجدل بين المسيحيين والوثنيين، فكان كل فريق ينتصر لدينه ولو بحدِّ السيف، فكان نتيجة هذا الصراع الدامي العنيف خيرًا على الآداب؛ ذلك أن الوثنيين هالهم سرعة انتشار المسيحية في مصر فعملوا على تقوية منزلتهم الأدبية بتضخيم عدد كتبهم بالنسخ والتأليف، وكانت خزائن كتبهم بالإسكندرية تحوي مؤلفات اليونانيين والمصريين، فخصَّصوا طائفة من النساخ لكتابة ما يُمْلِيه المؤلفون، وأخرى لنسخ ما أمكن العثور عليه من مخطوطات القدماء،[1] ولكن هذه النهضة لم تدم طويلًا؛ لأن الصراع بين الوثنيين والمسيحيين كان عنيفًا قاسيًا؛ فكثيرًا ما هُدِّمت دور العبادة وحرقت الكتب وخربت المدارس وأعدم العلماء، حتى إذا كانت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة للميلاد، انقضَّ المسيحيون بقيادة ثيوفيليس على السرابيوم، حيث جامعة الإسكندرية ومكتبتها، فحطموا كل شيء في طريقهم؛ لأنهم كانوا يرون أن الجامعة وما بها من كتب مظهرٌ من مظاهر الوثنية القديمة وأثَر من آثارها، ومنذ هذا التاريخ لم

تنهض مدرسة الإسكندرية ولم تبلغ منزلتَها القديمة. كانت مدرسة الإسكندرية في دورها الثاني قد اتجهت إلى العلوم العقلية، فكانت مضمارًا للأبحاث الفلسفية والدينية فتأثرت الفلسفة بالدين وتأثر الدين بالفلسفة، وساعد على نشاط هذه الأبحاث هذا الجدال الذي كان بين الوثنيين والمسيحيين من ناحية، ثم ما نشأ من خلاف بين المسيحيين أنفسِهم عن طبيعة المسيح، فاضطر المسيحيون إلى أن يستعينوا في جدالهم بالفلسفة والمنطق، وفي الإسكندرية اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية القديمة؛ فأدى هذا المزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية. هذا اللون الجديد نلمسه في مذهب الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون.

كادت هذه المذاهب الفلسفية الجديدة أن تأتي ثمرتها في خَلْق نهضة فكرية بالإسكندرية وغيرها من مدن الإمبراطورية الرومانية، فقد رحل علماؤها يدعون إلى هذه المذاهب، ووفد إلى الإسكندرية عدد كبير من طلبة العلوم الفلسفية حتى كانت الإسكندرية في هذا الوقت أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين،[٢] ولكن هذه النهضة لم تدم طويلًا.

ومصر، وإن كان زمامها بيد الرومان، فإنا نجد لغة العلم والمتعلمين بها هي اللغة اليونانية، فقد استطاعت هذه اللغة أن تحيا بمصر وتحتفظ لنفسها بالمنزلة الأولى بجانب اللغة المصرية، بل نرى اللغة اليونانية تؤثر في اللغة المصرية تأثيرًا قويًّا ظهر في استعمال المصريين للحروف اليونانية، وفي هذه الألفاظ اليونانية الكثيرة التي نجدها في اللغة المصرية التي تُعرَف باللغة القبطية، بل كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية بمصر،[٣] وتذهب مدام بيوتشر إلى أن الوالي الروماني كان يصدر نشراته للمصريين يصف فيها حكمه للبلاد وكانت هذه النشرات باللغة اليونانية، وأن الولاة الرومانيين كانوا يُفخِّمون أنفسهم بإضافة لقب يوناني إلى أسمائهم،[٤] معنى هذا كله أن اللغة اللاتينية، لغة الرومان، لم تنتشر بين المصريين، في حين أن اللغة اليونانية والآداب اليونانية كانت قوية منتشرة، وقد أدَّى ذلك إلى أن بعض الولاة من الرومان اضْطُر إلى أن يصطنع كتابًا يحذقون اللغة القبطية، وكان لبعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية مثل لوسيانيوس صاحب محاورات الموتى.[٥]

وكان بمصر شعراء أنشدوا شعرهم باليونانية، ومنهم من حاول تقليد شعراء اليونان القدماء؛ فبعضهم حاكى هوميروس، وأنشد على نمط الإلياذة، وكتب أخيليوس تاتيوس وهو من شعراء مصر في القرن الرابع للميلاد عدة روايات خيالية ممتعة،[٦] وشاهد القرن الخامس الميلادي الشاعر سيروس الأخميمي، صديق إيدوشيا زوجة الإمبراطور

ثيودوسيس الثاني والذي تقلَّب في مناصب الدولة حتى صار قائد الجيش المصري، ثم اعتزل المناصب الحكومية ورغب في خدمة الدين المسيحي فعُيِّن أسقفًا لإحدى الكنائس، كان هذا الرجل شغوفًا بالشعر وإنشاده ويُعدُّ من أكبر شعراء مصر في ذلك القرن،[٧] وفي القرن السادس ظهر شاعر مصري من طيبة هو كريستودورس ولا تزال قصائده تُحفَظ في الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية، ويقال إن هذا الشاعر وجد صعوبات في تدوين أشعاره وترتيبها؛ لقلة المتعلمين.[٨] وممن نبغوا في العلوم بمصر في ذلك الوقت عالمٌ اسمه ديسقوريدس ألَّف كتابًا في علم النبات وحلَّاه بكثير من الصور والنقوش، ولا يزال هذا الكتاب من نفائس مخطوطات مكتبة فينا.[٩] إذن نستطيع أن نقول إن الأدب بمصر قُبَيل الفتح كان أدبًا مصريًّا باللغة اليونانية، وإن اللغة الرسمية كانت اليونانية، وإن لغة الثقافة كانت اليونانية.

ولكن بجانب هذه الآداب اليونانية وجد بمصر آداب سريانية، فقد كان لنهضة الفرس في القرن السابع الميلادي، وغزوهم لبلاد الشام أثر في وجود هذه الآداب بمصر؛ ذلك أن كثيرًا من علماء السريان وأدبائهم هاجروا إلى مصر خوفًا من الفرس، ونقلوا معهم كتبهم وآراءهم، ومن قبل هذه الهجرة كان بالإسكندرية بعض علماء من السريان يدرسون علوم الطب بالسريانية، فكثرت الآداب واللغة السريانية بمصر، ولا سيما في الأديرة التي هاجر إليها السريان، وفي القرن السابع قام بولس أسقف بلَّا بترجمة نسخة الترجمة السبعينية من الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وظلَّت هذه الترجمة في وادي النطرون حوالي ألف عام، وهي الآن بالمتحف البريطاني،[١٠] وكتب أهرن القس مقالاته الطبية التي يجمعها كتاب «كُنَّاش في الطب» باللغة السريانية، وترجم هذه الكتاب إلى العربية ماسرجويه بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، فكان من المراجع الهامَّة للعرب في علوم الطب، ويحدِّثنا المؤرخون عن الطبيب سرجيوس من رجال القرن السادس الميلادي، أنه قد أتقن العلوم والآداب السريانية كغيره من الأطباء،[١١] ومن الأطباء الذين شاهدوا الفتح الإسلامي وعاش حتى أوائل الحكم العربي أريباسيوس، وله مصنفات في الطب وكان يُعرَف بصاحب الكَنَانِيش.

وبجانب ذلك كله نرى بمصر أدبها القومي أو الشعبي الذي أنتجه الشعب المصري بلغتهم المصرية مُمثَّلًا فيما خلَّفه رجال الكنيسة باللغة القبطية، فقد صارت اللغة القبطية إذ ذاك لغة الدين في مصر، وأبطل المصريون استعمال اللغة اليونانية الدخيلة في الكنائس المصرية والمجتمعات، وحاول المصريون أن يرفعوا من شأن لغتهم، فترجموا إليها كثيرًا

من الكتب منها ترجمة العهد الجديد، تُرجِم إلى اللهجات القبطية الثلاث، وترجموا جميع الطقوس الدينية، وكتبوا تراجم البطاركة والشهداء، وألَّفوا كتبًا في التاريخ العام،[١٢] ولم يبق لنا من ذلك كله إلا النزر اليسير، ولعل أهم هذه الكتب كتابٌ في التاريخ وضعه يحيى (أو يوحنا) النقيوسي كتبه في أواخر القرن السابع الميلادي، وحضر الفتح العربي وتحدَّث عنه، ويُعتبَر كتابه من أقوم المصادر التاريخية عن الفتح، ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الحبشية لجزء منه، ويقول بتلر: «لا تستطيع اللغة القبطية أن تفخر بشعراء مجيدين أو مؤرخين ممتازين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم الفحول؛ فجلُّ الآداب القبطية دينية لقلة ما كان لدى الأقباط من علم وفصاحة، مما سبَّب إهمال لغتهم وعدم انتشارها في العالم، مع أنه لا يكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ مجيد كتاريخها.»[١٣] وهذا الرأي صحيح إلى حدٍّ ما، ويُخيَّل إليَّ أن العقيدة الدينية كانت تجري في عروق المصريين منذ القدم، فآثار قدماء المصريين ما هي إلا مظهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة، وكل ما كان بمصر القديمة من علم وفنٍّ كان من أجل الدين، فمدنية قدماء المصريين مدنية فنية ولكنها دينية قبل كل شيء، بخلاف المدنية اليونانية التي كانت أدبية فلسفية، وفي مصر التقت الحضارتان وامتزجتا، وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعلق به، وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وفد على بلادهم، ومع ذلك تأثر هؤلاء بميل المصريين إلى الدين؛ فظهرت الآراء الفلسفية الجديدة التي تحدثنا عنها.

وقد يكون من أسباب قلة ظهور فلاسفة وأدباء في الأدب القبطي أن المذهب اليعقوبي بمصر لم يواجه من المعضلات الدينية ما واجهه المذهب النسطوري في آسيا مثلًا؛ لهذا نرى النساطرة ينقلون الكتب الفلسفية والعلمية والدينية إلى اللغة السريانية، ولا نجد هذه الترجمة عند المصريين، فلا غرابة إذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالإسكندرية تتقهقر في القرن الخامس الميلادي بينما تقوى المدرسة اللاهوتية.

فتح العرب مصر سنة ٢٠ هجرية (على خلاف في هذا التاريخ) فكان هذا الفتح إيذانًا بضعف الآداب اليونانية واللغة اليونانية من مصر ثم محوها نهائيًّا، وظلَّت الآداب القبطية واللغة القبطية. حتى إذا كان (القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري) نجد الأسقف سويرس بن المقفع يقول في مقدمة كتابه سير الآباء البطاركة:

> استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين، وسألتهم نقْل ما وجدناه منها (أي من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي

الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم.[١٤]

أي إنه في القرن الرابع للهجرة كادت تُمحَى من مصر اللغتان اليونانية والقبطية، وإن كانتا قد ظلتا بمصر مدة طويلة بعد الفتح، وهذا ما يقوله ابن النديم في حديثه عن خالد بن يزيد بن معاوية إنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية: «وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة واللسان من اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة.»[١٥]

ويقول بتلر: إنه كان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية في حياة الآباء يقرؤه القُسُس كل صباح ولا يُسمَح لأحد أن يقتنيه، وقد ترجم إلى العربية كثير من هذه الكتب والقصص التي في آخرها.[١٦]

أما مدرسة اللاهوت بالإسكندرية فظلت بعد الفتح تستقبل طلابها مصريين وأجانب. ففي سنة ثمانين وستمائة ميلادية رحل إليها يعقوب الرُّهاوي؛ لإتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية، ويقول بتلر: «من الثابت أن الإسكندرية كانت مركز الثقافة والآداب في العالم في زمن الفتح، ومع أن أكثر العلوم بها كانت دينية فإنا نجد شيئًا من العناية بالآداب القديمة، وعدة موضوعات عن الأخلاق المسيحية المبنية على الأفلاطونية الحديثة.»[١٧] ولكن هذه المدرسة أصابها ضعف بعد الفتح وتفوَّقت عليها مدارس أنطاكية وحرَّان وجنديسابور وغيرها، ولست أدري كيف يقول ابن أبي أصيبعة: «وظلت مدرسة الإسكندرية مركز التدريس في الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة أنطاكية.»[١٨] ذلك أن مدرسة الإسكندرية ظلت بعد الفتح العربي واتصل بها المسلمون في العهد الأموي فاصطفن الإسكندراني يترجم كتابًا لخالد بن يزيد، وابن أبجر الطبيب الإسكندري يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز في صناعة الطب، وابن أبجر هذا كان يتولى التدريس بالإسكندرية وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز، وكذلك اتصل العباسيون بمدرسة الإسكندرية فقد مرضت جارية الرشيد، فأرسل في طلب الطبيب المصري بليطان بطريق الإسكندرية، وفي أيام أحمد بن طولون كان سعيد بن تُوفِّيل يطببه، وهكذا كما كان لمدرسة الإسكندرية أثر في الثقافة الإسلامية، ولا سيما في علم الطب الذي ظهر عند المسلمين مشبعًا بتعاليم الإسكندريين، فمؤلفات بولس الإيجيني، وكان في الإسكندرية في أوائل أيام الفتح مما اعتمد عليها أطباء المسلمين.

كذلك كانت مدرسة الإسكندرية النواة التي استمد منها العرب علم الكيمياء أو علم الصنعة كما سماه كتَّاب العرب، فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر ومآثرها على سائر من اشتغل به، جاء في الفهرست: «والكتب المؤلفة في هذا الشأن (أي الصنعة) أكثر وأعظم من أن تُحصَى؛ لأن المؤلفين لها تنحلوها عنهم، ولأهل مصر في هذا الأمر مصنفون وعلماء، وأصل الكلام في الصنعة من ثَم أخذوها.»[١٩] وقد ظل هذا العلم بمصر طويلًا بعد الفتح وشُغِف به كثير من المصريين، وقد رأينا كيف اعتمد خالد بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة، ومن أشهر علماء مصر في هذا الفن روشم، فقد ألف كتبًا تنافسَ المسلمون في الظفر بها، وقيل إن ذا النون المصري كان له أثر في الصنعة، وإنه أَلَّف كتاب الثقة في الصنعة،[٢٠] ولا ندري مبلغ هذا القول من الصحة.

ومع ذلك كله نقول إن مدرسة الإسكندرية ضعف أمرها أيام العرب، وأخذت الآداب والعلوم اليونانية والقبطية تضمحلُّ حتى زالت وحلَّ محلها الآداب العربية.

هوامش

(١) تاريخ الأمة القبطية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص٥٨ وما بعدها.

(٢) تاريخ الأمة القبطية ص٥٨.

(٣) تاريخ الأمة القبطية ص٢٣٤.

(٤) Milne: A History of Egypt Under Roman Rule. (London. 1913) P. 15.

(٥) Quatremère: Recherches Sur la langue et la Litterature de l’Egypte (Paris 1808) P. 5.

(٦) Butcher: The Story of Egypt London 1867 V. 1. P. 356.

(٧) بيوتشر ج٢ ص٩.

(٨) المرجع نفسه ج٢ ص٧٩.

(٩) بيوتشر ج٢ ص٥.

(١٠) تاريخ الأمة القبطية، طبع مصر سنة ١٩٠٠، ص٦٧.

(١١) Butler: The Arab conquest of Egypt P. 93.

(١٢) بيوتشر ج٢ ص١٧.

(١٣) Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt V. 1. P. 247.

(١٤) سير الآباء البطاركة لابن المقفع (طبع بيروت) ص٦.

(١٥) الفهرست ص٣٣٨ طبع الطبعة الرحمانية.

(١٦) Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt. P. 96.

(١٧) Butler: The Arab conquest of Egypt P. 96.

(١٨) عيون الأنباء ج١ ص١١٦.

(١٩) الفهرست ص٥٠٧، وصواب العبارة فيما يظهر «وأهل الكلام إلخ».

(٢٠) نفس المصدر ص٥٠٤.

الفصل الثاني

مكتبة الإسكندرية

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادي في كتاب الإفادة والاعتبار،[1] والقفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء، وابن العبري وجورجي زيدان في تاريخهما؛ أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية العتيدة التي أنشأها بطليموس الثاني، وقد ناقش هذا الخبر كثير من المستشرقين والمؤرخين.

فالمؤرخ جيبون ناقش هذه المسألة بإيجاز شديد وقد رفضها، وقال الأستاذ رينودو Renaudat: «إن بالقصة عنصرًا من عناصر الوضع.»

كما رفضها الأستاذ جوستاف لوبون في كتابه الحضارة العربية، وتحدث الأستاذ بتلر في كتابه «فتح العرب لمصر» حديثًا طويلًا نلخصه فيما يأتي:

(١) أن هذه القصة — قصة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية — لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام، فلم يذكرها المؤرخون الذين سبقوا البغدادي والقفطي وأبا الفرج الملطي.

(٢) أن يحيى النحوي الذي تذكر القصة أنه العامل الأكبر فيها تُوفِّي قبل الفتح العربي.

(٣) أن مكتبة الإسكندرية الكبرى حرقت في عهد يوليوس قيصر، وأن المكتبة الصغرى التي كانت بالسرابيوم نُقلَت أو أتلفت قبل سنة ٣٩١ ق.م فلم توجد مكتبة بالمعنى الصحيح أثناء الفتح العربي.

(٤) لو صح أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية، لما غفل عن ذكر ذلك المؤرخ حنا النيقوسي، وختم بحثه بأن ما رواه أبو الفرج الملطي لا يعدو أن يكون قصة خرافية ليس لها أساس تاريخي.

وذهب الأستاذ سيديو Sédillot[٢] إلى أن هذه القصة وضعها كتاب معادون للعرب وللإسلام إبَّان الحروب الصليبية، ولكنه لم يحدثنا عن كاتب بعينه.

وكذلك نشر الأستاذ جريفني بحثًا طويلًا باللغة العربية في جريدة الأهرام بعدد ٢١ يناير سنة ١٩٢٤ ختمه بقوله: إن جميع المستشرقين الذين بحثوا حريق مكتبة الإسكندرية خرجوا بأبحاثهم إلى أن هذه القصة خرافة من خرافات القرون الوسطى.

وقد يكون سبب هذه الخرافة هو خلط علماء المسلمين بين حنا النحوي وحنا النخوي (أو النيقوسي)، فالأول حنا النحوي أو الجراماطيقي أو الفيلوبوني وُجِد بالإسكندرية وله مؤلفات سردها مؤرخو العرب، وكان يعلِّم الناس بالإسكندرية في حدود سنة ٤٨٠م، وعمر حتى أوائل القرن السادس الميلادي، وله عدة كتب منها شرح على الأنالوطيقا لأرسطو، وكتاب النفس، وشرح كتاب الحيوان لأرسطو، وكتاب الرد على نيقوماخوس في الأخلاق، وهذه الكتب كلها عرفها العرب ونسبوها إلى يحيى النحوي (ترجمة للجراماطيقي) وأخطأ مؤرخو العرب في قصة مقابلته لعمرو بن العاص؛ لأنه تُوفِّي قبل البعثة النبوية، وجاء هذا الخطأ من أنه كان في مصر في وقت الفتح مؤرخ عالم كانت له ثقافة يونانية واسعة هو يحيى أو حنا النخوي أسقف نيقوس، وثابت أن هذا الرجل قابل عمرو بن العاص وأنه كان ذا مذهب خاص اضْطُهد بسببه، وهو صاحب تاريخ مصر الذي أشرنا إليه قبل ذلك، فتشابُه رسم الحروف (النحوي والنخوي) هو الذي جعل علماء المسلمين يقولون إن الأول هو الذي قابل عمرو بن العاص.

هوامش

(١) نفس المصدر ٢٨.

(٢) Sédillot: Hist. Générale des Arabes P. 155–156.

الفصل الثالث

قبائل العرب بمصر

لا نغالي إذا قلنا إن مصر اتصلت ببلاد العرب منذ عهد بعيد جدًّا، بل ذهب علماء الجيولوجيا إلى أن صحراء مصر الشرقية من وادي النيل حتى البحر الأحمر تُعتبَر جزءًا من بلاد العرب، وذهبوا إلى أنه في العصور الجيولوجية القديمة كان الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب يتصل بأفريقيا وكان البحر الأحمر عبارة عن بحيرة، ويقول الأستاذ دي مورجان: «كانت صحراء مصر الشرقية جزءًا من بلاد العرب، والآن تمنع منطقة سينا هذه الصحراء الشرقية من أن تنفصل نهائيًّا عن العرب.»[١]

وفي عصور التاريخ اتصلت مصر ببلاد العرب عن طريقين؛ أولهما: طريق النيل؛ إذ كانت السفن تسير في النيل إلى موضع قفط الحالية، ثم تسير القوافل في طريق وادي الحمامات؛ حيث المناجم والمحاجر التي اكتشفها قدماء المصريين، وينتهي هذا الطريق بالقرب من عيذاب والقصير، ثم استخدم المصريون البحر الأحمر للاتصال بالموانئ العربية، وأول دليل قاطع لما قام به المصريون في البحر الأحمر كان في الأسرة الخامسة حين قام الملك ساهور حوالي سنة ٢٧٤٣ ق.م برحلته إلى شواطئ البحر الأحمر وترك صُوَرًا لأسطوله وتقريرًا عن أعماله على أسوار معبده، وفي وادي الحمامات عدد كبير من النقوش يتحدث عن رحلات المصريين في البحر الأحمر، ويقول المؤرخون: إن الملاحة في البحر الأحمر لعبت دورًا هامًّا في التجارة، ولا سيما تجارة البخور التي كان يطلبها المصريون من العرب؛ لاستخدامها في التحنيط وفي الشعائر الدينية، والقدماء حتى عصر هيرودوت قالوا: إن جزيرة العرب وحدها هي التي تُنْبِت العطور، وقد حدثنا الأستاذ نللينو: «أن قدماء المصريين كانوا على اتصال دائم بجنوب بلاد العرب التي تُعدُّ أكثر البلاد إنتاجًا للبخور.»[٢]

أما الطريق الثاني الذي اتصلت مصر عن طريقه ببلاد العرب فهو طريق سينا، وهو طريق قديم جدًّا، وإذا تصفحنا تاريخ مصر نجد أن المحور الأساسي الذي كانت تدور عليه سياسة الأسرة الثامنة عشرة هو تأمين البلاد من محاولة غزو القبائل السامية، ويدلنا على ذلك غزو سوريا أيام إمنحتب الأول، وأن تحتمس الأول أعلن أن الفرات هو حدود مصر الشرقية، وكان غزو البلاد الشمالية عن طريقين: طريق البحر الأبيض، وطريق سينا البري، وكان طريق سينا معروفًا لدى المصريين في عهد الأسرة الأولى بسبب وجود معدن النحاس، وفي عهد الأسرة الثالثة زار زوسر سينا، وعمل على إخراج النحاس وأحجار الزمرد، ونُقِشَت زيارته في وادي المنارة شمال مدينة الطور الحالية، وفي الأسرة الرابعة غزا سنفرو شبه الجزيرة ونقش أخبار حملته على الأحجار، وبنى حصونًا ليلجأ إليها عمال المناجم من هجمات قبائل العرب.

وفي الطرف الشرقي لشبه جزيرة سينا نجد تلَّ القلعة أو شربة الخادم — ولا أدري لمَ سُمِّيت كذلك — وفي قمة هذا التل نجد معبدًا مصريًّا لهاتور وبه عدة نقوش يرجع تاريخها إلى الأسرة الحادية عشرة، وقد وُسِّع المعبد في أيام الأسرة الثامنة عشرة، وبالقرب منه في وادي نصب وجد المصريون مناجم أخرى للنحاس، وبنى المصريون هناك معابد للعمال، كما عُثِر على كثير من النقوش المصرية شرقي شبه جزيرة سينا، وأكثر هذه النقوش أقامها موظفو المناجم الذين أرادوا أن تُسجَّل أسماؤهم وأعمالهم، وذهب بعض المؤرخين إلى أن الهكسوس من قبائل عربية، وضَرَبَ بعضُ المصريين في الصحراء العربية؛ حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن المصريين أسَّسوا مستعمرة مصرية في بلاد العرب مكان يثرب؛ أي المدينة المنورة.

إذن كانت الصلة بين مصر وبلاد العرب قديمة فرضتها طبيعة الجوار بين البلدان فنشأت هذه الصلات بينهما.

وبجانب هذه الصلة التجارية، كانت هناك صلة علمية؛ فالأستاذ M. Matter[٣] يحكي أن تاجرًا من تجار الإسكندرية في القرن السادس الميلادي يُدعَى قزمان كان محبًّا للأسفار جريئًا على المخاطرة محبًّا للاطلاع على أحوال البلدان المجاورة؛ قام بعدة رحلات علمية إلى بلاد العرب والهند ووضع عدة مؤلفات عن هذه البلاد، ولكن مؤلفاته فُقِدَت ولم يبق منها إلا مقتطفات قليلة متفرقة، ومؤرخو الكنيسة المسيحية يقولون: إن الرهبنة نُقِلَت من مصر إلى بلاد العرب والشام، ويذكرون بين الرهبان الذين كان لهم أثر واضح في نشر المسيحية ببلاد العرب؛ الراهب هيلاريون وهو أحد تلاميذ مدرسة الإسكندرية، وسافر إلى غزة ودعا إلى الرهبنة فأجابه نحو ثلاثة آلاف رجل، فرقهم في فلسطين وسوريا وبلاد

العرب، وتُوفِّي سنة ٣٥٦م، وكذلك يتحدث مؤرخو المسيحية عن الناسك موسى المصري الذي عُيِّن أسقفًا لمسيحيي العرب سنة ٣٧٢م، وذهب بعضهم إلى أن نسطور صاحب المذهب النسطوري نفاه الإمبراطور ثيودوسيس الثاني إلى بترا عاصمة بلاد النبط ثم نقله إلى مصر، ولكنه استطاع أن يهرب في صحراء طيبة ومنها إلى بلاد العرب سنة ٤٤٠م وقيل: إن مذهبه انتشر في مصر وبلاد العرب، ولا سيما بعد الاضطهاد الذي لحق بأتباعه.

وفي سيرة ابن هشام أن قريشًا حين بنت الكعبة قبل الرسالة بخمس سنين استعانوا برجل قبطي نجار كان بمكة، وشراح السيرة يقولون إن اسمه باقوم، وجاء في كتب الطبقات أن جبر بن عبد الله القبطي كان أحد الصحابة الذين أخذوا عن النبي دينه، ويقول السيوطي: إن قبط مصر يفخرون بأن منهم من صحب النبي.

وكما ذهب مصريون إلى بلاد العرب جاء عرب إلى مصر، فيحدثنا صاحب الأغاني أن بعض بطون خزاعة خرجوا في الجاهلية إلى مصر والشام؛ لأن بلادهم أجدبت، وفي أوائل القرن السابع الميلادي؛ أي حوالي سنة ٦١٦م غزا الفرس مصر، ويقول الأستاذ شارب: إن الجنود الذين فتح بهم كسرى مصر كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم من العرب.[٤] وذهبت مسز بوتشر[٥] والأستاذ ميلن في كتابه[٦] إلى أن جيش الفرس كان مستمدًّا من الشام وبلاد العرب، فلم يلقوا مشقة في حكم مصر؛ إذ لعل الأغنياء في مصر كان بينهم كثير من العرب فرحبوا بأقربائهم، ولا أدري ما الذي يقصده ميلن بهذه العبارة، ولا من أين أخذها، وهي إن صحت تدلنا على شدة الصلة بين المصريين والعرب.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن تمَّ له فتح الشام وقبل أن يفتح العرب مصر انتقلت بعض متنصرة غسان برئاسة أبي ثور بن عامر بن صعصعة إلى مصر، وأقطعهم حاكم مصر منطقة تنيس، وقال المسعودي: إن عددهم عشرون ألف رجل، ولكن بتلر في كتابه فتح العرب لمصر أنقص عددهم إلى ألفين، وروى ابن إسحاق الأموي في كتابه فتوح مصر أن رئيس الغساسنة ابن عم جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة، وأنه هرب بماله وأهله بعد أن تم للعرب فتح الشام.

ولما بُعِث النبي ﷺ أرسل من قبله حاطب بن أبي بلتعة رسولًا إلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعوه إلى الإسلام، فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبي عليه الصلاة والسلام تقبَّلها شاكرًا، وأوصى بالقبط خيرًا، ورُوِيَ عنه أنه قال: «استوصوا بالقبط خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا.» قال ابن كثير: والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، أمه هاجر القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين

منهم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوال إبراهيم ابن رسول الله وأمه مارية القبطية من سناكورة انصنا.[٧] وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «أهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدًا، وأفضلهم عنصرًا، وأقربهم رحمًا بالعرب عامة وبقريش خاصة.»[٨] وكان بين الأقباط مَن صَحِب رسول الله ﷺ كجبر بن عبد الله القبطي، وروى السيوطي عن سعيد بن عفير أنه قال: «والقبط تفخر بأن منهم من صَحِب النبي ﷺ.»[٩] وجاء ذكر مصر في القرآن الكريم صراحة أو كناية في أكثر من عشرين موضعًا، ولم يُذْكَر غير مصر من البلدان بمثل هذا العدد، فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئًا عن مصر، فراحوا يتحدثون عنها، ويخترعون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها، كما طمع العرب في ثروة مصر؛ لهذا بعد أن تمَّ لهم فتح الشام جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة، يقال إن أكثرهم من عك ولخم، ويقال أيضًا إن عددهم لم يزد على أربعة آلاف نفس، ثم أتبعه الزبير بن العوام بمدد قُدِّر باثني عشر ألفًا، فلما تمَّ لهم فتح مصر وبُنِي مسجد الفسطاط أمر عمرو جنوده أن يختطوا حول المسجد الجامع كل بحسب قبيلته، فمن القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها: مهرة وتجيب ولخم وغسان وغافق،[١٠] ومن بني غافق بطن يُعرَفون بالقرافة سكنوا سفح المقطم، ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية، وصار مكانهم مقبرة المسلمين فسمِّيت المقبرة في مصر بالقرافة؛ نسبةً إلى هؤلاء القوم.[١١]

وكان مع عمرو جماعة العتقاء، وهم جماع من القبائل عُرِفوا بالصعاليك، كانوا يقطعون الطريق أيام النبي ﷺ فبعث في طلبهم وأُتِي بهم أسرى، فأعتقهم، وكان بينهم كثير من طوائف الأزد وفهم.[١٢]

كذلك شهد فتح مصر واختلط بالفسطاط قوم من الفرس هم أبناء جندباذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، وأسلموا ورغبوا في الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر[١٣] كما كان في جيش الفتح جماعة من الشام عُرِفوا في مصر بالحمراء؛ لنزول الروم بينهم، ولكنهم عرب من بَلِي (قضاعة) وفهم وعدوان وبعض الأزد، وكانوا يسكنون قيسارية وما حولها، ورغبوا في الإسلام قبل واقعة اليرموك وساروا مع عمرو إلى مصر، وسُمُّوا بالحمراء؛ لأن العرب اعتادوا أن يسموا الموالي من الروم بهذا الاسم.[١٤]

واشترك في الفتح أيضًا عدد من قبائل مختلفة، من قريش والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث، عُرِفوا في مصر باسم أهل الراية، ونُسِبَت الخطة إليهم؛ لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد من الديوان.[١٥]

أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوا الفسطاط، واختاروا الجيزة لهم مقرًّا، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع، فاضْطُر إلى أن يخاطب الخليفة في شأنهم، فكتب الخليفة إليه: «كيف رضيت أن تفرِّق أصحابك، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحرٌ لا تدري ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك، فإن أَبَوا إليك وأَعْجَبَهم موضعُهم فابن عليه من فَيْء المسلمين حصنًا.» فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة، وسكن مع همدان نافع وذو أصبح وطائفة من الحجر، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع.[١٦]

وبعد أن تمَّ فتح مصر رأينا الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام أن يُسيِّر ثلث من بالشام من قضاعة إلى مصر، فنظر الوالي فإذا «بلي» تعادل ثلث قضاعة فسيرهم إليها، فانتشروا في البلاد ولا سيما حول أخميم وما يليها، وتفرقت بلي بأرض مصر، ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (بالقرب من القصير).[١٧]

وكان عمرو بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، وقسَّم عمرو بن العاص من معه، فكان يرسل ربع الناس يقيمون ستة أشهر في رباط الإسكندرية، والربع في السواحل والنصف يقيمون معه، ولم يختلط العرب بالإسكندرية كما اختلطوا في الفسطاط، بل كان بها أخائذ، من أخذ منزلًا نزل فيه هو وبنو أبيه.[١٨] فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس، وكانت لخم أعز من ناحية الإسكندرية.

أخذ العرب يفدون على مصر أفواجًا حتى غصَّت بهم البلاد، وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما كثرت الأمداد في زمان عثمان بن عفان وما بعدُ، وكثر الناس وسَّع كلُّ قوم لبني أبيهم حتى كثر البنيان والْتَأم،[١٩] ولما ولِّي معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على البصرة، غرب جماعة من الأزد إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية،[٢٠] فنزل منهم نحو مائة وثلاثين، كما كتب معاوية إلى علقمة القطيفي عامل الإسكندرية: «إني قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة.» فكان في الإسكندرية سبعة وعشرون ألفًا،[٢١] كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفًا.[٢٢]

وفي إمارة الوليد بن رفاعة على مصر عام تسع ومائة[٢٣] نزل بنو سليم (وهم من قيس) ولم يكن بأرض مصر أحدٌ من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب والي الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك، وكان عدد بني سليم

ثلاثة آلاف رجل، فأنزلهم الحوف الشرقي وأمرهم بالزرع فاشتروا إبلًا وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأَثْرَوا، ولما بلغ ذلك عامة قومهم تحمَّل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فأقاموا سنة فأتاهم ألف وخمسمائة بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم زِيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين، ولكثرة القيسية بمصر وتجمعهم في الحوف وثرائهم العظيم كانوا مصدر فتن وقلاقل، وكثيرًا ما حاربوا الولاة، وكان يجاورهم في الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام؛ ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية واليمنية، شأنهما في ذلك شأن هاتين الطائفتين في كل الأقطار الإسلامية.

وسكن بنو عقبة وهم من جذام أيضًا ما بين أيلة وحوف مصر،[٢٤] كما ذهب قوم من جذام ولخم إلى الإسكندرية،[٢٥] وكانت لهم هناك أيام معلومة ووقائع مشهورة ولا سيما في فتنة ابن الجروي. وكان كل أمير يتولى بمصر يأتي إليها ومعه عدد من الجند العرب كي يتقوَّى بهم ويقمع بهم الفتن التي تنجم في البلاد، فقد قيل إن حوثرة الباهلي سار إلى مصر في آلاف من العرب،[٢٦] ولا أدري تمامًا من أي القبائل كان هؤلاء القوم، وأكبر الظن أنهم من القيسية عشيرة الوالي.

وبصعيد مصر أولاد الكنز، أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة فقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل عام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير، وانتشروا في البلاد، فنزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها، وكانت قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل حين، وخربوا كثيرًا من أملاك الأهالي، فقام الربعيون بمنعهم حتى كفوهم، ولم يلبثوا أن تزوجوا منهم وصارت لهم مرافق في بلاد البجة، واستولوا على مناجم الذهب بها فكثرت بذلك أموالهم.[٢٧] وانتقلت بطون من قريش إلى الأشمونيين وكان بينهم بنو جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار، وبنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان وتحالفوا جميعًا وعاشوا سالمين، والجعافرة اليوم ينسبون إلى جعفر هذا.

ويقول المقريزي: «وجهينة أكثر عرب مصر.»[٢٨] وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها، ووقع بينهم وبين بطون بلي من الخطوب ما أدى إلى دوام الفتنة بينهما، وفي الفيوم نزل بنو كلاب،[٢٩] ومن منية غمر إلى زفيتا سكن سعود جذام، وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كثير.[٣٠]

وانتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقليوب.[٣١] وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش.[٣٢] وسكن حول تنيس ودمياط قوم ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن، وكان لهم شوكة شديدة بأرض مصر، وكثروا حتى مَلئوا أسفل الأرض وغلبوا عليها، قويت إلى أن عَلِيَهم قبيلة من البربر تعرف بلواتة، تزعم أنها من قيس فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار، فصاروا أهل قرى في مكان عُرِف بهم وسط النيل وهو جزيرة بني نصر.[٣٣] ثم تعاقب على مصر طوائف من العرب في العصور التي تلت عصرنا الذي نؤرخه، ولعل أكثرها كان في القرن الخامس الهجري؛ إذ أرسل الوزير الناصر اليازوري عام اثنين وأربعين وأربعمائة فاستدعى سنبس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التي كانت منازل بني قرة، فعظُم أمرهم أيام الفاطميين، ولكنهم تفرقوا في الغربية وذلوا بعد واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستمائة أيام عز الدين التركماني، وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمة وفرقة من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب، ونزل العمريون في البرلس والكنانيون بقرب دمياط.

مما تقدم نستطيع أن نقول إن أكثر عرب مصر من اليمنين قد اختطوا دورهم في الفسطاط وغيرها، ورابطَ بعضهم في المدن الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي كان يُخشَى عليها من مهاجمة الأعداء، وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى، وهي البرلس ورشيد والإسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والواردة والعريش وأسوان وقوص والواحات، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان.[٣٤] كما كان لبعض العرب إقطاعات بمصر، كالذي قيل: إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر منية الأصبغ، فحاز منها لنفسه ألف فدان، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[٣٥] فسميت باسمه.

وكانت للعرب أيام خاصة في الربيع ينتقلون فيها من مرابطهم يجوسون خلال قرى الريف، فقد جاء في خطبةٍ لعمرو بن العاص: «فحي لكم على بركة الله ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها؛ فإنها جُنَّتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرًا ... إلى أن قال: فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود، وسخن العمود، وكثر الذباب، وحمض اللبن وانقطع الورد من الشجر فحي إلى فسطاطكم على بركة الله.»[٣٦]

فإن صحت نسبة هذا القول إلى عمرو، فإنا نتبين أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم، ويتصلون بالمصريين في قراهم ومدنهم، ويتحدثون إليهم ويتساومون، فمن المصريين من أُعْجِب بالعرب ودينهم فاعتنقه، ومنهم من دُفِع إلى اعتناقه اضطرارًا؛ لعجزه عن أداء الجزية، أو لأغراض أخرى، وكان عمرو يُعيِّن القرى التي تذهب إليها كل قبيلة؛ فكان يكتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا.[٣٧] إذن في ابتداء الفتح كانت إقامة العرب في الفسطاط والثغور، ولم يكن لهم مقام بالقرى، وكان القبط متمكنين في بلادهم لا يتدخل في شئونهم عربي، على أن المسلمين في المائة الثانية انتشروا في قرى مصر ونواحيها، وما برح القبط يثورون على المسلمين، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف في تأديبهم حتى أخضعهم له، وغلب العرب على أماكن المصريين في القرى، وحوَّلوا بعض الكنائس إلى مساجد، فاضْطُر المصريون إلى أن يتعلموا لغة الفاتحين، وإلى أن يعتنق أكثرهم دين الإسلام.

ولما كثر عدد العرب بمصر طمعوا في ازدياد ثروتهم، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة، حتى إذا كان أيام المعتصم أمر بإسقاط جميع العرب من الديوان، فاضْطُر عرب مصر إلى أن يجتهدوا في جمع المال، وصاروا كالمصريين سواء بسواء، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصريات، فلم يمض إلا زمن قليل حتى رأينا في مصر شعبًا إسلاميًّا عربيًّا،[٣٨] وقد دفعهم تعصبهم للإسلام إلى الثورة لبناء كنيسة، فقد قيل: إنه في سنة ست وعشرين وثلاثمائة هُدمَت قطعة من كنيسة أبي شنودة؛ فبذل النصارى للإخشيد مالًا ليطلق عمارتها، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء، فأفتى أحدهم، وهو محمد بن علي، بأنَّ لهم أن يرموها ويعمروها، وعُرِف ذلك عنه فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله فاستتر وندم على فُتْيَاه.[٣٩]

هوامش

(١) كتاب الشرق قبل التاريخ، الفصل الثالث.

(٢) محاضرات الأستاذ نللينو عن تاريخ جنوب بلاد العرب.

(٣) في كتابه Histoire de lecole d’Alexandrie.

(٤) History of Egypt. Chapter 21.

(٥) Story of The church of Egypt. V. I. P. 347.

(٦) Egypt under Rom: Rule, P. 114.

(٧) النجوم الزاهرة: ج١ ص٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية).
(٨) النجوم الزاهرة: ج١ ص٢٩.
(٩) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١ ص١٠٥.
(١٠) خطط المقريزي: ج٢ ص٧٦ وما بعدها.
(١١) ابن خلكان: ج١، ص٣٣٨.
(١٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٨٨.
(١٣) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٨.
(١٤) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٩.
(١٥) خطط المقريزي: ج٢، ص٧٦.
(١٦) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٨١.
(١٧) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٧، ٣٨.
(١٨) خطط المقريزي: ج١، ص٢٦٩.
(١٩) فتوح مصر لابن عبد الحكم: ص١٢٨.
(٢٠) خطط المقريزي: ج٢، ص٥٧٨.
(٢١) حسن المحاضرة: ج١، ص٩٨.
(٢٢) خطط المقريزي: ج١، ص١٥١.
(٢٣) البيان والإعراب: ص٣١.
(٢٤) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣١.
(٢٥) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٥.
(٢٦) خطط المقريزي: ج١، ص٢١١.
(٢٧) البيان والإعراب للمقريزي: ص٤٨.
(٢٨) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٨.
(٢٩) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣٦.
(٣٠) البيان والإعراب للمقريزي: ص٣١.
(٣١) البيان والإعراب للمقريزي: ص٦٢.
(٣٢) البيان والإعراب للمقريزي: ص٦٢.
(٣٣) خطط المقريزي: ج١، ص٣٦٥.
(٣٤) خطط المقريزي: ج١، ص٤٣.
(٣٥) خطط المقريزي: ج١، ص١٥٥.

(٣٦) النجوم الزاهرة: ج١، ص٧٣.
(٣٧) الخطط: ج٤، ص٢٨.
(٣٨) Lane Poole: History of Egypt in Middle Ages. P. 15.
(٣٩) المغرب لابن سعيد: ص٣٢.

الفصل الرابع

الصراع بين اللغات: اليونانية – القبطية – العربية

انتشرت اللغة اليونانية في مصر منذ أيام البطالسة، فكانت الدروس تُلقَى بها في المدارس،[١] ولكن الشعب المصري كان منصرفًا بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية، وأحجم كثير من المصريين ولا سيما سكان الوجه القبلي عن تلقي هذه اللغة الأجنبية، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد أو في القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحري أو المدن الكبرى. وفي عهد الرومان استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في مصر، وقد ذكرنا كيف كان الوالي الروماني يُصدر نشرات للمصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد، وكيف كان الولاة يُفخَّمون ويعظمون بلقب يوناني يضاف إلى أسمائهم،[٢] فكانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكم، بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى إن القس أورجانوس Origen قال: «إذا أراد يوناني أن يعلم المصريين شيئًا من القانون، فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه.» مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تكن منتشرة بين جميع المصريين. فبينما كان القديس بولس يُجِيد اللغتين اليونانية والمصرية كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية، ولما وفد أفرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الأنبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجلان أن يتفاهما إلا بمساعدة مترجم؛ لأن كلًّا منهما لم يعرف إلا لغة بلاده.[٣]

ونجد اللغتين اليونانية والمصرية منقوشتين على بعض الأحجار، ومكتوبتين على أوراق البردي، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الروماني مما يثبت أن اللغة اليونانية كانت تسير مع اللغة المصرية، ومما يؤيد ذلك أيضًا أن التعاليم الدينية التي كانت تُلقَى في الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تُقرَأ أولًا باللغة اليونانية ثم تشرح

باللغة المصرية، وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يرتلون صلواتهم باللغة اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية.

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن اللغة اليونانية كان لها أثرها في مصر، ونلمح أثر هذه اللغة في اللغة المصرية نفسها التي تعرف باللغة القبطية، فالحروف القبطية هي نفس الحروف اليونانية تقريبًا، ونجد كثيرًا من الألفاظ اليونانية دخيلة في اللغة القبطية.

أما اللغة القبطية فلم تكن لهجة واحدة، بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية. نقل كاترمير عن اثناس بطريق قوص: «تعلم أن اللغة القبطية مقسومة إلى ثلاثة أقلام؛ منها القبطي المصري الذي هو الصعيدي، ومنها القبطي البحيري المعروف بالبحيرة، والقبطي الأشموني المستعمل ببلاد الأشمونيين — كما تعلم — وإنما المستعمل الآن القبطي البحيري والقبطي الصعيدي والأصل فيها لغة واحدة.»[٤]

نلمح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هي أقل اللهجات القبطية تأثرًا باللغة اليونانية؛ لبعدها عن مراكز اللغة اليونانية وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقبطي المصري، أما اللهجة البحيرية فهي لهجة الوجه البحري وهي أكثر اللهجات تأثرًا باليونانية؛ لقربها من بلاد اليونان ومن الإسكندرية؛ حيث الجامعة ومقر الحكم ولا ندري شيئًا عن اللهجة الأشمونية.

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الديني اشتد كره المصريين لكل ما هو أجنبي، ونظروا إلى الأجانب نظرتهم إلى عنصر من عناصر الوثنية؛ فمنع المصريون اللغة اليونانية من الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية،[٥] وكان ذلك في القرن السادس الميلادي، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة في الكنيسة الملكانية، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية بعض الشيء.

وبينما كانت الكنيسة اليعقوبية في خصام عنيف مع الكنيسة الملكانية تغيَّر نظام العالم السياسي فجأة، وأصاب مصر ما أصاب كثيرًا من البلدان الأخرى، فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر، فوقفت الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتؤازرهم ضد الرومان، وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم الرومانيين، وأن يمحوا من البلاد الكنيسة الرومانية، فهدم المصريون كنائس خصومهم، وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر، ولكنهم لم يبلغوا مرادهم.

شعر المصريون في أوائل الحكم العربي بشيء من الحرية التي طالما تمنوها وعملوا من أجلها، وظهرت هذه الحرية في استخدامهم في الأعمال الحكومية التي كانوا بعيدين عنها.

وهنا أرى أن أشير إلى موضوع تحدَّث عنه مؤرخو العرب القدماء والمحدثون، تلك هي مسألة نقل الدواوين من اللغات الأجنبية إلى العربية، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع ذكروا أن الدواوين كانت تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باليونانية، من ذلك ما قاله الكندي: «حتى إذا كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية، وصرف عبد الله أشناس عن الدواوين، وجعل عليها ابن يربوع الفزاري من أهل حمص، وذلك في سنة سبع وثمانين هجرية.»[٦] فالنص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة الدواوين، وهذا يخالف ما ذكرناه سابقًا من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية، ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين في الشام كانت اليونانية، ومصر والشام كانتا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية، فكيف تكون اللغة الرسمية في الشام تختلف عن اللغة الرسمية في مصر؟ وقد حُفِظَت لنا أوراق من البردي يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك كُتِبَت باليونانية والعربية وهي وثائق صدرت من الوالي نفسه، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كُتِبَت باللغة اليونانية فقط، ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط،[٧] مما يدل على أن لغة الدواوين في مصر والشام كانت اليونانية وليست القبطية كما وهم مؤرخو العرب، وقد يكون منشأ هذا الوهم أن بعض موظفي الدواوين كان من الأقباط فظنَّ المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية في البلاد.

ومهما يكن من شيء فإن اللغة القبطية كانت لغة تؤلف بها الكتب، فالمؤرخ يوحنا النيقوسي كتب تاريخه في أيام ولاية عبد العزيز بن مروان؛ بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية.[٨]

بعد الفتح العربي كانت اللغة العربية في أول الأمر في حيز محدود في مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضْطُروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفاتحين وأن يعرفوا لغتهم، ثم أُدْخلَت بعض الاصطلاحات العربية في الدواوين، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا لغة العرب؛ تقرُّبًا إليهم وتحقيقًا لمصالحهم، فنرى القسيس بنيامين قد أجاد اللغة العربية حتى إنه شرح الإنجيل بالعربية للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان،[٩] كما كان لانتشار الدين الإسلامي في مصر أثر كبير في نشر اللغة العربية بين المصريين؛ إذ اضْطُر من أسلم منهم إلى أن يتعلم اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وإلى أن يفهم دروس الفقه.

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم في الربيع ويتصلون بالمصريين في الريف؛ فكان ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب، حتى جاء الوقت الذي ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهملوا شأنها حتى في مسائلهم الشخصية، واتبعوا المسلمين في كل شيء، وها هي أوراق البردي التي حُفظَت في دار الكتب المصرية وغيرها من المكتبات والمتاحف تؤيد ذلك، فمثلًا نجد — في القطعة رقم ١١ التي ذكرها الأستاذ جروهمان في كتابه — عَقْدَ بيع بين مصرية ومسلم كُتِب باللغة العربية ووُجِد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية هي شهادة بعض المصريين على هذا العقد؛ أن الكاتب استعمل بعض اصطلاحات مصرية خالصة، فالمصريون هم الذين يحدون الجهات بالبحري والقبلي[١٠] مما يدل على تأثر اللغة العربية بالاصطلاحات المصرية، ثم مما يدلنا على ضعف اللغة القبطية وسيرها في طريق الاضمحلال أن القديس شنودة كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية، ثم اضْطُر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى يتسنَّى للأقباط أن يقرءوها، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تُقرَأ باليونانية وتشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية، وفي القرن العاشر الميلادي كان المصري المثقف يفخر بأنه يعرف اللغة القبطية،[١١] وحدث أنه في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر نشاط غريب بين الأقباط؛ إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم ويحافظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية في دير مكاريوس St. Macarius ولكن حركتهم هذه فشلت في القرن الحادي عشر؛ لأن اللغة القبطية كانت تتقهقر أمام اللغة العربية، وازداد إلحاح الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية.[١٢] وبعد القرن العاشر الميلادي كان رجال الدين المسيحي يقرءون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية، وفي زيارة المسعودي لمصر سأل كثيرًا من المصريين عن معنى كلمة فرعون في لغتهم، فلم يظفر بجواب، ومع ذلك كله فإنا نجد اللغة القبطية كانت معروفة في مصر إلى عهد قريب، فالمقريزي ذكر في خططه: «ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية فيتحدث صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها بالعربية.»[١٣] وقال في موضع آخر: «ودير مواس خارج أسيوط من قبليها بُنِي على اسم توما الرسول، والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحيرية، ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية.»[١٤]

ونستطيع أن نقول إن كثيرًا من العرب عرفوا اللغة القبطية وتخاطبوا بها، فقد قيل إن البطريق يوسف عندما حُوكِم سنة ٨٥٠م خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب، وفهم العرب كل ما قاله وحدَّثوا به القاضي.[١٥] وذكر ابن حجر في أخبار

القاضي خير بن نعيم: «وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم.»[١٦] وقال الكندي في خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥هـ: إن ابن حديج وقف على الباب الذي ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية.[١٧] فهذا كله يدلنا على أن بعض العرب بمصر تعلموا اللغة القبطية وتخاطبوا بها.

والآن إذا فحصنا اللغة التي يتحدث بها المصريون فإنا نجد بها كثيرًا من الألفاظ القبطية، فلفظ «كان ماني» و«شونة» و«أرض شراقي» و«أردب» وغيرها، هذه كلها ليست عربية بل هي مصرية، وكان القدماء يستعملون كلمة «القباطي» وهو نوع من النسيج كان يُرسَل من مصر إلى بلاد العرب، واستعمل الكندي كلمة مواحيز بمعنى أماكن، فقال: «كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان.»[١٨] واستعمل ابن الداية لفظ «تليس» بمعنى الحقيبة الكبيرة،[١٩] ولا يزال المصريون يستعملون هذه الكلمة بنفس المعنى القديم، واستعمل المؤرخون العرب كلمة برابي، ويسمي المصريون، إلى الآن، الرياح الجنوبية بريح المريس و«إم ريس» بالقبطية معناها جهة الجنوب، وكلمة طوبة بمعنى الحجارة أصلها قبطي، وشجرة اللبخ ... إلى غير ذلك.

ونجد اختلافًا في اللهجات المصرية؛ فلهجة الصعيد تختلف عن لهجة أهل القاهرة، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد أو أهل الإسكندرية، وقد علل الدكتور جورجي بك صبحي ذلك بأن اختلاف اللهجات الآن في جهات مصر المختلفة كان بتأثر هذه الجهات باللهجة المصرية القديمة،[٢٠] وقد يكون هذا السبب صحيحًا، وأُضِيفُ إلى ذلك أسبابًا أخرى منها اختلاف اللهجات العربية التي أتى بها العرب، ثم تأثر المصريين في عصورهم المختلفة بالأمم الأوروبية الأمر الذي جعل لهجات البلاد تختلف اختلافًا واضحًا.

هوامش

(١) Quatremère: Recherches sur la Langue et Litterature de l’Egypte. P. 5.

(٢) تاريخ الأمة القبطية: ص١٢٤.

(٣) Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt. V. 2. P. 251.

(٤) Quatremère: P. 20.

(٥) تاريخ الأمة القبطية: ج٢، ص٨٨.

(٦) الولاة للكندي: ص٥٨.

(٧) أوراق البردي للأستاذ جروهمان، طبع دار الكتب المصرية في مواضع متفرقة.

(٨) تاريخ الأمة القبطية: ج٢، ص١٦٧.

(٩) Quatremère: P. 23.

(١٠) يقول المقريزي في خططه (ج١، ص٢٣): إلا أن أهل مصر يستعملون في تحديدهم بدلًا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية، فيقولون الحد القبلي ينتهي إلى كذا، ولا يقولون الجنوبي، وكذلك يقولون الحد البحري، ويريدون بالحد البحري الحد الشمالي.

(١١) Quatremère: P. 39.

(١٢) Hugh: The Monasteries of Wadi'n Natrun (New Yourk). V. I. P. 26.

(١٣) المقريزي: ج٤، ص٤٣٦.

(١٤) المقريزي: ج٤، ص٤١٧.

(١٥) كاترمير: ص٣٤، وبتلر في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية: ص٢٥١.

(١٦) رفع الإصر عن قضاة مصر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

(١٧) الولاة والقضاة: ص١١٣.

(١٨) الولاة والقضاة: ص٤١٨.

(١٩) المكافأة لابن الداية: ص٨٢.

(٢٠) محاضرة الدكتور جورجي بك صبحي عن الثقافة القبطية بقاعة يورت في ديسمبر سنة ١٩٢٣.

الباب الثاني

في الحياة العقلية

الفصل الأول

المدارس الدينية

«أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزًا علميًّا في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي.»[١] وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلومهم؛ ولذلك لم يهتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي، فاتخذوا من جامع الفسطاط مكانًا للدروس والمناقشات الدينية، ولسنا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تُلقَى في مسجد الفسطاط، ولكنا مضطرون إلى الإلمام بها؛ لأن دراسة الآداب تضطرنا إلى تتبع تطور الحياة العقلية، ورقي النثر الفني لا يتأتَّى إلا من هذه الدراسات العميقة، والمناقشات العلمية العنيفة، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه الكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلًا بعد جيل.

علم القراءات

ففي مسجد الفسطاط نرى أول ما دُرِّس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم، ورواية قراءاته، ورواية الحديث الشريف، وكان للصحابة الذين شهدوا فتح مصر أثر بارز في هذه العلوم الدينية؛ إذ هم الذين تولوا أمر التدريس في المسجد الجامع، وأول من قرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن مخمر المغافري،[٢] وكل القراءات بمصر رواية عن نافع، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش، وكان مصريًّا صميمًا فهو عثمان بن سعيد بن عدي بن غزوان بن داود بن سابق، كان أصل أجداده من الأقباط، ثم اعتنقوا الدين الإسلامي، وُلِد ورش بمصر سنة ١١٠هـ واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية، ورحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع سنة ١٥٥هـ.[٣]

ثم عاد إلى مصر، وإليه انتهت رياسة الإقراء فيها، وتُوفِّي سنة ١٩٧هـ،[٤] وساعده في نقل رواية نافع زميل له معاصر، هو سقلاب بن شنينة أبو سعيد المصري،[٥] ولكن المقريزي قال: إن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة مولى الملامس الحضرمي كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة من الهجرة، وتُوفِّي سنة ثمانٍ وثمانين ومائة من الهجرة، ولكن المعروف أن أَثَر ورش في القراءة أقوى من أَثَر أي مقرئ آخر، ويحدثنا السيوطي أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعًا إلى مصر ليعلم المصريين؛ فأقام نافع بمصر مدة طويلة،[٦] ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوي أمرها في مصر، وتعدَّد تلاميذ ورش، فمنهم أبو يعقوب الأزرق بن عمرو بن يسار المصري الذي لزم ورشًا مدة طويلة، وأتقن عنه الأداء، وخلفه في الإقراء، ولكنه انفرد عن ورش بتغليظ اللام وترقيق الراء، وكان له أثر كبير في مصر والمغرب، حتى إن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبي يعقوب هذا،[٧] وقد تُوفِّي أبو يعقوب حوالي سنة أربعين ومائتين من الهجرة.

وأخذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري المُتوفَّ سنة إحدى وثلاثين ومائة هجرية.[٨]

من ذلك كله نستطيع أن ندرك أن المصريين كان لهم أثر واضح في القراءات، وعين المصريين أخذ القراء في الأندلس والمغرب، كما كان للمصريين رأي خاص يختلف بعض الشيء عن قراءة نافع، كالذي ذكرناه عن قراءة أبي يعقوب المصري في تغليظ اللامات وترقيق الراءات.

الحديث

وفي الحديث نجد الصحابة الذين وفدوا على مصر يُكْثِرون من روايته، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية للحديث، فقد كان من نجباء الصحابة، ومن المكثرين لروايته،[٩] ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث،[١٠] فقد كان عبد الله يعرف الكتابة، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله ﷺ فاستطاع بذلك أن يحفظ عددًا من الأحاديث كما سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام، وكثيرًا ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يُسأَل في أمر لا يستطيع أن يجيب عنه. روى ابن عبد الحكم أن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نكتب ما يقول، لا أو نعم.»[١١] كما كان لغيره من الصحابة أثر بارز في رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم في آخر كتابه «فتوح مصر» فصلًا خاصًّا

بالأحاديث النبوية التي رواها المصريون، وكذلك نجد في كتاب السيوطي «در السحابة في من دخل مصر من الصحابة»، ذكر هؤلاء الصحابة وما رووه من الأحاديث، واعتمد أصحاب الكتب الستة في الأحاديث على رواية كثير من المصريين، فسعيد بن عفير ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح، وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري، وكان أحمد بن يونس ويحيى التميمي وغيرهما من شيوخ مسلم وأبي داود، ولا داعي للإفاضة هنا عن كل المحدثين المصريين.

عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية

ولكن لا بد أن نقف عند رجل مصري يُعَد من أوائل جامعي الحديث، ذلك هو عبد الله بن وهب المصري صاحب كتاب «الجامع في الحديث»، وقد عُثِر على معظم هذا الكتاب حديثًا في مدينة إدفو، ويُعَد من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم، إن لم يكن أقدمها جميعًا، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردي الذي عُرِفَت به مصر منذ القدم، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجري. أما مؤلفه، فهو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء.[١٢] وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذي ابْتُدِئ فيه تدوين الحديث والفقه والتفسير، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه، وقد يدونون ما سمعوه في صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة، ولكن جاء بعض الأئمة والمجتهدين ودوَّنوا ما رأوه وما رووه؛ فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة، وكتب الأوزاعي مذهبه بالشام، وصنَّف ابن إسحاق في المغازي، وكتب ابن وهب في مصر كتابه «الجامع في الحديث» فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفًا عند كثير من المؤرخين والكتاب؛ وذلك في أغلب الظن لأن «جامعه» كان مفقودًا، وقد يكون هذا الكتاب هو الأثر الوحيد الذي يدلنا على فضل هذا الرجل، ولعل رأي العلماء والمؤرخين في هذا المُحَدِّث يتغير بعد أن كُشِف عن جزء من كتابه، كما نرجو أن تعمل الهيئات العلمية على طبع هذا الكتاب.

ولد ابن وهب بمصر في ذي القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة، وكان كغيره من متعلمي هذا العصر، يرحل في طلب العلم إلى الحجاز والعراق، فوفد على المدينة سنة ثمانٍ وأربعين ومائة هـ، وهناك أخذ عن مالك، وما زال مقيمًا معه حينًا ويفترق حينًا آخر، إلى أن تُوفِّي مالك سنة ١٩٧هـ، ويقول ابن خلكان: إن مالكًا كان يكتب إلى ابن وهب: «إلى عبد الله بن وهب المفتي، ولم يكن يفعل هذا مع غيره.»[١٣] فهذا

يدل على أن مالكًا كان يعترف بفضل ابن وهب ومنزلته فلقَّبه بالمفتي، ويروي ابن خلكان أيضًا قصة عنه فيقول: «كتب الخليفة جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب في قضاء مصر، فخبَّأ نفسه، ولزم بيته، فاطَّلع عليه سعد بن سعد وهو يتوضأ في صحن داره، فقال له: «ألا تخرج إلى الناس تقضي بكتاب الله وسنة رسوله.» فرفع له رأسه، وقال: «إلى هنا انتهى عقلك؟! أما علمت أن العلماء يُحشَرون مع الأنبياء، وأن القضاة يُحشَرون مع السلاطين؟»[١٤] فإن صحَّت هذه الرواية فهي تحدثنا عن عقيدة ابن وهب وشدة تقواه، وقيل إن سبب موته أنه قُرِئ عليه كتاب الأهوال من «جامعه»، فأخذه شيء كالغَشْي، فحُمِل إلى داره، فلم يزل كذلك إلى أن قضى نَحْبَه، في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة.[١٥]

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصدرين هما: مالك بن أنس، وعبد الله بن لهيعة المصري، وليس لنا أن نتحدث عن مالك؛ لأنه لم يكن مصريًّا في شيء، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه الذين كانوا يدرسون مذهبه في المسجد الجامع، وكان ابن وهب من أجلِّ تلاميذه في مصر، وعنه أخذ كثير من المصريين، حتى إن السيوطي حين عقد فصلًا عمن كان بمصر من الفقهاء المالكية، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء، مثل عبد الحكم بن عبد الله الذي كان أكبر أولاد ابن عبد الحكم وأفقههم وأجَلَّ أصحاب ابن وهب،[١٦] ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية في مصر، بل نجد كثيرًا غيره، أمثال: أشهب ابن عبد العزيز العامري فقيه ديار مصر، وكانت إليه الرياسة بها، وبلغ من العلم درجة كبيرة، حتى قال الشافعي: «ما أخرجتْ مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه.»[١٧] وكان ثقة في روايته، حتى قيل: إن أشهب ما كان يزيد في سماعه حرفًا واحدًا،[١٨] وكان أساس المدرسة المالكية هو رواية الموطأ، وهذا الكتاب كغيره من الكتب الإسلامية التي أُلِّفت في هذا العصر يقوم على الرواية، ولكن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هي في الموطأ، بل كان يدقق في اختيار الأحاديث، ولعل هذا هو السبب الذي جعل المحدثين جميعًا يثقون به.

أما المصدر الثاني الذي أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه فهو عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي،[١٩] ولد سنة ست وتسعين هجرية من أصل عربي، وكان والده لهيعة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث،[٢٠] ونشأ ابنه عبد الله محبًّا للحديث، جامعًا له، فكان يرحل في طلبه،[٢١] وكان ابن لهيعة يُكنَّى أبا خريطة؛ وذلك أنه كانت له خريطة مُعلَّقة في عنقه، فكان يدور بمصر، فكلما قَدِم قوم كان يدور عليهم، فإذا رأى شيخًا

سأله: من لقيت؟ وعمن كتبت؟[٢٢] وابن لهيعة هذا تلميذ يزيد بن أبي حبيب، الذي وصفه الليث بن سعد بقوله: «هو سيدنا وعالمنا.»[٢٣] وقيل إن يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحرام والحلال، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن؛[٢٤] ولهذا كان يزيد بن أبي حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن عبد العزيز إليهم الفُتْيا في مصر، وهم: جعفر بن ربيعة وهو عربي، وعبد الله بن أبي جعفر، ويزيد بن أبي حبيب، وهما من الموالي، ولكن العرب أنفوا أن تكون الفُتْيا إلى الموالي فأجابهم عمر بقوله: «ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدًا وأنتم لا تسمون؟!»[٢٥] ولا تقف شهرة يزيد بن أبي حبيب عند الفقه أو الحديث، بل نراه من الذين اعتمد عليهم عبد الرحمن بن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر، والكندي في كتابيه الولاة والقضاة، والطبري في تاريخه وغيرهم؛ وذلك لكثرة علمه بالفتن والحروب، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشئونها وحكَّامها.

كان يزيد أستاذ ابن لهيعة وأستاذ عالمٍ مصري آخر هو الليث بن سعد، ولكن ابن لهيعة اختلف عن أستاذه ابن أبي حبيب، وعن قرينه الليث، فلم يكن حَذِرًا في قبول الروايات الكثيرة التي كانت تصل إليه، ولم يحتط في إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقات؛ لهذا قلَّ من يثق بأحاديثه وأخباره، مع كثرة ما نُقِل عنه، يقول ابن خلكان: إن ابن لهيعة كان مكثرًا من الحديث والأخبار والرواية، وكان يُقرَأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت، فقيل له في ذلك، فقال: ما ذنبي، إنما يجيئوني بكتاب يقرءونه عليَّ ويقومون، ولو سألوني لأخبرتهم أنه ليس من حديثي،[٢٦] وأظن أن هذا السبب الذي جعل ابن سعد يقول عنه: «إنه كان ضعيفًا.»[٢٧] ومن يدري لعل هذا الرجل كان سببًا في اختراع هذه الأخبار الكثيرة التي رواها ابن عبد الحكم والكندي وغيرهما، وأخذها عنهما غيرهما من المؤرخين؛ إذ إن أكثر ما ورد عن مصر مروي عن طريقه.

وروى ابن وهب كثيرًا عن ابن لهيعة، ولست أدري كيف يأخذ ابن وهب عنه، وهو الذي يدقِّق في كل وراية. فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله ﷺ مائة ألف حديث ما جُرِح في حديث واحد.[٢٨]

أما زملاء ابن وهب في نشر مذهب مالك بمصر فنستطيع أن نقول إن خاصة أصحاب مالك كانوا مصريين كابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم.

أما ابن القاسم فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم العتقي، ينسب إلى جماعة العتقاء الذين وفدوا على مصر منذ الفتح، واختطوا بالفسطاط كما ذكرنا، وُلِد سنة ١٢٨هـ

وصحب مالكًا وروى عنه مسائله كلها، وكان يقول: رجلان أقتدي بهما في ديني: مالك بن أنس في العلم، وسليمان في الورع.[٢٩] وكان يفرِّع على أصول مذهب مالك، وصارت إليه رياسة المالكية بمصر إلى أن تُوفِّي سنة ١٩١هـ، وخلفه منافسه وزميله أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي، تلقَّى العلم عن مالك والليث بن سعد والفضيل بن عياض،[٣٠] وكان من أكثر الناس علمًا وجلالة، وقد وصفه ابن وهب بقوله: كان أشهب فقيهًا في علوم شتى، ما سُئِل عن شيء إلا أجاب.[٣١] وقال الشافعي: ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه.[٣٢] وكان ينافس ابن القاسم في رياسة المالكية، حتى انتهت إليه بعد وفاة ابن القاسم، وقد انتصر لأشهب بعض المصريين أمثال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذي كان يفضِّل أشهب على ابن القاسم، وتُوفِّي أشهب سنة ٢٠٤ من الهجرة.[٣٣]

ويروي السيوطي أن أوَّل من أَدخل مذهب مالك في مصر هو عثمان بن الحكم الجذامي المُتوفَّ سنة ١٦٣هـ.

الليث بن سعد

وما دمنا نتحدث عن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثر في مصر، لا بد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصري شُهد له بالعلم والفقه، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن، لم يكن عربيًّا أصيلًا في عروبته، ولم يكن مصريًّا عريقًا في مصريته، بل كان فارسيًّا من أصبهان، وكان مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي، وُلِد الليث في قرية من قرى مصر هي قلقشندة، ويقول الليث: إن بعض أهله حدَّثوه أنه ولد سنة اثنتين وتسعين للهجرة، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجرة، ولكن السمعاني يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة، ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين،[٣٤] ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاث وتسعين،[٣٥] نشأ بمصر وتثقَّف على علمائها أمثال: يزيد بن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعة، وخير بن نعيم وغيرهم، ثم لم يقنع بهذا كله، فنراه يطوف ببعض البلدان طلبًا للعلم، فذهب إلى مكَّة للحج سنة ثلاث عشرة ومائة، وهناك أخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، وقتادة وغيرهم، وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هـ، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة،[٣٦] ففي هذه الزيارات كلها قابل عددًا كبيرًا من التابعين وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه، ونرى له شأنًا آخر من الناحية الفقهية؛ فقد كان الليث فقيهًا مُبرَّزًا، حتى إن الشافعي كان يقول: «الليث بن سعد أفقه

من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.»[٣٧] فهذا حكم إمام من أئمة الفقه لليث بن سعد، كذلك نجد ابن خلكان يروي أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث بن سعد فمرت به مسألة، فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكًا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كأن مالكًا يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو، ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث.[٣٨] ويروي السيوطي أن ابن بكير قال: ما رأيت أحدًا أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث[٣٩] والشعر، حسن المذاكرة.[٤٠] وقال سعيد بن أيوب: لو أن مالكًا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ولباع الليث مالكًا فيمن يزيد،[٤١] وكان مالك يقول: «حدَّثني مَنْ أرضى من أهل العلم.» يريد به الليث.[٤٢] ومن تلاميذ الليث عبد الله بن المبارك وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب وأشهب وأكثر هؤلاء من شيوخ ابن حنبل، وسعيد بن عفير وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التنيسي، وقد روى البخاري عن أكثرهم، كما أخذ عنه قتيبة بن سعد.

من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد في نفوس المصريين المعاصرين له، حتى قيل إن القاضي والوالي كانا من تحت أمره ومشورته، لا يقطعان أمرًا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه،[٤٣] واضْطُر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبي جعفر المنصور يقول:

لعبد الله عبد الله عندي نصائح حكتها في السر وحدي
أمير المؤمنين تلاف مصرا فإن أميرها ليث بن سعد

وكان الليث ثريًّا كريمًا، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبه في الحياة الدنيا التي لم يحرمها الله، وقد كتب مالك إليه يقول: «بلغني أنك تأكل الرقاق، وتلبس الرقاق، وتمشي في الأسواق.» فأجابه الليث بن سعد: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ إلخ الآية[٤٤] وقيل إن مالكًا أهدى إليه صينية فيها تمر، فأعادها مملوءة ذهبًا ... كما كان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيها الدنانير، فمن أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر.[٤٥]

كان الليث على حظٍّ كبير من المال، وقسط وافر من العلم، وكان يساجل مالكًا بالمراسلة، ويأخذ عليه أمورًا لا يراها هو، وقد عثرنا على إحدى هذه الخطابات التي أرسلها الليث إلى مالك مدوَّنة في كتاب «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية، وفي هذه

الرسالة نرى بعض المسائل الفقهية التي لا تعنينا في بحثنا هذا، ولكنا نستطيع أن نتخذ هذه الرسالة مثلًا للكتابة الدينية في هذا العصر.

تدلنا الرسالة على أن لغة التأليف التي كانت عربية ساذجة قد دخلها شيء من الصعوبة والتعقيد، ليس معنى هذا أن اللغة أصابها الفساد، بل خرجت عن سهولتها الأولى، وصارت لغة تأليف علمي بعد أن كانت لغة مخاطبة وحديث، واللغة لا بد لها من تغيير حتى تحتمل هذا التجديد الذي طرأ على العقلية العربية، من ذلك كله نجد شيئًا من الغرابة في هذه الكتب العلمية والدينية، ونجد ضعفًا في تأليفها، ولكن عربيتها صحيحة في الغالب، فلم يبق إلا أن المؤلفين لم يتمكنوا من تأدية المعنى الذي قصدوا إليه في قالب عربي صحيح إلا بمشقة وجهد؛ ولهذا لا تستطيع أن تفهم هذه المتون الدينية التي كتبها المؤلفون في هذا العصر وما بعده إلا بعد شرح وإطالة نظر. لم يشأ الليث في رسالته هذه أن ينمق كتاباته أو يزخرفها بالزينة اللفظية؛ لأن هذه الألوان من الزينة لم تكن قد انتشرت بعدُ؛ لهذا استعمل الأسلوب العربي القديم الذي نراه في كتب الحديث وغيرها والذي نجده في رسائل صدر الإسلام؛ فهو يبدأ بالسلام وحمد الله على طريقة المتقدمين، ثم يدعو الله للمخاطب ولنفسه، وبعد هذا كله يعرض لموضوع الرسالة:

> سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعدُ، عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك بكم وأتمَّه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيرًا، فإنها كُتُبٌ انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أَبْلُغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلًا، إلا أني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأني يحق عليَّ الخوف على نفسي؛ لاعتماد مَن قبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تَبَعٌ لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك، إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحدًا يُنسَب إليه العلم أكره لشواذ الفُتْيا، ولا أشد تفضيلًا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين، لا شريك له.

ثم نراه بعد ذلك يحدثه في أمور فقهية خالصة، ويُفتي له فيها، ومن هذا الخطاب يظهر لنا أثر ثقافة الليث، فهي ثقافة عربية خالصة، وثقافة دينية إسلامية تمثلها هذه المسائل الفقهية التي يتحدث عنها، ثم إنا لا نجد أثرًا لهذه الجمل المسجوعة، ولا التكرار والحشو، ولا ذلك الإطناب الذي نراه في الرسائل التي تكلَّف أصحابها الزينة البديعية، فهذا خطاب ديني كتب بأسلوب علمي، هو هذا الأسلوب الذي نراه في كتب الفقه، ثم نراه يختم خطابه بالدعاء لمالك، والسؤال عنه وعن آله وحاله:

> وأنا أحب توفيق الله إياك، وطول بقائك؛ لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك، وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستَيْقِنه، ولا تترك الكتاب إليَّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كانت لك، أو لأحد يصل لك؛ فإني أُسَر بذلك. كتبتُ إليك ونحن صالحون معافون، والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا، وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليكم ورحمة الله.[٤٦]

هذا هو إمام مصر الذي أسف الشافعي على فوات لَقْيِه،[٤٧] ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعلمه وفقهه لكان له شأن آخر غير هذا الشأن، ولما أهمله الفقهاء وعلماء المسلمين لا سيما هؤلاء المصريين الذين كان لهم أن يفخروا بعالمهم، ويحتفظوا بعلمه، ولكن كانت المالكية مستأثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث: «إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة.» ثم إن الليث لم يصنف من الكتب كغيره من الفقهاء، ولم يدوِّن أصحابه المسائل عنه؛ ولهذا قال الشافعي: ضيَّعه أصحابه.[٤٨]

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد إسحاق بن الفرات صاحب مالك وقاضي مصر، والذي قال الشافعي عنه: «ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس.»[٤٩] وقال ابن علية: «ما رأيت ببلدكم أحدًا يحسن العلم إلا ابن الفرات.»[٥٠] وتُوفِّي سنة ٢٠٤هـ، وكذلك إسحاق بن بكر بن مضر المصري وكان يجلس في حلقة الليث ويفتي بقوله وتُوفِّي سنة ٢١٨هـ،[٥١] وأحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي وكان وكيل الليث ومحدِّثًا عنه.[٥٢] ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وأولاده قد تفقَّهوا بالليث بن سعد، ولكنهم كانوا يُؤْثِرون مذهب مالك على مذهبه.

المدرسة الشافعية

قويت المدرسة المالكية في مصر كما رأينا، ولكن وفد الشافعي على مصر وأقام بها، فاجتمع له المصريون، ومنهم كثير من أنصار مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره، فانقسم المصريون بعد أن كادوا يُجْمعون على آراء مالك، فلما وجد بعض وجوه المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعي بأشياء كثيرة، من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه قال: «كنت أتردد إلى الشافعي، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي — وكان على مذهب الإمام مالك — فقالوا له: يا أبا محمد، إن محمدًا ينقطع إلى هذا الرجل، ويتردد إليه، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه، فجعل يلاطفهم، ويقول: هو حدث، ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك، ويقول لي في السر: يا بني، الزم هذا الرجل.[٥٣]

ويحدثنا الكندي أن عيسى بن المنكدر — الذي تولَّى قضاء مصر من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤هـ — كان يصيح بالشافعي ويقول له: «يا كذا، دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد، ورَأْيُنا واحد، ففرَّقت بيننا وألقيت بيننا الشر! فرَّق الله بين روحك وجسمك.»[٥٤]

ويحدثنا ياقوت أن رجلًا من أتباع مالك يُسمَّى فتيان كان يناظر الشافعي كثيرًا فيظهر الشافعي عليه، فضاق فتيان بذلك، وشتم الشافعي شتمًا قبيحًا، فلم يرد عليه الشافعي، وتعصَّب قوم لفتيان، فقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه، وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه ضربًا مبرحًا، فحُمِل إلى منزله ولم يزل فيه عليلًا حتى مات.[٥٥]

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية، واشتدَّ النزاع بين المدرستين، حتى أدَّى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل إلى قتال أحيانًا، فقد جاء في كتاب المغرب: «وفي سنة ٣٢٦هـ عاد أصحاب مالك والشافعي إلى القتال في المسجد الجامع العتيق، وكان في الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة، وللشافعية مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حِلَق، فلما زاد قِتالهم أرسل الإخشيد ونَزَعَ حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع، وكان يُفتَح في أوقات الصلوات، ثم سُئِل الإخشيد فيهم فردهم.»[٥٦]

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر، وقد هيَّأت الشافعية جوًّا جديدًا في العلم لم تعهده مصر من قبل؛ إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى وأن تناظرها، فابتدأت أذهان المصريين تنتبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات العلمية، ونحن إذا قرأنا كتاب «الرسالة» الذي بين أيدينا،

وهو كما يقول المؤرخون مكتوب في مصر، نجد الشافعي يستعمل فيه أحيانًا طريقة المناظرة، فيتخيل شخصًا يعارضه في تفسير نص أو فتوى، فيجيبه ويفنِّد آراءه حتى يُلزِمه الحجة، ويقنعه برأيه، وطريقة المناظرة هذه لم تُعرَف قبله في مصر، ولم نجد لها أثرًا قبل الشافعي، بل هي من آثار دراسة الشافعي في العراق والحجاز؛ حيث كثر المتكلمون وأصحاب المذاهب، وتشعبت الآراء، وكثُر الجدل بين الطوائف الإسلامية وغيرها من المذاهب الدينية الأخرى، كمناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني، والشافعي وابن علية، ونجد الخلفاء العباسيين ووزراءهم يحضرون هذه المناظرات ويقيمونها عندهم، أما في مصر فقد رأينا كيف كاد المصريون يعتنقون مذهبًا واحدًا، ولم تكن بمصر مناظرات كثيرة تشغل العلماء ورجال الدولة كما كان في العراق، ونرى بعض أمراء مصر لا يحبون أن تقام مناظرات بين العلماء أمامهم، فقد قيل إنه تنازع أبو بكر بن الحداد الفقيه وبكر بن محمد القاضي المالكي وعبد الله بن الوليد، وجرى بينهم لغط كثير في حضرة الإخشيد، فلما انصرفوا قال: «يَجْرِي هذا في مجلسي؟! كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم.»[٥٧] ومهما يكن من شيء فالشافعي هو الذي شجَّع روح المناظرة العلمية في مصر، فكان يناظر بعض المصريين؛ ليستفيد من علمهم، كالذي يرويه السيوطي أن الشافعي كان يقول للربيع بن سليمان: يا ربيع، ادع لي سرجًا — يريد سرج الغول، وهو رجل من أهل مصر، عالم باللغة، ولا يقول أحد شيئًا من الشعر إلا عَرَضَه عليه — فيأتي به، فيذاكره ويناظره، ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعي: يا ربيع، نحتاج أن نستأنف طلب العلم.[٥٨] كما كان يناظر مخالفيه من الفقهاء، كالذي يرويه صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبي صالح كاتب الليث بن سعد قال: كنا مع الشافعي في مجلسه فجعل يتكلم في تثبيت خبر الواحد عن النبي ﷺ فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن عُلية — وكان أحد المتكلمين، وممن يقول بخَلْق القرآن، وكانت له مع الشافعي مناظرات ببغداد، وكان مجلسه بمصر عند باب الضوال — فلما قرأنا عليه جعل يحتج لإبطاله، فكتبنا ما قال ابن علية، وذهبنا به إلى الشافعي فنقضه الشافعي، ثم كتبنا ما قال الشافعي، وذهبنا به إلى ابن علية، فجعل يحتج بإبطال ما قال الشافعي فكتبناه، ثم جئنا به إلى الشافعي، فقال: إن ابن علية ضال قد جلس عند باب الضوال يُضِل الناس.[٥٩] وكان من أثر مناظرات الشافعي مع ابن علية أنْ وضع ابن علية وعيسى بن أبان كتابًا عن الشافعي والرد عليه، ورد عليهما داود بن علي الأصبهاني.[٦٠] وهكذا أخذ المصريون يؤلفون كتبًا في المذاهب والدفاع عنها،

وأخذوا عن الشافعي طريقته في الكتابة العلمية؛ إذ كان يأتي بالآية أو الحديث ويشرحه، ثم يستنبط منه ما ينتهي إليه رأيه، وكان يختار من الألفاظ الجياد الدقيقة ما تلائم المعاني، وجاء تلاميذ الشافعي فحوَّلوا العبارة إلى نصوص علمية، محذوفة السند، كالتي نراها في مختصر المزني مثلًا، فقد أخذ كلام الشافعي وفهمه وكتبه على طريقة أستاذه دون أن يأتي بالأسانيد، فوُجِدَت بذلك روح الكتابة عند المؤلفين المصريين.

وكان كتاب «الأم» مثالًا يحتذيه رجال المدرسة الشافعية في كتاباتهم، وهذا الكتاب ليس كتابًا واحدًا، بل هو مقسَّم إلى عدة كتب، وفي كل كتاب موضوع خاص، وكما قلت كان يأتي بالآية أو الحديث فيفسره، ويعلق عليه بجمل قصيرة متينة التركيب والأسلوب، وفي مقدمة الرسالة نجد الشافعي يبدأ قوله بالحمد ويكرِّر في ذلك، وهذه الطريقة ليست مصرية، بل هي طريقة عبد الحميد الكاتب، واستعملها كتَّاب العراق في رسائلهم المطوَّلة، ثم نراه بعد ذلك يستطرد في الموضوع الواحد، فبينما هو يحمد الله يذكر آية أو نصًّا ويفسرها، ثم يعود إلى الحمد مرة أخرى، ويكرره بالعطف، وقد أكثر من الاستطراد وأطال، ثم يصلي ويسلم على النبي في الديباجة، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجدا في الرسائل والكتب، حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك في رسائله، حتى عُدَّت من مناقب الرشيد وقد اتبعها الكتاب بعده.

والشافعي كان فصيحًا في تعبيراته وألفاظه، فكان لذلك أثره في تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنه ما قال حتى اختلف الكتَّاب أخيرًا في كتاب «الأم» أهو للشافعي أو للبويطي تلميذ الشافعي.[٦١]

والذي أراه أن تلاميذ الشافعي رووا ما في الأم عنه، وجمع البويطي ما رواه عن الشافعي، وسماه الأم، فالشافعي نفسه — في أغلب الظن — لم يسمِّ كتابه الأم، بل كان يُملِي على تلاميذه دروسًا مُقسَّمة إلى الكتب أو النصوص التي يتكوَّن منها الأم فسماها البويطي الأم. كذلك كان الأمر في كتاب الأصول لأبي حنيفة، فإن أبا الحسن الشيباني هو الذي جمع ما في الأصول وسمَّاه بهذا الاسم، ولكنا نلاحظ أن الشافعي كتب بعض فصول الأم بنفسه، وروى الربيع بعضها عنه، وإذن فالشافعي هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم الذين جمعوه ورتَّبوه حتى أخذ مظهره الحالي.

وكما أثَّر الشافعي في المصريين تأثيرًا محسوسًا، كذلك نراه يتأثر بالحياة المصرية نفسها، فالشافعي كان من مدرسة الحديث؛ أي من تلاميذ مالك، وقد هاجم مدرسة الرأي — أي مذهب أبي حنيفة — أثناء زيارته للعراق، ولكنا نجده في مصر يهاجم

مدرسة الحديث ممثلة في مذهب مالك، ويكوِّن مذهبه الجديد في مصر. كذلك نراه قد كتب الرسالة مرتين؛ كتبها أولًا في العراق، ثم أعاد كتابتها في مصر بعد أن غيَّر فيها بعض التغييرات التي تلائم الحياة المصرية، وكذلك نقول عن مذهبه فقد كتبه مرتين، كتب في العراق مذهبه القديم، وكتب في مصر مذهبه الجديد، ويستطيع رجال الفقه أن يفرِّقوا بين المذهبين لو قُدِّر للمذهب القديم البقاء.

أما تلاميذ الشافعي الذين كان لهم الفضل في حفظ مذهبه ونشره فقد عدَّهم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي:[٦٢]

فعليك، يا من رام دين محمد ... بالشافعي وما تلاه وقالا
أعني محمدًا بن إدريس الذي ... فاق البرية رتبة وكمالا
وأجب كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جل جلالا
فأجلُّهم شيخ الأئمة أحمد[٦٣] ... فيما رواه من الحديث وقالا
والأعيني[٦٤] ويونس الصدفي[٦٥] والـ ... ـمزني[٦٦] آخر من إليه مالا
وكذاك حرملة[٦٧] بن يحيى والبوي ... ـطي[٦٨] الذي قد أعجز الإشكالا
واذكر أبا ثور[٦٩] فقيه عراقه ... وفريدها والحارث البقالا
ثم الربيعان[٧٠] اللذان تفنَّنا ... في فقهه وتحمَّلا الأثقالا
والزعفراني[٧١] الصدوق ورهطه ... في كل قطر وأعرف الأبطالا

وأول قاضٍ شافعي ولي مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم الثقفي، ولي القضاء سنة ٢٨٤هـ، ولما عُزِل رجع إلى دمشق، وكان الغالب على أهلها قول الأوزاعي، فأبو زرعة هو الذي أدخل مذهب الشافعي دمشق، وتبعه من بعده كثير من القضاة،[٧٢] وقيل إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ مختصر المزني مائة دينار يهبها له.[٧٣]

وهناك قاضٍ آخر كان له أثره في الأدب والفقه هو أبو عبيد على بن الحسين بن حرب المعروف بحربويه، وهو من أهل بغداد ودخل مصر في شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين من الهجرة، وظل قاضيًا على مصر إلى أن عُزِل سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فخرج من مصر إلى بغداد؛ حيث تُوفِّي سنة تسع عشرة وثلاثمائة من الهجرة، حدَّث عن النسائي، وتفقه على أبي ثور صاحب الشافعي، وحدَّث في زمن ولايته، فلما صرف أملى على المصريين وكتبوا عنه المجالس، وروى عنه أبو جعفر الطحاوي وأبو بشر الدولابي،

وكان له مركز قيم في مصر حتى إنهم أخذوا أقواله أمثالًا كقوله: «إن البغاث بأرضكم يستنسر.» قال الطحاوي: كنت أذكر عنده ابن أبي عمران الحنفي فقال لي: «إلى كم تقول ابن أبي عمران؟ قد رأيت هذا الرجل بالعراق، إن البغاث بأرضكم يستنسر.» قال: فصارت هذه الكلمة بمصر مثلًا.[٧٤]

وقال الطحاوي أيضًا: كان أبو عبيد يذاكرني بالمسائل، فأجبته يومًا في مسألة، فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة، فقلت له: أيها القاضي، أوَ كل ما قاله أبو حنيفة أقول؟ قال: ما ظننتك إلا مقلِّدًا، فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي، فقال لي: أو غبي، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلًا.[٧٥] وكانت توقيعات أبي عبيد تخرج مُعَنْوَنة مختومة وكتبت بمصر ألفاظه، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فقهًا وبلاغة،[٧٦] ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شيء.

المدرسة الحنفية

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثِّرًا بما كان في العراق من مذاهب المتكلمين وأهل الرأي، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادرًا من المدينة أو مكة، فلا نجد مصريين اهتموا كثيرًا بمذهب أبي حنيفة في أول الأمر، إنما نَقَلَ المذهب إلى مصر القضاة الذين كانوا يُعَيَّنون من العراق، ولعل أول قاضٍ تولى مصر ممن دان بمذهب أبي حنيفة هو إسماعيل بن اليسع الكندي[٧٧] الذي ولي سنة ١٦٤هـ، وقد كرهه المصريون؛ لأنه كان يذهب مذهب أبي حنيفة، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب[٧٨] حتى إن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضي، ويقول: «إنك وليتنا رجلًا يكيد سنة رسول الله ﷺ بين أظهرنا، مع إنا ما علمناه في الدينار والدرهم إلا خيرًا.» فاضْطُر الخليفة إلى عزل القاضي.[٧٩]

وأشهر قضاة مصر الحنفيين في ذلك الوقت، هو القاضي بكار بن قتيبة بن عبيد الله بن أبي برذعة من نسل ابن أبي بكرة الثقفي مولى رسول الله ﷺ وصاحبه، ولد بكار بمدينة البصرة وأخذ الفقه عن هلال بن يحيى، وعيسى بن أبان وغيرهما من مشايخ البصرة، وروى عنه أبو داود السجستاني، وابن خزيمة، وأبو عوانة وأكثر عنه الإمام الطحاوي فقيه الحنفية بمصر وغيرهم.

وَلِيَ قضاء مصر من قبل المتوكل، فدخلها سنة ست وأربعين ومائتين من الهجرة، وكان يحدِّث في المسجد الجامع، وكثيرًا ما كان أحمد بن طولون أمير مصر يجيء إلى

بكار وهو على الحديث فما يشعر به بكار إلا وهو جالس إلى جنبه.[٨٠] ويذكر ابن حجر عن ابن زولاق أنه كان لبكار اتساع في العلم والمناظرة، ولما رأى مختصر المزني، وما فيه من الرد على أبي حنيفة شرع هو في الرد على الشافعي، فقال لشاهدين من شهوده: اذهبا إلى المزني فقولا له سمعت الشافعي يقول ما في هذا الكتاب؟ فمضيا وسمعا المختصر كله من المزني، وسألاه عما إذا كان هذا كلام الشافعي، فرد بالإيجاب، فعادا إلى بكار فأخبراه بذلك، فقال: الآن استقام لنا أن نقول: قال الشافعي، ثم صنف الرد المذكور.[٨١]

وكان بكار يشتهي أن يسمع كلام المزني، فاجتمعا يومًا في جنازة، فأشار بكار إلى أبي جعفر التل — وكان حنفيًّا أيضًا — أن يسأل المزني عن مسألة، فقال التل: ما رأيت أعجب من أصحابنا الشافعيين، لهم أحاديث في تحريم قليل النبيذ، ولنا أحاديث في تحليله، فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا؟ فقال المزني: ليس يخلو أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها، فإن كانت قبلها فهكذا نقول إنها كانت محللة ثم حرمت، فما نحتاج إلى أحاديثكم، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد إنها كانت حلالًا ثم صارت محرمة ثم حللت! فأُعْجِب بكار بقول المزني، وقال: سبحان الله! إن يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا.[٨٢] وكان بكار يخالف أصحابه في تحليل قليل النبيذ ويذهب إلى تحريمه.

ظل بكار قاضيًا على مصر، ويحدث المصريين بمذهب أبي حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق ولعنه، فرفض بكار فحبسه ابن طولون، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في السماع منه، فأذن لهم، فكان بكار يحدثهم من طاق في السجن إلى أن تُوفِّي سنة ٢٧٠هـ.

أما الطحاوي فهو يُعَد إمام المصريين، في مذهب الحنفية؛ لكثرة تلاميذه وخصب نتاجه، وُلِد سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين من الهجرة، وصحب المزني الشافعي وتفقه به، ثم ترك مذهب الشافعي وصار حنفيًّا، وكان كاتبًا للقاضي بكار، وسمع الحديث منه ومن خَلْق من المصريين، ومن الغرباء القادمين، وتُوفِّي سنة ٣٢١هـ، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه، أُولِع الناس بها لا سيما كتابه «المختصر في الفقه» الذي وضع له الفقهاء شروحًا عدة.

واشتد تنافس المذاهب في مصر فإذا قُلِّد قاضٍ شافعي كادَ لأصحاب المذاهب الأخرى، كالقاضي إسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذي ولي سنة ٣٢١، فقد تحدث

مع الأمير تكين فبعث صاحب الشرطة فأقام من كان بالجامع الكبير من المالكيين والحنفيين.[٨٣] ويروي ابن حجر عن ابن زولاق أن الإخشيدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه؛ لكراهتهم في الشافعية.[٨٤] وأمر القاضي الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعي وأمر بنزع حصرهم.[٨٥] وروى الكندي أن القاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خَلْق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد، ومدحه الشاعر الحسين الجمل الأكبر بذلك.[٨٦]

التصوف في مصر

مضي القرن الأول من الهجرة ولم نعرف أنه كان بمصر نزعة صوفية لها شعائرها وتقاليدها الخاصة المعروفة حتى كان أواخر القرن الثاني ظهر ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، كان من أخميم من أسرة نوبية، ولا ندري عمن أخذ هذا اللون من التعبُّد، فقد قيل إن أستاذه شقران العابد، وقيل عن فاطمة النيسابورية، وقيل إنه كان يتصل بالرهبان في الأديرة فأخذ عنهم الزهد والانقطاع عن ملاذِّ الحياة والإقبال على العبادة والتفاني في الحب الإلهي، وإنه أخذ عن هؤلاء الرهبان شيئًا من العلوم الفلسفية التي خلفتها الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة، فأدخل ذلك كله في تعبيراته عن حبه الإلهي والمعرفة، وقيل إن بعض الرهبان الذين اتصل بهم كانوا يقرءون النقوش المصرية القديمة، وأطلعوا ذا النون عليها، وعلَّموه أسرارها فكان يذهب إلى البرابي ويحاول فك طلامسها ورموزها، وكان ذا النون صاحب خيال رائع فليس ببعيد أن يستفيد ذو النون من هذه الرموز بما يغذِّي خياله ويوحي إليه بما نراه في أقواله وأفعاله وأشعاره من تفانٍ في الذات الإلهية، كل هذه خلافات حول المنبع الذي استقى منه ذو النون، ولا نستطيع أن نرجِّح إحداها؛ لغموض شخصية ذي النون نفسه، ولأن ما بقي لنا من آثاره لا تكفي لأن نحكم عليه حكمًا صحيحًا أو قريبًا من الصحيح، ومهما يكن من شيء فإن ذا النون روى الموطأ عن مالك ولكنه قام يدعو إلى طريقته في أخميم وتبعه خلق كثير، ولكنه رُمي بالزندقة؛ لأنه ابتدع في مصر الإسلامية ما لم يكن معروفًا من قبلُ، ورفع علماء أخميم أمره إلى والي مصر الذي حاكمه أمام عبد الله بن عبد الحكم زعيم المدرسة المالكية بمصر، ومن الطبيعي أن تختلف نزعة ذي النون عن نزعة الفقيه عبد الله بن عبد الحكم، وتاريخ الإسلام مملوء بالنزاع بين الصوفية والفقهاء، ذلك أن الفقهاء يميلون دائمًا إلى ظاهر القرآن والسنن النبوية والعناية باستخراج الأحكام منهما

حسب ما تؤديه اللغة والاستدلال المنطقي، ثم يراعون دائمًا أن يقسموا الأعمال إلى أركان وفروض وأعمال، أما الصوفية فلا يفرقون بين واجب ومسنون، وإن الأعمال الظاهرة ليست بذات قيمة بجانب الباطن، ولكل فرض من فرائض الدين أسرار، ولكل شعار من شعائر الدين رموز، ويفضلون الطهارة القلبية قبل كل شيء، ولِتضارب النزعتين سمَّى الفقهاء أنفسهم رجال الشريعة، وسمى الصوفية أنفسهم رجال الحقيقة، ولما كانت الصوفية جديدة في الحياة الإسلامية المصرية في القرن الثاني والثالث من الهجرة وكانت الصوفية مضطهدة في كل بقاع العالم الإسلامي، ويكفي أن نذكر قصة الحلاج والمحاسبي مع أحمد بن حنبل وغيرها، وكان ذو النون أول صوفي اضْطُهد في مصر بسبب نزعته، فترك مصر ورحل إلى بلاد عديدة كبلاد المغرب والحجاز واليمن، وبعد أن هدأت الحالة عاد إلى مصر بعد أن تُوفِّي عبد الله بن عبد الحكم، ولكن ثار الفقهاء ضده من جديد وكان قاضي مصر إذ ذاك محمد بن أبي الليث الذي امتحن المصريين بخلق القرآن، فأراد ذو النون أن يهرب من مصر مرة أخرى ولكنه لم يفعل، فقُبِض عليه وأرسل إلى بغداد؛ فقِيدَ وسيق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول: هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه، وكل فعاله عذب حسن طيب، وأنشد:

لك من قلبي المكان المصون كل يوم عليَّ فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلًا فيك والصبر عنك ما لا يكون

وكان بعض رجال حاشية المتوكل اعتنق الصوفية، فسعى في إطلاق سراحه، فأحضره المتوكل وتأثر بوعظه ورأى أنه ليس بذي النون مظهر من مظاهر الخوف على الدولة أو الدين، فأطلق سراحه وبذلك نصر المتوكل الصوفية على الفقهاء متأثرًا بشخصية ذي النون، وتُوفِّي ذو النون بمصر سنة ٢٤٨.

وكان ذو النون من أوائل الصوفية الذين استعملوا كلمة الحب وتوسَّع في معنى الحب الإلهي، وفسره تفسيرًا لا يزال أساسًا من أسس الصوفية إلى اليوم. كما قيل إنه أول من تكلم في الأحوال والمقامات، وينسبون إليه أنه أول من وسَّع الكلام عن الولاية، وبحث من أيهم أفضل النبي أم الولي، وكذلك ينسبون إليه كلمة الإبدال وأنه أول من فصَّل مسألة المعرفة إلى غير ذلك من الآراء الصوفية التي نراها اليوم.

ولأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية نجد شيئًا اسمه الصوفية، لهم كيان وتدخل في أمر البلاد، ويقول الكندي[٨٧] وابن حجر: كانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرون

بالمعروف وينهون عن المنكر، وكان عيسى بن المنكدر منهم، فلما ولي القضاء كانت تأتيه وهو في مجلس الحكم، ثم أتت تلك الطائفة فقالوا: إن أمير المؤمنين المأمون قد ولَّى أبا إسحاق بن الرشيد مصر، وإنا نخافه ونخشى أن يشدَّ على أهل العدوان فاكتب لنا كتابًا إلى المأمون بأنك لا ترضى بولايته، ففعل ذلك ابن المنكدر وبلغ الكتاب المأمون وأطلع عليه أبا إسحاق المعتصم فعزل ابن المنكدر عن قضاء مصر.

فهذا يدلنا على أن الصوفية أصبح لهم مكانة وعصبة في مصر؛ من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت حركة كبيرة قوية، وأخرجت مصر عددًا كبيرًا من القراء والمحدثين والفقهاء، بجانب هذه الحركة الأدبية التي سنتحدث عنها في الفصل القادم.

هوامش

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين: ص٢٢٨ (الطبعة الأولى).
(٢) خطط المقريزي: ج٤، ص١٤٣.
(٣) معجم الأدباء: ج٥، ص٣٣.
(٤) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٢٧.
(٥) شرحه.
(٦) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٢.
(٧) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٧٨.
(٨) شرحه.
(٩) حسن المحاضرة: ج١، ص١٢٤.
(١٠) فتوح مصر لابن عبد الحكم.
(١١) النجوم الزاهرة: ج١، ص١٧١.
(١٢) ابن خلكان: ج١، ص٢٤٩.
(١٣) ابن خلكان: ج١، ص٢٤٩.
(١٤) شرحه.
(١٥) ابن خلكان: ج١، ص٢٤٩.
(١٦) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٥٤.
(١٧) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٦.

(١٨) النجوم الزاهرة: ج٢، ص١٧٥.
(١٩) انظر النووي: ج١، ص٣٦٤، والسمعاني: ص٤٠٥.
(٢٠) حسن المحاضرة: ج١، ص١٤٥.
(٢١) تاريخ الإسلام للذهبي.
(٢٢) النجوم الزاهرة: ج٢، ص١٧٥.
(٢٣) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٣.
(٢٤) النجوم الزاهرة: ج١، ص٣٠٨.
(٢٥) خطط المقريزي: ج٤، ص١٤٣.
(٢٦) ابن خلكان: ج١، ص٢٤٩.
(٢٧) الطبقات الكبرى لابن سعد: ص٢٠٤. طبعة ليدن سنة ١٣٣٨هـ.
(٢٨) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات: ص٤٥ (مطبعة بولاق سنة ١٩٠٧).
(٢٩) الكواكب السيارة: ص٣٩.
(٣٠) الديباج لابن فرحون: ص٩٨ (طبعة السعادة سنة ١٢٩٣).
(٣١) الكواكب السيارة: ص٣٧.
(٣٢) ابن خلكان: ج١، ص٧٨.
(٣٣) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٦.
(٣٤) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٤.
(٣٥) ابن خلكان: ج١، ص١٣٨.
(٣٦) يراجع ما كتبه الأستاذ Guest في مقدمة كتاب الولاة للكندي عن الليث ابن سعد.
(٣٧) ابن خلكان: ج١، ص٤١٨.
(٣٨) شرحه.
(٣٩) في الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة: «يحسن القرآن والفقه والنحو والطب والشعر.»
(٤٠) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٤.
(٤١) كتاب الرحمة الغيثية للعسقلاني: ص٦ (طبع بولاق سنة ١٣٠١هـ).
(٤٢) شرحه: ص٨.
(٤٣) النجوم الزاهرة: ج٢، ص٨٢.

(٤٤) شرحه.
(٤٥) ابن خلكان: ج١، ص٤٣٨.
(٤٦) نص هذا الخطاب في كتاب إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية: ج٣، ص٨٢ (طبع فرج الله زكي سنة ١٣٢٥هـ).
(٤٧) ابن خلكان: ج١، ص٤٣٨.
(٤٨) الرحمة الغيثية للعسقلاني: ص٩.
(٤٩) حسن المحاضرة: ص١٦٦.
(٥٠) الكندي: ص٣٩٣.
(٥١) حسن المحاضرة: ص١٦٧.
(٥٢) الكواكب السيارة: ص٨٣.
(٥٣) ابن خلكان: ج١، ص٤٥٦.
(٥٤) الكندي: ص٤٣٨.
(٥٥) معجم الأدباء: ج٦، ص٣٩٥.
(٥٦) المغرب في أخبار المغرب: ج٤، ص٢٤.
(٥٧) المغرب: ص٣١.
(٥٨) بغية الوعاة: ص٢٥٢.
(٥٩) تاريخ بغداد: ج٦، ص٢٠.
(٦٠) شرحه: ج٦، ص٢٢.
(٦١) راجع بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم (مطبعة حجازي بمصر سنة ١٩٣٤).
(٦٢) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات: ص١٥١.
(٦٣) يقصد الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف.
(٦٤) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أعين بن ليث، وُلِد سنة اثنتين وثمانين ومائة، وتُوفِّي سنة ٢٦٨، سمع من ابن وهب وأشهب، ثم صحب الشافعي وتفقه به وحُمِل في محنة خلق القرآن إلى القاضي بن أبي دؤاد ببغداد ثم رُدَّ إلى مصر وانتهت إليه رياسة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعي، وله كتاب السنن على مذهب الشافعي.
(٦٥) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفي المصري، روى عن ابن عيينة، وتفقه على الشافعي، وقرأ على ورش وتصدَّر للإقراء والفقه، ولد سنة ١٧٠، ومات سنة ٢٦٤،

وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجة، وكان الشافعي يقول عنه: ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى (ابن خلكان: ج٢، ص٤١٨).

(٦٦) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني، يعتبر إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعي وفتاويه، صنَّف كتبًا كثيرة في مذهب الشافعي منها الجامع الكبير والصغير والمختصر ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتبرة وغيرها، وكتابه المختصر أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسروا ما فيه (ابن خلكان: ج١، ص٧١، والفهرست: ص٢٩٨-٢٩٩) ويقول السيوطي: إن الشافعي قال في المزني إنه لو ناظر الشيطان لغلبه (حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٨). ولد سنة ١٧٥، وتُوفِّي سنة ٢٦٤.

(٦٧) حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبي أبو حفص المصري، كان له مذهب لنفسه وصنَّف المبسوط والمختصر، وروى عن مسلم وابن ماجة، ولد سنة ١٦٠، ومات سنة ٢٤٣ (حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٨).

(٦٨) أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي، سمع من عبد الله بن وهب والشافعي وسمع منه كثيرون منهم أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وفي تاريخ بغداد أن الشافعي لما مرض مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي فاحتكما إلى أبي بكر الحميدي، فقال لهما: إنه سمع الشافعي يقول: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى (يعني البويطي) وليس أحد من أصحابي أعلم منه، وجلس البويطي في مجلس الشافعي (ابن خلكان: ج٢، ص٣٤٦). وكان ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده، فسعى به إلى الواثق بالله أيام محنة خلق القرآن فأُمِر بحمله إلى بغداد مغلولًا مقيدًا وأُرِيد منه القول بذلك فامتنع؛ فحُبِس في بغداد في القيد والسجن يوم الجمعة من رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين (حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٧). وللبويطي كتاب المختصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض (ابن النديم: ص٢٩٨).

(٦٩) أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي الفقيه البغدادي صاحب الإمام الشافعي وناقل الأقوال القديمة عنه، له الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه، وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأي حتى قدم الشافعي العراق فاختلف إليه واتَّبعه ولكنه خالفه في أشياء وأحدث لنفسه مذهبًا اشتقه من مذاهب

الشافعي، وله مبسوط على ترتيب كتب الشافعي وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقون على مذهبه (الفهرست: ص٢١٧) وتُوفِّي سنة ٢٤٠هـ.

(٧٠) هما الربيع بن سليمان المرادي، والربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي، أما الربيع المرادي فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي المؤذن المصري، وهو الذي روى أكثر كتب الشافعي، وقال الشافعي في حقه: «الربيع راويتي.» (ابن خلكان: ج١، ص١٨٤). وكان الربيع المرادي أقدم أصحاب الشافعي بمصر صحبة وأشهرهم محبة له (الكواكب السيارة: ص١٢٢) روى عنه أصحاب السنن الأربعة والطحاوي وأبو زرعة وغيرهم، وكان يملي الحديث بجامع ابن طولون، وهو أول من أملى به، وتُوفِّي سنة ٢٧٠ (حسن المحاضرة: ج١، ص١٩٦).

أما الربيع الجيزي فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدي الجيزي صاحب الإمام الشافعي، ولكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن عبد الله بن عبد الحكم، وروى عنه أبو داود والنسائي وغيرهما، وتُوفِّي سنة ٢٥٦ بالجيزة، وهو الذي ينسب إليه جمع الأم وترتيبه بعد البويطي، ونلاحظ أن اسم الربيع تكرر كثيرًا في كتاب الأم فيلتبس الأمر على القارئ مَن مِن الربيعين هو المقصود، وقد وُفِّق الأستاذ زكي مبارك إلى التفرقة بين الربيع المرادي والربيع الجيزي في بحثه عن كتاب الأم ص٧٣.

(٧١) أبو عبد الله الحسن بن محمد الصباح، روى المبسوط عن الشافعي على ترتيب ما رواه الربيع وخالف في شيء يسير؛ ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون على ما رواه الربيع، وقد ضاع أكثر كتب الزعفراني وتُوفِّي سنة ٢٦٠هـ (الفهرست: ص٢٩٧).

(٧٢) الكندي: القضاة والولاة ص٥٢٣، ورفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

(٧٣) تاريخ الإسلام للذهبي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

(٧٤) الكندي: ص٥٢٩.

(٧٥) الكندي: ص٥٢٨.

(٧٦) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر.

(٧٧) ذكر في حسن المحاضرة: ج١، ص٢٦٣ إسماعيل بن سميع.

(٧٨) الكندي: ص٥٧١.

(٧٩) تاريخ الإسلام للذهبي.

(٨٠) رفع الإصر.

(٨١) شرحه.
(٨٢) الكندي: ص٥١١.
(٨٣) الكندي: ص٥٤٤.
(٨٤) رفع الإصر، والكندي: ص٥٥٥.
(٨٥) الكندي: ص٤٦٩.
(٨٦) الكندي: ص٤٥٠.
(٨٧) الولاة والقضاة: ص٤٤٠، وابن حجر في كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر.

الفصل الثاني

اللغة والتاريخ

(١) النحاة واللغويون

رأينا كيف قامت بمصر مدارس دينية خالصة، استمرت منذ الفتح في نشاط ودأب، ولم نر في القرن الأول أثرًا لهذه الدراسات الأدبية واللغوية التي كَلِف بها العراقيون وغير العراقيين من الشعوب الإسلامية، ولكنا نجد تطورًا في القرن الثاني الهجري؛ إذ قامت بمصر دراسات أدبية ونحوية ولغوية، واطرد نمو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب، ونبغ عدد كبير من علماء المصريين، وكثرت المؤلفات العلمية التي أفادت المصريين كما استفاد منها غير المصريين.

فمن النحاة الذين كان لهم أثر محمود في مصر بنو ولَّاد، وأشهرهم الوليد بن محمد التميمي النحوي المشهور بولَّاد. كان الوليد نحويًّا مجودًا، روى عن القنبي وأبي زرعة المؤذن كُتُب اللغة والنحو، وأصله من البصرة، ونشأ بمصر، ودخل العراق، ولم يكن بمصر شيء من كتب النحو واللغة قبله، وأخذ عن المهلبي تلميذ الخليل بالمدينة، ثم عن الخليل نفسه،[١] وتُوفِّي سنة ثلاث وستين ومائتين من الهجرة، ومحمد بن ولَّاد التميمي الذي أخذ عن الدينوري النحو والأدب، ثم رحل إلى العراق، وأخذ عن المبرد وثعلب، وكان يؤدب ابن صاحب خراج بغداد،[٢] ولكنه عاد إلى مصر يعلِّم الناس، ووضع كتابه «المنمق في النحو» تُوفِّي سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين من الهجرة وقد بلغ الخمسين من عمره، ثم رحل ولده أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد إلى العراق، وأخذ النحو عن الزجاج، وعاد إلى مصر وألَّف كتابه «المقصور والممدود» بها، وكان الزجاج يعرف فضل أحمد هذا، ويُثْنِي عليه عند كلِّ مَن قدم مصر إلى بغداد، فكان يقول لهم: لي عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا. فيُقال له: أبو جعفر النحاس. فيقول: بل أبو العباس بن ولَّاد.[٣] وتُوفِّي

سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة وأبو العباس هذا أستاذ أبي عبد الله الرباحي النحوي الأندلسي.

وكتاب المقصور والممدود هو الكتاب الذي نقده المتنبي في مصر، كما عرض لنقده المهلبي اللغوي النحوي على نحو ما سنذكر في حديثنا عن المتنبي، وقد طُبع هذا الكتاب لأول مرة في مصر سنة ١٩٠٨، وقد بدأه ابن ولَّاد بحرف الألف مخالفًا في ذلك مذهب الخليل بن أحمد، وقد قال ابن ولَّاد في مقدمة هذا الكتاب من ذلك: «ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا يُنْكِر ابتداءنا فيه بالألف على سائر حروف المعجم؛ لأنها حرف معتل، ولأن الخليل ترك الابتداء بها في كتابه كتاب العين، وليس غرضنا في هذا الكتاب فيما التمسناه بهذا النوع من التأليف كفرض الخليل في كتاب العين؛ لأن كتاب العين لا يُمكِّن طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلا أن يكون قد نظر في التصريف وعرف الزائد والأصلي من المعتل والصحيح، والثلاثي والرباعي والخماسي ومراتب الحروف من الحلق واللسان والشفة وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في اللفظ على وجوه الحركات وإلحاقها ما تحتمل من الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة، ويحتاج مع هذا إلى أن يعلم الطريق التي وصل الخليل منها إلى حظر كلام العرب، فإذا علم هذه الأشياء عرف ما يطلب من كتاب العين، والذي نذهب إليه في هذا الكتاب غير هذا المذهب؛ لأنا نقصد إلى أن نقرِّب على طالب الحرف فيه ما يطلبه، وأن يستوي في العلم بموضعه منه العالم والمتعلم، فلم نراع أن يكون في أول الكلمة حرف أصلي دون أن يكون زائدًا أو زائد دون أن يكون أصليًّا أو صحيح دون أن يكون معتلًّا أو معتل دون أن يكون صحيحًا. فنكلِّف الطالبَ للحرف أن يعرف أولًا جميع ما ذكرناه؛ فلذلك بدأنا بالباب الذي يكون أول ما فيه من حروف المعجم الألف.»

ثم أخذ ابن ولاد يفصل بين المقصور والممدود، ويعدد أنواعهما على مذهب الكوفيين والبصريين، هذا كله في مقدمة كتابه ثم يتبع المقدمة بالمقصور والممدود من الألفاظ العربية مُرتَّبة حسب الحروف الأبجدية، فكان يأتي بالكلمة ويشرح غريبها مستشهدًا بالأشعار القديمة حينًا وبالآيات القرآنية حينًا آخر، وقد يأتي باشتقاق اللفظ مما يدل على سعة علم ابن ولاد بالعلوم العربية الخالصة وحفظه للأدب القديم واللغة العربية. وقد ختم كتابه ببحث طويل اشتمل على كثير من قواعد الصرف، والذي ألاحظه على هذا الكتاب سلاسة أسلوبه، وخلوَّه من التعقيد الذي نراه في كتب اللغة والصرف التي أُلِّفت في العصور المتأخرة.

ووضع أحمد بن جعفر الدينوري بمصر كتابه «المهذب في النحو»، وصدَّره بالكلام عن الخلاف بين البصريين والكوفيين، وعزى كل مسألة إلى صاحبها،[٤] ولم يكن نحويًّا فقط بل كان أديبًا يدرِّس هذا النوع من العلم، فقرأ كتب ابن قتيبة كلها على المصريين، وقد استفاد الأندلسيون من هذا الرجل، كما استفاد منه المصريون، فقد روى السيوطي أن محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالأفشين القرطبي رحل إلى المشرق، ولقي بمصر أبا جعفر الدينوري، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية،[٥] وكان الدينوري قد أخذ كتاب سيبويه بالبصرة عن المازني وتتلمذ للمبرد،[٦] وتُوفِّي سنة تسع وثمانين ومائتين.

أما أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل فقد نبغ في النحو واللغة، وحذق القرآن وما يتعلق به، وألف في ذلك كتبًا كثيرة، نذكر منها كتاب «معاني القرآن ومنسوخه»، كما ألف في النحو واللغة والأدب نذكر من ذلك كتبه «المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين»، و«أدب الكتاب»، و«شرح المعلقات السبع»، وكتاب «طبقات الشعراء». ويروي ابن خلكان أن أبا جعفر النحاس فسَّر عشرة دواوين وأملاها على تلاميذه بمصر.[٧] وكان في مصر محمد بن حسان النحوي الذي روى النحو عن أبي زرعة المؤذن وروى عن عبد الملك بن هشام مغازي ابن إسحاق، ومات سنة اثنتين وسبعين ومائتين.[٨]

وكذلك نسمع عن محمد بن إسحاق بن أسباط الكندي أبي النضر المصري النحوي، أخذ عن الزجاج وله كتاب في النحو سماه «العيون والنكت» وقال ياقوت: إنه نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر، وكان شيخ أهل الأدب بها، وله تقدم في المنطق وعلوم الأوائل وله «المغني في النحو».[٩] وكذلك محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم وهو المعروف بالملطي، وكان نحويًّا يعلِّم أولاد الملوك النحو، ومات سنة ثلاث وثلاثمائة.[١٠]

وبجانب هؤلاء الأدباء والعلماء المصريين الذين رحلوا في طلب العلوم العربية، نجد علماء العراق وغير العراق يزورون مصر ويروون بها علومهم، وكان من أثر ذلك أن وُجدَت في مصر نهضة أدبية علمية جعلت لها مركز الزعامة في القرون التالية، فقد جاء مصرَ أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وتُوفِّي بمصر سنة ٢١٨هـ، ونراه قد تأثر بمصر، فقد روى عن علمائها أمثال ابن وهب وابن لهيعة، وكان ابن هشام إمامًا في اللغة والنحو، وقد اجتمع به الشافعي حين ورد مصر وتناشدا كثيرًا من أشعار العرب،[١١] ووفد عليها أبو العباس الناشئ الأكبر «وكان نحويًّا متملكًا متبحرًا في عدة علوم من جملتها المنطق، وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة، وأدخل على قواعد

العروض شبهًا، ومثَّلها بغير أمثلة الخليل.»[١٢] وتكسب بعلومه هذه في مصر كما سنرى في حديثنا عنه شاعرًا.

وجاء مصر محمد بن موسى الواسطي، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن، ومات بمصر سنة ٣٢٠هـ،[١٣] ويموت بن المزرع قدم مصر مرارًا كان آخرها سنة ثلاث وثلاثمائة،[١٤] ولعله في إحدى زياراته أو في هذه الزيارات كلها روى بمصر كتب خاله أبي عثمان الجاحظ.

وكذلك زار مصر محمد بن زيد بن يضحتويه بن الهيثم البردعي، وروى عنه بمصر ابن يونس المؤرخ وأبو القاسم الطبراني «وأصله من أزربيجان، نزل مصر فاستوطنها، وكان كثير العلم متفننًا في الأدب واللغة والشعر وكان ثقة أمينا.»[١٥]

ويحدثنا ياقوت أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئًا من شعر الطرماح بن حكيم، فلما قدم ابن جرير الطبري مصر سأله علي بن سراج المصري أن يُمْلِي شعر الطرماح، فجلس ابن جرير عند بيت المال يمليه ويفسر غريبه.[١٦]

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة جاء مصر أحمد بن عبد الله بن مسلمة بن قتيبة، فدخل عليه أصحاب الحديث يسألونه أن يحدثهم، فقال: ما معي إلا كتب أبي وأنا أحفظها، فإن شئتم سردتها عليكم. فلما عرف الناس ذلك قصدوه، فصار مجلسه غاصًّا بفنون الناس ممن يطلب العلوم والآداب، وقصده أبو جعفر النحاس وابن ولَّاد وأبو مخاصم المظفر بن أحمد ووجوه البلد.[١٧]

كذلك وفد على مصر محمد بن أحمد بن علي من ولد المهلب بن أبي صفرة المعروف بالمهلبي النحوي، قال عنه الزبيدي: إنه كان عالمًا نحويًّا لغويًّا ثقة،[١٨] ومات بمصر سنة ٣٤٩هـ.

(٢) المؤرخون

ظهر في مصر عقب الفتح لون من الدراسات الإسلامية وإن شئت فهو من العلوم العربية، وهو القصص، فظهر القصص الديني بمصر سنة تسع وثلاثين هجرية، وكان أول من قصَّ بمصر هو سليم بن عتر التجيبي الذي تولى القضاء بمصر مدة طويلة،[١٩] كان هذا القصص سببًا في موضوع آخر هو التاريخ، وقد عُنِي المسلمون منذ الفتح بأمر تاريخ مصر؛ لأنها ذُكرَت كثيرًا في القرآن الكريم، كما رُوِي عن النبي أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها، والمسلمون يعلمون أن إحدى زوجات النبي كانت مصرية، وأن

بعض الأنبياء والرسل كان لهم شأن في مصر، عرف المسلمون هذا كله، ورأوا بعد الفتح أشياء لم يروا مثلها كالهرم والمقابر الأخرى التي عُرِفَت بمصر باسم «البرابي»، وكان عند العرب هذا القصص الذي يحدثهم عن القدماء فشُغِفوا بالتاريخ وروايته، وزخرفوا أقوالهم بشيء كثير من القصص الخيالية التي تُثِير الضحك أحيانًا، ووضعوا من عندهم أخبارًا بعيدة كل البعد عن الصحة، وكانت هذه الأخبار كلها أساسًا لكتب التاريخ التي ظهرت بمصر، وغذَّى هذه الحركة بمصر وجود عدد من الأخباريين وأصحاب المغازي مثل محمد بن إسحاق صاحب السيرة، وعبد الملك ابن هشام راويها ومحمد بن أبي الليث الذي كان وراقًا على باب الواقدي،[٢٠] ثم وفد عليها ابن جرير الطبري مرتين، والمسعودي، وعن مؤرخي مصر نقل ابن جرير كثيرًا في كتابه وابن هشام في السيرة، وغيرهما من المؤرخين، ووضعوا عن مصر كتبًا عديدة.

ولعل أكثر الكتب القديمة تضليلًا وتخبطًا هو كتاب «فتوح مصر» الذي يسنده بعض المؤرخين إلى ابن إسحاق الأموي، ويسنده بعضهم الآخر إلى الواقدي، وإن كنت أرجح أن للواقدي كتابًا غير الكتاب الذي يُنسَب إلى ابن إسحاق، ويتجلَّى ذلك في الاختلاف الذي بين الكتابين.

كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم

وهناك كتاب آخر لمؤلِّفٍ مصري له قيمته وأثره؛ إذ لا أكاد أعرف مؤرخًا كتب عن مصر دون أن يَذْكُر هذا الكتاب، أو يأخذ عنه؛ لهذا كان كتاب «فتوح مصر» مصدرًا هامًّا من مصادر تاريخ مصر منذ الفتح، كما أنه يمثل لنا ناحية أخرى من نواحي التأليف العلمي بمصر في هذا العصر، فقد رأينا الحركة العلمية والنشاط الفكري كانا متجهين إلى العلوم الدينية في أول الأمر، ثم أُضِيف إليهما العلوم العربية الخالصة، كما اتجه المصريون إلى القصص والعلوم التاريخية، ولقد لعبت يد الخيال في هذه الأخبار التاريخية، فأخرجتها عن جادَّة الحق، ولكنها تمثل لنا عقلية العرب الذين كانوا يأخذون كلَّ ما يُروَى لهم دون أن يحاولوا تحقيقه.

هذا النوع من العلوم كان عربيًّا خالصًا، اهتم به الجاهليون والمسلمون، وأخذه بعضهم عن بعض حتى دُوِّن في القرن الثالث الهجري، ومن أوائل المدوِّنين للتاريخ ابن عبد الحكم المصري صاحب «فتوح مصر» وأحد أفراد بني عبد الحكم.

بنو عبد الحكم

نحن مضطرون إلى الوقوف عند هذه الأسرة التي كان لها أثر كبير في الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية بمصر في القرنين الثاني والثالث من الهجرة.

نحن لا نعرف شيئًا عن أولية أسرة بني عبد الحكم، ولكن ياقوت في معجم البلدان يقول: إنهم يُنسَبون إلى الحقل بلدة بالقرب من أيلة [العقبة] وأول شخص في هذه الأسرة ذكره لنا المؤرخون هو أبو عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع المُتوفَّ سنة إحدى وسبعين ومائة، وقيل إن له عدة مسائل عن الإمام مالك.[٢١]

أما نشأته وحياته فلم يصلنا عنها شيء، كذلك لا نعرف إذا كان مصريًّا أو غير مصري، وصاحب الديباج يقول عن عبد الله بن عبد الحكم أنه مولى امرأة من موالي عثمان بن عفان، ويقال بل هو مولى نافع مولى عثمان، ولا ندري أيضًا أي لون من ألوان الولاء كان ولاؤه.

وأول شخصية لها قيمتها في هذه الأسرة هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين، ولد بالإسكندرية، وقيل بمصر سنة خمس وخمسين ومائة، وأخذ الفقه عن مالك وعن إمام مصر الليث بن سعد وسمع الحديث من عبد الله بن لهيعة، ولما مات أشهب بن عبد العزيز رئيس المالكية بمصر سنة أربع ومائتين، تولَّى عبد الله رياسة مذهب مالك، ونستطيع بسهولة أن ندرك خطر هذا المركز إذا علمنا أن المسلمين في مصر كانوا جميعًا يدينون بهذا المذهب.

وكان العلماء في مصر لا يدرسون غير هذا المذهب، واجتمع حوله المصريون والوافدون من الأندلس والمغرب يأخذون عنه مذهب مالك، وتُجْمِع المصادر التي تحدَّثتْ عنه أنه كان صالحًا متحققًا بمذهب مالك، وأجمعت أيضًا على علوِّ شأنه في الفقه، ووَضَع عدة كتب منها المختصر الكبير جمع فيه ثماني عشرة ألف مسألة، والمختصر الأوسط وفيه أربعة آلاف مسألة، والمختصر الصغير وفيه ألف ومائتا مسألة، وقصر هذا الكتاب الأخير على ما في الموطأ، وله أيضًا كتاب الأهوال، وكتاب القضاء في البنيان، وكتاب المناسك، وكتاب في سيرة عمر بن عبد العزيز.

هذا من الناحية العلمية، ومن ناحية أخرى نرى المؤرخين يجمعون على أن عبد الله كان ثريًّا جدًّا وله جاه عظيم بين المصريين، ونحن لا نعرف كيف أتتْه هذه الثروة.

وبلغ من ثراه أن الشافعي لما وفد على مصر سنة تسع وتسعين ومائة تلقاه عبد الله بن عبد الحكم، وأنزله في داره وبالغ في برِّه، وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار،

واستطاع بنفوذه أن يجمع له من بعض المصريين ألف دينار أخرى، وأخذ له من بن عسامة التاجر المصري ألفًا ثالثة؛ ليتمكن الشافعي من أن يعيش بمصر عيشة راضية فقد جهل المصريون قدر الشافعي في أول الأمر وكان يود الرحيل من مصر لولا وجود بني عبد الحكم.

ويروي المؤرخون أن عبد الله كان له تأثير كبير في تولية الشهود، فكان يزكيهم ويجرحهم، وكان بعض الولاة يستشيرون عبد الله في تصريف أمور الدولة، ويحدثنا الكندي أن الوالي عبد الله بن طاهر كان يقرِّب عبد الله بن عبد الحكم ويستشيره في بعض أموره، كما كان ابن عبد الحكم واسطة الصلح بين عبيد بن السري الثائر وبين ابن طاهر، كما كان ابن عبد الحكم أحد الفقهاء الذين جمعهم الوالي ابن طاهر لاختيار قاضٍ لمصر فرشح كل واحد من الفقهاء قاضيًا، ولكن الوالي عيَّن من رشحه ابن عبد الحكم، بل ذهب ابن عبد الحكم إلى أبعد من ذلك فقد طلب من الوالي أن يزيد مرتب القاضي ففعل الوالي وحفظ القاضي، وهو عيسى بن المنكدر، يد ابن الحكم فجعله على مسائله وهنا ظهر ما يدلنا على خلق ابن الحكم، فقد جرت العادة أن يكون الشهود من طبقة خاصة ممن لهم جاه، فلما تولى ابن الحكم على مسائل القاضي أدخل بين الشهود بعض الناس ممن لا جاه لهم ولا قدر، فلما عوتب على ذلك قال: «إن هذا الأمر دين وإنما فعلت ما يجب علي.» فهذا الخبر يدلنا على أن ابن الحكم كان قويًّا في خلقه وأنه لم يحاب وجوه المصريين لجاههم، وقيل إن الرعيني الفقيه لما سمع كلام ابن الحكم قال له: «أسأل الله أن لا يرفعك بالشهادة أنت ولا واحدًا من ولدك.» فكان الأمر على ذلك، فقد بلغ ابن عبد الحكم هو وولده بالبلد ما لم يبلغه أحد؛ ما قبلت لأحد منهم شهادة قط [هكذا روى الكندي عن ابن قديد] وهذه هي الدعوة التي قال عنها ابن خلكان: إن ابن عبد الحكم لم يشهد ولا أحد من ولده لدعوة سَبَقَتْ فيه.

واستمر عبد الله بن عبد الحكم رئيسًا لمذهب المالكية وعلى مسائل القاضي حتى جاء الخبر بولاية المعتصم على مصر سنة أربع عشرة ومائتين ٢١٤، وذهبت جماعة الصوفية إلى القاضي يطلبون منه أن يكتب إلى المأمون بأن المصريين لا يقبلون ولاية المعتصم عليهم، ولكن ابن عبد الحكم أشار على القاضي بأن لا يستمع لأقوال الصوفية وأن لا يكتب إلى الخليفة، فأبى القاضي وكتب إلى المأمون، فدفع المأمون كتابه إلى المعتصم، فلما جاء المعتصم مصر عزل القاضي وحبسه كما حبس عبد الله بن عبد الحكم، فأقام ابن عبد الحكم في السجن أيامًا ثم مرض ومات في رمضان سنة أربع عشرة ومائتين، ودُفِن بجوار الشافعي في منزل بني عبد الحكم.

ترك عبد الله بن عبد الحكم أربعة أولاد: عبد الحكم بن عبد الله، وعبد الرحمن بن عبد الله، وسعد بن عبد الله، ومحمد بن عبد الله.

أما عبد الحكم وهو أكبر أولاده فكان فقيهًا أيضًا على مذهب مالك كأبيه، وأخذ الفقه عن أصحاب مالك من المصريين أمثال أبيه وعبد الله بن وهب، وقيل إنه لم يكن في أصحاب ابن وهب أتقى ولا أفقه منه بل ذهب صاحب الديباج إلى أن عبد الحكم أفقه إخوته كما عُرِف أيضًا بجودة خطه، ولم يصلنا عن هذا الفقيه شيء إلا ما قيل عن محنته التي تُوفِّي بسببها بل محنة بني عبد الحكم التي لم يقم لهم قائمة بعدها.

بدأت محنة بني عبد الحكم بمسألة خلق القرآن، فقد طلب إليهم القاضي محمد بن أبي الليث أن يعترفوا بخلق القرآن، فامتنعوا؛ فعذبهم القاضي وحمل عبد الحكم إلى العراق للإقرار هناك، فامتنع أيضًا فضُرِبَ بالسياط، وقيل إنه سجن ودخن عليه بالكبريت حتى مات في سجنه بسبب خلق القرآن، ولكن موت عبد الحكم لم يكن لهذا السبب بل كانت بسبب أموال الجروي الثائر بمصر والذي انتهت ثورته حوالي سنة ٢١٢هـ، وفي سنة ٢١٥هـ أتى الأفشين مصر وطالب علي بن عبد العزيز الجروي بالأموال التي عنده، فلم يدفع إليه شيئًا؛ فقتله الأفشين واستمر الولاة يبحثون عن أموال الجروي حتى سنة ٢٢٧ فقدم مصر يزيد التركي أحد قواد المتوكل العباسي في طلب هذه الأموال بعد أن علم الخليفة في بغداد أن بعضها عند بني عبد الحكم، وحكم القاضي ابن أبي الليث على بني عبد الحكم بألف ألف دينار وأربعمائة ألف وأربعة آلاف دينار، كما حكم على غيرهم أيضًا ونادى منادي الوالي بأن من كتم الأموال ضُرِب خمسمائة سوط وهُدِّمت داره، فأقر عبد الحكم بمالٍ عنده فبعث به إلى منزله فلم يخرج شيئًا ورُدَّ إلى يزيد التركي فعذبه حتى تُوفِّي لأربع بَقِينَ من جمادي الأولى سنة ٢٣٧هـ.

أما سعد بن عبد الله بن عبد الحكم فلم يصل إلينا شيء عنه إلا ما رواه صاحب نفح الطيب أنه كان أستاذًا لعدد من فقهاء الأندلس الذين رحلوا في طلب العلم إلى مصر، وذكر منهم أبا عبد الله محمد بن عبد الله الباجي الإشبيلي ومحمد بن عيسى ومحمد بن عمر بن لبابة وغيرهم كما كان أحد الذين روى عنهم أخوه عبد الرحمن بن عبد الله في كتابه فتوح مصر.

نتحدث بعد ذلك عن أشهر أولاد عبد الله بن عبد الحكم وهو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وُلِد محمد سنة اثنتين وثمانين ومائة، وأخذ فقه مالك عن أبيه وأشهب

وروى عن عبد الله بن وهب، ولما وفد الشافعي على مصر ونزل ضيفًا على بني عبد الحكم آخى محمدًا هذا، وكثيرًا ما سمع الشافعي يقول: «ما يُقِيمني بمصر غيره.» وعُدَّ محمد بن عبد الله من أشد تلاميذ الشافعي صلة به، وروى المزني: كنا نأتي الشافعي نسمع منه فنجلس على باب داره، ويأتي محمد بن عبد الحكم فيصعد ويطيل المكث وربما تغدَّى مع الشافعي، ثم ينزل الشافعي فيقرأ علينا فإذا فرغ من قراءته قرَّب إلى محمد دابته فركبها وأتبعه الشافعي بصره فإذا غاب شخصه قال الشافعي لمن معه: وودت أن لي ولدًا مثله وعليَّ ألف دينار لا أجد لها قضاء. وروى محمد بن عبد الحكم أنه كان يتردد إلى الشافعي فاجتمع قوم من أصحاب مذهب مالك إلى عبد الله بن عبد الحكم وقالوا: يا أبا محمد، إن محمدًا ينقطع إلى هذا الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه، فجعل عبد الله يلاطفهم ويقول: هو صغير ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك، ويقول لابنه محمد في السر: يا بني، الزم هذا الرجل. وكان الشافعي معجبًا بمحمد لفرط ذكائه وحرصه على الدرس والتحصيل حتى ظنَّ الناس من صدق مودتهما أن الشافعي يفوِّض أمر حلقته بعد وفاته إلى محمد بن عبد الحكم، وكان محمد نفسه يتطلع لرياسة مذهب الشافعية بعد الإمام الشافعي، ولكن الشافعي في مرض موته رشَّح البويطي لرياسة مذهبه، فغضب محمد بن عبد الحكم وترك الشافعية وتحوَّل إلى مذهب المالكية، وجعل لنفسه حلقة يدرس فيها مذهب مالك، وبعد موت أبيه اختاره المصريون لرياسة مذهب مالك، وذاعت شهرته في الأقطار الإسلامية حتى صارت إليه الرحلة لأخذ مذهب مالك، وروى السبكي عن الصدفي أنه قال: رأيت أهل مصر لا يعدلون به أحدًا، ويصفونه بالعلم والفضل والتواضع، وروي عن ابن خزيمة أن محمد بن عبد الحكم أعلم من رأيت على أَدِيم الأرض بمذهب مالك، وذكر صاحب نفح الطيب عددًا كبيرًا من علماء الأندلس الذين أخذوا عن محمد بن عبد الحكم.

ولما أُصِيبَت مصر بمحنة خَلْق القرآن سنة سبع وعشرين ومائتين مُنِعَ الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد، واضْطُهِد الفقهاء والعلماء وهرب أكثرهم من القاضي ابن أبي الليث، أما محمد بن عبد الله فقد أُهِين وعذِّب وأطافه القاضي ينادي بخلق القرآن حتى مرَّ بحلقة ابن صبيح المعتزلي بمصر فقال له ابن الصبيح: الحمد لله الذي هداك يا أبا عبد الله. يشير إلى أن محمد بن عبد الحكم أقرَّ بخلق القرآن،

وفي ذلك يقول الشاعر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر يمدح القاضي بن أبي الليث:

ومحمد الحكمي أنت أطفته وأخوه ينعق بالصياح الأجهر
كلٌّ ينادي بالقُرَان وخلقه فشهرتَهُم بمقالة لم تشهر

ويقول أبو المحاسن: إنه حُمِل إلى بغداد وإنه ثبت على السنة، فأعيد إلى مصر.[٢٢] ظل محمد بن عبد الحكم رئيسًا لمذهب المالكية بمصر، ولكن بعض القضاة كانوا يضطهدونه ولا أدري سبب ذلك، فمثلًا الحارث بن مسكين الذي وَلِي قضاء مصر سنة ٢٣٧هـ كان يجرح محمد بن عبد الحكم دائمًا ولم يقبل شهادته حتى قال لرجل طلب أن يستشهد بمحمد بن عبد الحكم: قل له إن كان رجلًا فليأت فليشهد.

وفي أيام أحمد بن طولون كان محمد بن عبد الحكم من جلسائه وممن أجرى عليه ابن طولون الأرزاق، ويروي المقريزي قصةً مُلَخَّصها أن ابن طولون لما حفر بئره بخطة معافر (عند القرافة) بلغه أن جماعة من الفقهاء لا يستحلون شرب مائها، فبينما محمد بن عبد الحكم في داره ليلًا إذ أتاه أحد خدام ابن طولون وقال له: إن الأمير يدعوك، فركب ابن عبد الحكم مرعوبًا مذعورًا، وعدل الغلام به عن الطريق فسأله ابن عبد الحكم فقال: إلى الصحراء والأمير فيها؟ فأيقن ابن عبد الحكم بالهلاك، فقال للخادم: الله الله فيَّ فإني شيخ كبير ضعيف مسن فتدري ما يراد مني فارحمني، فقال له الغلام: احذر أن يكون لك في السقاية قول. قال ابن عبد الحكم: فسِرْت معه وإذا بالمشاعل في الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية، فنزلت وسلمت عليه فلم يرد علي، فقلت: أيها الأمير، إن الرسول أعنتني وكدَّني وقد عطشت، فيأذن لي الأمير في الشرب؟ فأراد الغلمان أن يسقوني، فقلت: أنا آخذ لنفسي، فاستقيت وهو يراني، وشربت وازددت في الشرب حتى كدت أنشق، ثم قلت: أيها الأمير، أسقاك الله من أنهار الجنة، فلقد أرويت وأغنيت ولا أدري ما أصف، أطيب الماء في حلاوته وبرده وصفائه أم طيب ريح السقاية؟ فنظر ابن طولون إليه وقال: أريدك لأمر وليس هذا وقته فاصرفوه.

ويروي السيوطي أن كنيز خادم الخليفة المنتصر خرج إلى مصر وتفقه على مذهب الشافعي، وكان يأتي حلقة محمد بن عبد الحكم ويناظره، فسعى به إلى أحمد بن طولون بأنه جاسوس؛ فحبسه ابن طولون سبع سنين، وظل ابن عبد الحكم في رياسة مذهب مالك حتى تُوفِّي سنة ٢٦٨هـ.

أما عبد الرحمن بن عبد الله صاحب كتاب «فتوح مصر» فكان من أهل الحديث والرواية وشُغِف بالقصص والأخبار وكَلِف بالتاريخ وكان من أثر ذلك أنه وضع كتابه «فتوح مصر»، وقد أصاب عبد الرحمن ما أصاب إخوته في محنة خلق القرآن وأموال الجروي، وتُوفِّي عبد الرحمن سنة ٢٥٧هـ.

يعد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم من أقدم مؤرخي الإسلام في مصر الذين وصلت إلينا كتبهم، كان كَلِفًا برواية الأخبار من ثقات المصريين أمثال والده عبد الله، ويحيى بن بكير، وعثمان بن صالح كاتب الليث بن سعد، وغيرهم، وعنه أخذ القاسم بن حبيش وأبو سلمة التجيبي، وابن قديد وغيرهم، وإذا عرفنا أن ابن قديد أحد رواة ابن عبد الحكم كان من أهم المصادر الذين استقى عنهم الكندي كتابيه: «الولاة» و«القضاة» أدركنا بسهولة السبب الذي من أجله نرى في كتاب الكندي بعض أخبار مذكورة في «فتوح مصر» مع أننا نعلم أن الكندي كان يحاول أخذ الأخبار من نفس المصادر التي استقى منها عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، ومع ذلك فالكندي اتخذ كتاب فتوح مصر أساسًا لكتابيه، ولا سيما في الفصل الذي عقده ابن عبد الحكم عن القضاة في مصر.

كان عبد الرحمن معاصرًا لمؤرخين من أشهر وأقدم مؤرخي الإسلام، ولكنا نرى ابن عبد الحكم يمتاز عن معاصريه بأنه أوجد فنًّا جديدًا في التاريخ الإسلامي هو فن «الخطط والأخائذ»، وهذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين، ولا نعرف أحدًا كتب فيه قبل ابن عبد الحكم، ولم يُوفَّق المقريزي في قوله: «إن أول من رتَّب خطط مصر وآثارها، وذكر أسبابها في ديوانٍ جمعه هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي كتابه المنعوت «بالمختار في ذكر الخطط والآثار ومات في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سني الشدة، فدثر أكثر ما ذكر».[٢٣] لم يُوفَّق المقريزي في هذا القول؛ لأن ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر سبق الكندي في الحديث عن الخطط.

ولعل أول ما يلفت النظر إلى كتاب ابن عبد الحكم أنه مقسم حسب الموضوعات، فقد جعله، المؤلف، سبعة أبواب، وأدرج تحت كل باب ما قيل في الموضوع الذي خص له، فاختلف بذلك عن الطبري والمبرد والجاحظ وغيرهم من الأدباء والمؤرخين؛ فهؤلاء لم يحاولوا أن يقسِّموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم، وجمعوا فيها كل شاردة وواردة؛ زعمًا منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شيء بطرف، فأودعوا كتبهم كل

شيء دون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات، وقد غلب هذا النوع من التأليف على علماء العراق، حتى كان ابن قتيبة فابتدأ بترتيب كتبه، أما في مصر فكان المؤلفون يقسمون كتبهم، ويرتبون موضوعاتها حتى إن الفارابي عندما دخل مصر ومعه كتابه «المدينة الفاضلة» سأله بعض الناس أن يجعل له فصولًا تدل على قسمة معانيه، فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.[٢٤] ليس لنا أن نتحدث عما في كتاب «فتوح مصر» من أخطاء تاريخية كان مصدرها جهل العرب والمصريين بتاريخ مصر القديم، ورغبه بعض الرواة في وضع أخبار عن مصر من المحقق أنها بعيدة عن الصواب، وقد يطول بنا الأمر لو ناقشنا هذا كله، ويكفي أن أقول إن أكثر هذه الخرافات في القسم الأول من الكتاب، وهو القسم الذي ذكر فيه فضائل مصر وتاريخها من أول أمرها إلى أن فتحها العرب، وأقول خرافات؛ لأن علم الدراسات المصرية القديمة أثبت ما يخالف ما جاء في هذا الكتاب، ثم لهذه المبالغات التي لا يكاد يتصورها عقل، كوجود أشعار عربية قالها قدماء المصريين وحفروها على آثارهم!

أما القسم الثاني من الكتاب، فهو يتحدث عن فتح العرب لمصر فذكر المؤلف شيئًا عن علاقة مصر ببعض أفراد من العرب قبل الإسلام وعن كتاب النبي إلى المقوقس، وجواب هذا إلى النبي عليه السلام، ثم ذكر الفتح العربي، وتحدَّث عن مسألة اختلف فيها المسلمون منذ القرن الأول الهجري، وهي: هل فُتِحَت مصر عَنْوَة أم صلحًا؟ فبسط روايات الطرفين، دون أن يذكر رأيه، فقد كان راويًا كغيره من المحدِّثين والمؤرخين، وفي الباب الثالث يذكر الخطط والأخائذ والقطائع، وهو الفن الذي لم يسبقه غيره إليه، وفي الرابع يتحدث عن الإدارة في عهد عمرو وابن أبي سرح وعن الفيوم وبرقة وطرابلس، وفي الخامس يذكر غزو شمال أفريقيا والأندلس، وفي السادس يسرد أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦هـ؛ أي قبل وفاة المؤلف بعشر سنين، وفي السابع يروي الأحاديث التي حفظها الصحابة الذين جاءوا مصر، وقد بلغ عددهم اثنين وخمسين، فيروي لكل منهم أحاديثه التي سمعها من النبي وكان ابن عبد الحكم يعتمد على طريقة الرواية فإن تعاليمه كانت دينية كباقي أسرته، ولكنه اتجه إلى التاريخ والحديث مخالفًا في ذلك باقي أسرته الذين مالوا إلى الفقه.

ومما يحسن الإشارة إليه أن قبر بني عبد الحكم، الذي دُفِنَت فيه هذه الأسرة العلمية بجوار قبر الإمام الشافعي، فقبة ضريح الشافعي تجمع قبر الشافعي وقبر بني عبد الحكم، وهكذا كان الشافعي صديقًا لهم في حياته، فأصبح جارهم في مماته.

ابن الداية وكتاب المكافأة

كنت أودُّ أن أعرض لغير ابن عبد الحكم من المؤرخين المصريين أمثال عمار بن وسيمة المصري المتوفَّ سنة تسع وثمانين ومائتين صاحب التاريخ على السنين، وأحد تلاميذ مدرسة الليث بن سعد،[٢٥] وابن يونس صاحب تاريخ مصر،[٢٦] والكندي المؤرخ المعروف، وغيرهم كالذين ذكرهم المسعودي في مقدمة كتابه «مروج الذهب» والذين روى عنهم ابن جرير الطبري في تاريخه وتفسيره، ولكني أترك ذلك كله لمن يتوسع في دراسة الحياة العقلية في هذا العصر.

ولكن أرى أن أتحدث عن مؤرخ مصري آخر، عاش في هذا العصر واتصل ببعض الأمراء المصريين، وبمختلف طبقات الشعب، ووضع كتابًا عن هؤلاء الأمراء، ثم تحدث في كتب أخرى عن هذا الشعب وحاله، ذلك هو الكاتب المعروف بابن الداية، وإذا تحدثنا عن ابن الداية فسنتحدث عن كتابه «المكافأة»؛ لأنه مصدر من مصادر التاريخ والأدب، ونستطيع منه أن نعرف حالة سكان مصر في هذا العصر واتجاه عقولهم.

جَمَع الكتاب عدة قصص خلقية، ولكنها لم تكن خيالية، بل هي حوادث واقعية حدثت للمؤلف، أو لوالده، أو لغيرهما من المعاصرين، ويتحدث في كل واقعة من هذه على مكافأة قُدِّمت نظير عمل أو معروف، فالكتاب من هذه الناحية يستحق التقدير والبحث.

ومؤلف الكتاب هو أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المعروف بـ «ابن الداية» فإن والده يوسف بن إبراهيم كان ولد ظِئر إبراهيم بن المهدي، وأَخًا للخليفة العباسي المعتصم[٢٧] بالرضاعة، فهو لم يكن مصري الأصل، ولا أدري تمامًا إذا كان عربي الأصل أم أعجميًّا.

نشأ يوسف بن إبراهيم في دار الخلافة ببغداد، وصار مع إبراهيم بن المهدي طول حياته، وتولَّى كتابة إقطاعاته، تُوفِّي إبراهيم في أواخر سنة ٢٢٤هـ في خلافة المعتصم، وأخذ قواد الخليفة من الأتراك يُضيِّقون الخناق على العرب ومواليهم، لم يستطع يوسف البقاء في سُرَّ مَن رأى، فتركها إلى دمشق سنة خمس وعشرين ومائتين، وهناك نزل على عيسى بن حكم الطبيب النسطوري،[٢٨] ولكنه لم يشأ أن يبقى في الشام طويلًا، بل وفد على مصر، ولما علم المصريون بوجوده أقبلوا عليه؛ لأنهم سمعوا عن علمه وأدبه، وصادقوه فعاش بينهم ولُقِّب بيوسف بن إبراهيم المصري، وكان بينه وبين أحمد بن المدبر في العراق عهد صداقة ومودة، ولكن لما تولَّى بن المدبر أَمْرَ خَرْجِ مصر، ورأى حسن ظاهر يوسف ظنَّ أن ذلك عن أموال جمة لديه، فطالبه ببعض بقايا عقود انكسرت

عليه، فحبسه طويلًا حتى أنقذه أبو الفوارس مزاحم بن خاقان، وكانت أم زوج يوسف قد تولَّت تربية مزاحم.[٢٩]

كان يوسف فيما يُروَى عنه يحب العلم والعلماء، ويحرص على اقتناء المؤلفات المختلفة، كما أنه وضع عدة كتب منها: كتاب أخبار إبراهيم بن المهدي، و«كتاب الطبيخ».[٣٠] ويحدثنا ابنه أحمد أن الأمير أحمد بن طولون حبس يوسف بن إبراهيم، ولا ندري سببًا لذلك، ثم يقول: إن بعض وجوه المصريين كلَّموا الأمير في أمر يوسف فأفرج عنه،[٣١] ولعل هذه القصة تدلنا على ما كان ليوسف من المكانة في نفوس المصريين، كذلك كان يوسف على سَعة من الرزق، فقد كان يُجْرِي بعض المال على بعض الأشراف المقيمين في مصر.[٣٢]

أما مؤلف الكتاب أحمد بن يوسف، فقد عُرِفَ عنه شغفه بالعلم، وكَلَفه بالأدب، ويروي ياقوت عن ابن زولاق: «كان أبو جعفر — رحمه الله — في غاية الافتتان، أحد وجوه الكتاب الفصحاء، والحساب، والمنجمين، مجسطي، إقليدسي، حسن المجالسة، حسن الشعر.»[٣٣] لذلك كان أحد خواص بني طولون حتى عُرِف بكاتبهم، وقد أَلَّف هذا الرجل جملة كتب في التاريخ والأدب نذكر منها كتاب «سيرة أحمد بن طولون» وسيرة ابنه «أبي الجيش»، ويقول ابن زولاق: «وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبي الجيش، وأُنْشِدا في الناس، وقرأتُهما عليه، وحدَّثت بهما عنه، مع غيرهما من مصنفاته، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما.»[٣٤] وله كتاب أخبار غلمان بني طولون وكتاب «حسن العقبى» وكتاب «أخبار الأطباء» و«كتاب المكافأة»، ولعلك تدرك من أسماء هذه الكتب أن جُلَّها كتب تاريخ وأخبار، ولم تكن ككتاب ابن عبد الحكم، بل هي مجموعة أخبار وقصص تمثل الحياة التي يتحدث عنها أصدق تمثيل.

لم يكن ابن الداية كاتبًا فحسب، بل كان شاعرًا أيضًا، وروى عن نفسه فقال: «كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقًا لي، ومائلًا إلي، فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألني أن أكتب له شيئًا من شعري، فكتبت له مقدار خمسين ورقة، وكان يستحسنه ويُعجَب به، فصار إلى بغداد، وعرضه على جماعة الأحرار، وأحسن وصفي لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته، ودخل محمد بن سليمان مصر وقد ردَّ البريد بها إلى أبي عبيد الله أحمد بن صالح، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف، فأُحْضِر أحمد بن يوسف — وكان كاتبًا لأحمد بن وصيف ثم لابن الجصاص التاجرين — فقال

له: تعرف أبا الفياض؟ قال: لا. فقال لهم: ليس هذا الرجل الذي طلبت. فأُحْضِرتُ، فلما رآني استشرف إليَّ وقال: تعرف أبا الفياض؟ فقلت: ذكرك الله وإياه بكل صالحة نعم أعرفه، وكان خلًّا لي. فقال: هل أنشدك من شعره؟

ظللنا بها نستنزل الدن صفوه فينزل أقباسًا بغير لهيب

قلت: لا يا سيدي، ولكني أنشدته إياه من شعري، فضحك وقال: «والله، لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك.» ثم يقول ابن الداية: «وكان والله أفضل عون لي على أموري.»[٣٥]

كذلك كان شعر ابن الداية سببًا في قيام بعض القيسية على خدمته وخفره دون مقابل.[٣٦]

نستطيع — كما قدمت — أن نقول إن كتاب المكافأة هذا كتاب أدبي؛ لما فيه من طرائف ومكاتبات وأشعار، ونستطيع أن نتخذه كتاب قصص؛ لما فيه من حوادث واقعية، وأن نتخذه كتابًا في الأخلاق؛ لما فيه من موعظة حسنة، ومكافأة قُدِّمَت نظير عمل الخير، ونرى مؤلفه يقسمه إلى أبواب وفصول؛ فجعل قسمًا للمكافأة على الحسن، أو مكافأة على معروف صنعه، وختم هذا القسم بنُبَذ عن أفلاطون، أما القسم الثاني فهو الجزاء على ما يبدر من الإساءة، ثم أردف ذلك بفصل عمن ابْتُلي فصبر، فكان ثمرة صبره حسن العقبى، وختم هذا الفصل بطائفة من كلمات مأثورة لبعض الحكماء من الفرس واليونان، مما يدل على أن ابن الداية كان يلم ببعض الآداب الفارسية واليونانية، ويحفظ كثيرًا من كلمات الفرس واليونان ويستعمل ألفاظًا غير عربية في كتاباته كقوله: «إن ديوانيان خالد» بمعنى كتاب الديوان، ولفظ «تليس» بمعنى الحقيبة، وهو في هذا يشارك غيره من الكتاب والأدباء، فقد نقلت الكتب اليونانية والفارسية إلى العربية، واستطاع المسلمون أن يعرفوا شيئًا من الآداب والعلوم الأجنبية، ويمزجوا بين هذه الآداب والعلوم الدخيلة والآداب والعلوم العربية، فكان كتَّاب المسلمين يزينون كتاباتهم باقتباس حكم الفرس واليونان، وهذا ما نراه واضحًا في الكتب العربية أمثال كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن الداية وغيرهم.

نرى ابن الداية يبدأ كتابه بالدعاء فيقول: «سدد الله فكرك، وأحسن أمرك، وكفاك مهمك.» وإذا رجعنا قليلًا إلى كتب الجاحظ في «البيان والتبيين» و«الحيوان» وغيرهما وجدناه يتبع هذه الطريقة في ابتداء الكتب، وهي أيضًا الطريقة الشائعة عند كتَّاب

العراق في ذلك العصر، ولعلها نقلت إلى مصر فعرفها المصريون كغيرها من الفنون التي أخذها المصريون عن العراقيين، ولكن كان ابن الداية يختلف عن معاصريه من الكتاب، فإنه لم يتعمد السجع، ومع ذلك فقد كان يتفنن في الكتابة، حتى جاءت بعض جمله مثالًا للأسلوب العربي كقوله: «إني سر من أسرار والدي كتمه عن سائر الناس، أفضى به إليك، ورآك أهلًا لستره عليه، فلا تخفر ظنه فيك.»[٣٧] وبجانب هذه الجمل المتينة التركيب نجد جملًا ضعيفة غامضة لا تستقيم كتابتها مع قواعد النحو، مثل قوله: «وكانت أشفق النساء وأضبطهم وأحسنهم تدبيرًا فيما تتولاه.»[٣٨] بدلًا من «وأضبطهن وأحسنهن»، وقوله: «جزاء ما قدمتيه ما تسمعيه مني.»[٣٩] بدلًا من «جزاء ما قدمتِه ما تسمعينه مني.» على أننا لا نقطع بأن هذا الخطأ وقع من الكاتب نفسه، وقد يكون من خطأ النسَّاخ.

ومع هذا فالكتاب هو البقية الباقية من الكتب الأدبية التي أُلِّفت في هذا العصر؛ إذ لم نعثر على كتاب كامل غير هذا الكتاب.

نستطيع أن نقول إن الحياة العلمية بمصر نُقِلَت إليها من العراق، وعاشت مصر على ما أنتجه العراقيون أو ما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين، كما كان للكتب التي تُنقَل من العراق إلى مصر قيمة خاصة، يحدثنا ابن الداية أنه عقب وفاة والده يوسف بن إبراهيم أرسل أحمد بن طولون من يهاجم داره، ويحضر كل صناديقه عساه يجد شيئًا من كتب العراق.[٤٠]

ومع أن مصر كانت موطن العلم والعلماء قبل الإسلام، وفيها اجتمعت ثقافات البلاد المختلفة، فإنا نجد مصر في هذا العصر الذي نؤرخه لا تُعنَى بشيء سوى هذه العلوم الدينية الإسلامية، ثم هذه العلوم العربية الخالصة، من نحو وصرف ورواية الأشعار، ولم تساهم مصر في العلوم الدخيلة بالقدر الذي ساهم به العراقيون مثلًا، ولم تنشط في مصر حركة الترجمة كما نشطت في الأقطار الأخرى، وربما كان للمصريين نصيب في حركة الترجمة وعلى الأخص كتب الطب والكيمياء، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك فيما قبل، كما تُرجِم في مصر التوراة إلى اللغة العربية، فقد روى المرحوم جورجي زيدان أن نزاعًا نشب في مصر بين طائفتين من طوائف الدين الإسرائيلي؛ هما طائفة الربانية وطائفة القرائين، فأفادت هذه المجالات اللغة العربية؛ إذ نرى رجلًا من كبار رجال الدين والعلم اليهودي هو سعيد الفيومي الإسرائيلي ينقل من العبرية إلى العربية كتب موسى الخمس

وسِفْرَي أشعيا وأيوب.[٤١] أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها، وعلوم الفرس والهند فلم ينشط لها المصريون في هذا العصر بالقدر الذي وُجِد في العراق، ولكنها وصلت إليهم بعد أن نُقِلَت إلى العربية في الأقطار الشرقية، فتقبلها المصريون بعد ذلك وساعدتهم في العصور التي تلي عصرنا هذا، على أن ينبغ بينهم عدد كبير من الكتاب والمفكرين.

هوامش

(١) بغية الوعاة: ص٤٠٥.
(٢) شرحه: ص١١٢.
(٣) شرحه: ص١٦٩.
(٤) معجم الأدباء: ج١، ص٣٨٢.
(٥) بغية الوعاة للسيوطي: ص١٠٨.
(٦) شرحه: ص١٣٠.
(٧) ج١، ص٢٩.
(٨) بغية الوعاة: ص٣٨٧.
(٩) بغية الوعاة: ص٢١.
(١٠) شرحه: ص٦٠.
(١١) حسن المحاضرة: ج١، ص٣٦.
(١٢) ابن خلكان: ج١، ص٢٦٣.
(١٣) بغية الوعاة: ص١٠٩.
(١٤) الأنساب للسمعاني: ص٢١.
(١٥) بغية الوعاة: ص٤٣.
(١٦) معجم الأدباء: ج٦، ص٤٣٢.
(١٧) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (نسخة خطية رقم ١٠٥ بدار الكتب المصرية).
(١٨) بغية الوعاة: ص١٤.
(١٩) الولاة والقضاة للكندي: ص٣٠٧.
(٢٠) الكندي: ص٤٤٩.
(٢١) الديباج: ص١٦٦.

(٢٢) النجوم الزاهرة: ج٣، ص٤٤.
(٢٣) الخطط: ج١، ص٦.
(٢٤) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة: ج٢، ص١٢٨– ص١٣٩.
(٢٥) حسن المحاضرة: ج١، ص٣١٩، ومروج الذهب: ج١، ص٤.
(٢٦) حسن المحاضرة: ج١، ص٣١٩، وغيرها وتاريخ الطبري في مواضع متعددة.
(٢٧) المكافأة: ص١١٥.
(٢٨) عيون الأنباء: ج١، ص١٢١.
(٢٩) المكافأة: ص١٠٧.
(٣٠) المكافأة: ص١١٥.
(٣١) شرحه: ص٢٥.
(٣٢) شرحه: ص٤٨.
(٣٣) معجم الأدباء: ج٢، ص١٥٧.
(٣٤) المغرب: ص٤.
(٣٥) المكافأة: ص٤٤-٤٥.
(٣٦) المكافأة: ص٢٠.
(٣٧) المكافأة: ص٥١.
(٣٨) شرحه: ص٥٢.
(٣٩) المكافأة: ص٥٢.
(٤٠) المكافأة لابن الداية: ص٤٨.
(٤١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج٢، ص٧٥.

الباب الثالث

كتاب الرسائل والإنشاء

الفصل الأول

قبل الطولونيين

ظلت مصر — من الفتح الإسلامي إلى أن وَلِيَها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ — تحت إمرة والٍ يعينه الخليفة، ويساعد هذا الوالي في تنظيم شئون البلاد عدد غير قليل من الموظفين، وطبيعي أن تكون هناك مكاتبات بين الوالي في مصر والخليفة في عاصمة الخلافة، ولا بد أن تكون هناك مراسلات بين الوالي والموظفين الآخرين في مصر، وهذه المكاتبات لم يصلنا شيء منها، وإن كنا نقول إنها كانت أشبه شيء بأوامر ولوائح يصدرها الخليفة أو الوالي، وكان يكتب هذه الرسائل في مصر كتَّاب الولاة. يقول المقريزي: «لما كانت مصر إمارة، كان بها ديوان البريد، ويقال لمتوليه صاحب البريد، وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب، وهو الذي يطالع بأخبار مصر، كما كان لبعض أمراء كتَّاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل.»[١] ولم ينشأ في مصر بعدُ ديوان الإنشاء «ولم يكن ديوان الإنشاء بالديار المصرية في مدة الخلفاء؛ إذ كانت الخلافة يومئذٍ في غاية العز، ورفعة السلطان، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات؛ فلذلك لم يقع مما كُتِب منها ما تتوفر الدواعي على نقله، ولا تنصرف الهمم لتدوينه، مع تطاول الأيام وتوالي الليالي.»[٢]

إذن نحن مضطرون إلى أن نمر بهذا العصر الطويل الذي يقدر بنحو قرنين دون أن نطيل الحديث عن هذه الرسائل التي كُتِبَت إبَّانه، فإن هذه الرسائل فُقِدَت، ولم يبق منها إلا شيء يسير جدًّا، كهذه المكاتبات التي كانت بين عمرو بن العاص وبين الخليفة عمر بن الخطاب، ولكنا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه الرسالة التي يزعم بعض

المؤرخين أن عمرو بن العاص كتبها إلى عمر بن الخطاب، فقد قيل إن الخليفة أرسل إلى الوالي يسأله أن يصف مصر بعد أن أتمَّ فتحها، فأجاب: «ورد كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — يسألني عن مصر. اعلم يا أمير المؤمنين، أن مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوان يدر حلابه، ويكثر فيه ذبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا ما اصْلَخَمَّ عجاجه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل، فإذا تكامل في زيادته، ونكص على عقبيه، كأول ما بدأ في جريته، وطما في درته، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها الحب، ويرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم، فإذا أصدق الزرع وأشرق، سقاه الندى، وغذَّاه من تحته الثرى، فبينما مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخلاق لما يشاء! والذي يصلح هذه البلاد وينميها، ويقر قاطنيها فيها؛ ألا يُقبَل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدي خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبدأ والمال.»[٣]

ثم نجد المؤرخين يقولون: إنه لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قال: «لله درك يا ابن العاص! لقد وصفت لي خبرًا كأني أشاهده.»[٤]

هذا ما يقوله المؤرخون والأدباء، ولكنا نشك في نسبة هذا الخطاب إلى عمرو بن العاص؛ لأنا إذا قارنَّا بين هذه الرسالة وبين ما رواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو، يتبين لنا أنها لم تصدر عنه، ثم هناك ناحية فنية خالصة، ذلك أن كتَّاب هذا العصر اعتادوا أن يبدءوا رسائلهم بحمد الله، أما في هذه الرسالة فشذَّ الكاتب عن هذه القاعدة، ولم يحمد الله، ثم نرى كاتب الرسالة يبدؤها بالدعاء لأمير المؤمنين، وهذا لم نره في رسائل هذا العصر أيضًا، بل جاء الدعاء للخليفة في الرسائل متأخرًا جدًّا، وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية، التي لم يعرفها العرب في صدر الإسلام أو أيام الأمويين، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة

الفكرية عند العرب، وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى، فاختلفت الكتابة العربية بدخول الثقافات الأجنبية في العربية.

حقيقة عُرِف عمرو بن العاص بالفصاحة والذكاء، حتى إن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلًا يتلجلج في كلامه يقول: «خالِقُ هذا وخالِقُ عمرو بن العاص واحد!»[٥] ولكن هذا كله لا يجعلنا نقول إن عمرًا هو الذي كتب هذه الرسالة، ولعل أسطع دليل نستطيع أن نقدمه لتدعيم حجتنا، هو أن نورد صورة خطاب، يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد:[٦] إن عمرًا أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وهذا نصه:

> من عمرو بن العاص إلى عبد الله، أمير المؤمنين، سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا، وإنه يعرفني قبل ذلك لا مال، وإني أُعْلِم أمير المؤمنين أني بأرضٍ السعر فيه رخيص، وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله، وفي رزق أمير المؤمنين سعة، والله لو رأيت خيانتك حلالًا ما خنتك، فأقصر أيها الرجل، فإن لنا أحسابًا هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها، ولعمري، إن عندك من لا يَذُم معيشته، ولا تُذم له، فأنَّى كان ذلك ولم يُفتَح قفلك ولم نشركك في عملك؟

من هذا الخطاب نستطيع أن نلمس الفرق بين كتابته وكتابة الخطاب الأول، مما يجعلنا نرجح أن الخطاب الوصفي لم يكتبه عمرو بن العاص.

ويزعم بعض المؤرخين أن ديوان الإنشاء والرسائل وُجِد في مصر منذ أن أُنْشِئ بها الديوان؛ أي منذ الفتح العربي، وأن هذا الديوان كان يكتب بالقبطية ثم نقل إلى العربية، ومن يدعي ذلك لم يدرك تمامًا ماهية هذا الديوان الذي أنشئ في مصر منذ الفتح، كما أنشئ في غير مصر من الأقطار الإسلامية. هناك فرق بين كتابة الدواوين وكتابة الرسائل؛ فالدواوين ما هي إلا ضرب من ضروب الحساب، وثَبَت يُكتب فيه أسماء القبائل والعشائر والبطون، وما يخص كل فرد من الفيء؛ لهذا لا نستطيع أن نتخذ هذه السجلات كتابة فنية يتعمدها الكاتب ويزينها، ويظهر فيها صنعته الفنية، فإن كتابة الديوان لا تحتاج إلى شيء من ذلك، وقُلْ عن كتَّاب الخراج وكتَّاب المقياس ما قلناه عن كتَّاب ديوان الجند.

هوامش

(١) خطط المقريزي: ج٣، ص٣٦٨.
(٢) صبح الأعشى للقلقشندي: ج١١، ص٢٨.
(٣) النجوم الزاهرة: ج١، ص٣٢.
(٤) شرحه.
(٥) النجوم الزاهرة: ج١، ص٦٤.
(٦) ج١، ص٢٦.

الفصل الثاني

ديوان الإنشاء في العصر الطولوني والإخشيدي

كان للطولونيين مطامع سياسية واسعة، عملوا على تحقيقها، حتى أدركوا شطرًا منها؛ فاتسعت بذلك دائرة أعمالهم، واضْطُروا إلى أن يصطنعوا عددًا كبيرًا من الكتَّاب يساعدونهم في القيام بهذا العبء الثقيل؛ لهذا اضْطُر الطولونيون إلى أن يؤسِّسوا ديوان الإنشاء بمصر «فأحمد — يعني أحمد بن طولون — أول من أخذ في ترتيب الملك، وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية، ولما شمخ سلطانه، وارتفع بها شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء؛ لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات.»[١]

وأول من تولى ديوان الإنشاء بمصر هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان، لم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء، وكل الذين ذكروه اكتفوا بمدحه وذكر كفايته، فابن النديم يقول: «كان بليغًا مترسلًا فصيحًا.»[٢] ويقول القلقشندي: «كان ممن اشْتُهر من كتَّابهم — أي كتَّاب الطولونيين — بالبلاغة وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود بن عبد كان كاتب أحمد بن طولون، وكان مبدأ الكتَّاب المشهورين بها.»[٣] وفي مكان آخر يقول: «واستكتب ابن عبد كان، فأقام منار ديوان الإنشاء، ورفع مقداره.»[٤]

إذن تكاد تجمع النصوص التي وصلتنا عن ابن عبد كان أنه كان ماهرًا في صناعته، بليغًا في كتابته، حتى إن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبد كان، يعني كاتب الإنشاء لابن طولون، ويقولون: «بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما.»[٥]

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة، فإنه يدل على أن رئيس ديوان الإنشاء بمصر في العصر الطولوني كانت له شهرته في فن الإنشاء، ولا ندري من أين استقى ابن عبد كان علومه التي ساعدته على أن يكون زعيم الكتاب في مصر، ولا ندري تمامًا أين نشأ، ولكنا نستطيع أن ندرك أن رجلًا يشغل هذا المنصب الرفيع الذي شغله ابن عبد كان لا بد أن يكون مُلمًّا بثقافة واسعة، تؤهله لهذا المنصب، لا سيما وأن الأمير أحمد بن طولون كان على جانب عظيم من العلم، ولعل ابن عبد كان كان أحد الذين يَصْدُق فيهم قول ابن خلدون: «إن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم؛ لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عِشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.»[٦]

ولا أشك أن عددًا كبيرًا من الكتَّاب اطلعوا على رسالة عبد الحميد الكاتب التي وضعها نصيحةً للكتَّاب تعينهم في مهمتهم، فهو يقول عن العلوم التي يجب أن يحيط بها الكاتب: «فتنافسوا يا معشر الكتَّاب، وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط؛ فإنه حلية كتابكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك مُعِين لكم على ما تسموا إليه هممكم.»[٧]

لكن هذه العلوم التي تحدَّث عنها عبد الحميد هي العلوم العربية التي كانت في عصره؛ إذ لم توجد بعدُ العلوم الإسلامية التي سُمِّيت، فالعلوم الدخيلة التي كانت سببًا في تطور الحياة الأدبية العربية. ففي العصور التي تلت عصر عبد الحميد نجد الكتَّاب يأخذون بحظوظ مختلفة من العلوم الأجنبية التي نقلها المترجمون إلى العربية، وأقبل المسلمون على تفهمها والأخذ منها، فقلَّ أن تجد كاتبًا لم يُلِمَّ بالثقافة الفارسية أو الثقافة اليونانية وظهر أثر هذه الثقافات في الكتابة، ويقول الأستاذ الدكتور طه حسين بك: فالكتابة في العراق وفي الحجاز نشأت عربية خالصة دعت إليها الحاجة، وكان تطورها نتيجة طبيعية لتطور العرب، ولتأثر العرب بالفرس واليونان، ولوجود هؤلاء الموالي الذين أخذوا بحظٍّ من علوم بلادهم ولكنهم تعلموا العربية وكتبوا بها فاضْطُروا إلى أن يُدخِلوا على العربية كثيرًا مما ورثوه عن قوميتهم، ومن تأمل كتَّاب الدولة العباسية وجدهم جلهم من الموالي.[٨]

أما مصر فكان لها شأن آخر، فقد كانت يونانية العلم قبل الإسلام، وانتشر بها الأدب اليوناني، والفلسفة اليونانية، ولا أشك أن هذه الدراسات تركت أثرًا قويًّا في العقلية المصرية ظل عدة قرون، فاستقر بمصر ولا يمكن أن يمَّحِي إلا مع الزمن الطويل، قد لا نجد بين المصريين من نقل من كتب اليونان الفلسفية ما نقله غيرهم، ولم تلق كتب الفلسفة في مصر الإسلامية الإقبال الذي كان في غير مصر، ولكن المصريين منذ عهد البطالسة كانوا يذكرون الأدب اليوناني بما فيه من شعر ونثر وقصص، والفلسفة اليونانية بما فيها من طبيعيات وإلهيات، وعن اليونان أخذ المصريون نظم الكتابة، وعن المصريين أخذ العرب الذين استقروا بمصر، فإذا كان بعض كتاب العراق تأثَّر بالفارسية وبعضهم تأثر باليونانية، فكتاب مصر لم يتزودوا من الثقافة الفارسية إلا مَن كان منهم من العراق أو فارسي النشأة ووفد على مصر بعد تمام تكوينه.

وكانت مصر الإسلامية تسير نحو الأخذ بحظ وافر من العلوم فازداد عدد المشتغلين بها يومًا بعد يوم، فكان ذلك من الأسباب التي وجهت الكتابة العربية في مصر إلى ناحية خاصة، هي الناحية الفنية التي يتكلفها الكاتب، ويتعمد تجميلها وزخرفتها، وهذا ما نراه عند الكتاب الذين نراهم في العصر الطولوني وما بعده، كما كان ذلك سببًا في أن كتَّاب مصر في هذا العصر كانوا يُشْبِهون في كثير من الأحوال كتَّاب العراق الذين تأثَّروا بالثقافة اليونانية، فرسائل ابن عبد كان مثلًا كانت تشبه رسائل العراقيين؛ لهذا تستطيع أن تلمس التغيير الواضح في هذه الرسائل التي كتبها ابن عبد كان عن هذه الرسائل القديمة التي كُتِبَت في صدر الإسلام؛ فإنك تجد في كتابة ابن عبد كان شيئًا من الفن الذي يُحْدِث لذة عند القراء وعند السامعين لن تجدها في كتابة المتقدمين التي لم تُكتَب إلا لتؤدي معنًى خاصًّا دون مراعاة تنسيق اللفظ.

قسم ابن عبد كان رسائله إلى أجزاء أو فصول، مَثَله في ذلك مَثَل تلاميذ مدرسة الجاحظ من كتَّاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، كذلك يتفق الجاحظ وابن عبد كان في أن كتابتهما تميل دائمًا إلى الإطناب والتطويل، ولكنه ليس إطنابًا مملًّا ثقيلًا، بل هو فن وقدرة على الكتابة، كما كان ابن عبد كان يُدْخِل الدعاء حشوًا معترضًا في كلامه، ويتوجه إلى المخاطب بصيغة المفرد دائمًا، أما جمله فقصيرة يزيِّنها بالسجع غالبًا، فهو يطنب في اللفظ ويكرر المعنى ويقتبس من القرآن الكريم ويكثر من التشبيهات والمحسنات اللفظية، ففي الخطاب الذي كتبه ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى العباس بن أحمد بن طولون — حين ثار على أبيه — تتجلَّى صورة الكتابة

العربية السليمة، التي تأثرت بما كان في مصر من آثار الثقافة اليونانية، وآثار الثقافة الأجنبية التي نقلت إلى العربية، وهذا نص الخطاب:

من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه، العاصي لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه، العادي لطوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبه، المركوس[٩] في فتنته، المنجوس من حظ دنياه وآخرته. سلامٌ على كل منيب مستجيب، تائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم، وحلول الفوت والندم، وأحمد الله الذي لا إله إلا هو حَمْدَ مُعْتَرِف له بالبلاء بالجميل، والطول الجليل، وأسأله مسألة مخلص في رجائه، مجتهد في دعائه، أن يصلي على محمد المصطفى، وأمينه المرتضى، ورسوله المجتبى ﷺ.

أما بعد، فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها، والنحلة يكون حتفها في جناحيها، وستعلم — هبِلَتْك[١٠] الهوابل، أيها الأحمق الجاهل، الذي ثنى على الغيِّ عطفه، واغتر بضجاج المواكب خلفه، أيَّ موردة هلكة بإذن الله تورَّدت؛ إذ على الله — عز وجل — تمرَّدت وشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك في كتابه مثلًا: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وإنَّا كنا نقرِّبك إلينا، وننسبك إلى بيوتنا؛ طمعًا في إنابتك، وتأميلًا لفيئتك، فلما طال في الغيِّ انهماكك، وفي غمرة الجهل ارتباكك، ولم نر الموعظة تُلِين كيدك، ولا التذكير يقيم أَوَدَك، لم تكن لهذه النسبة أهلًا، ولا لإضافتك إلينا موضعًا ومحلًّا، بل لا نُكنَّى بأبي العباس إلا تكرهًا وطمعًا بأن يهب الله عنك خلفًا نقلده اسمك ونُكنَّى به دونك، ونعدُّك كنت نسيًا منسيًّا، ولم تك شيئا مقضيًّا، فانظر — ولا نظر بك — إلى عار نِسبته تقلَّدْتَ، وسخط من قِبَلنا تعرَّضت، واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل في الليل، تؤذن بحرب وبويل، فإننا نقسم — ونرجو أن لا نجور ونظلم — أن لا نثني عنك عنانًا، ولا نؤثر على شأنك شأنًا، ولا تتوقل ذروة جبل، ولا تلج بطن وادٍ؛ إلا جعلناك بحول الله وقوته فيهما، وطلبناك حيث أَمَّمت منهما، منفقين فيك كل مالٍ خطير، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت، وتستدفع من البلايا ما استدعيت حين لا دافع بحول الله عنك،

ولا مزحزح لنا عن ساحتك، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت، وتودُّ أنك هبلت ولم تكن بالمعصية عجلت، ولا رأي من أضلك من غواتك قبلت؛ فحينئذ يتفَرَّى بك الليل عن صبحه، ويسفر لك الحق عن محضه؛ فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما، وتعلم أنك كنت متمسكًا بحبائل غرور، متماديًا في مقابح أمور؛ من عقوق لا ينام طالبه، وبغي لا ينجو هاربه، وعذر لا ينتعش صريعه، وكفران لا يودَى قتيله، وتقف على سوء رويتك، وعظم جريرتك في تركك قبول الأمان؛ إذ هو لك مبذول وأنت عليه محمول، وإذ السيف عنك مغمود، وباب التوبة إليك مفتوح، وتتلهف والتلهف غير نافعك، إلا أن تكون أجبت إليه مسرعًا، وانقدت إليه منتصحًا.

وإن مما زاد في ذنوبك عندي، ما ورد به كتابك عليَّ بعد نفوذي على الفسطاط من التمويهات والأعاليل، والعدات بالأباطيل، من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد عليَّ، حتى ملت إلى الإسكندرية، فأقمت بها طول هذه المدة، واستظهارًا عليك بالحجة، وقطعًا لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة، ولا أنه خالجني شك، ولا عارضني ريب في أنك أردت النزوح والاحتيال للهرب، والنزوع إلى بعض المواضع التي لعل قصدك إياها يوديك، ولعل مصيرك إليها يكفينيك، ويبلغ إليَّ أكثر من الإرادة فيك؛ لأنك، إن شاء الله، لا تقصد موضعًا إلا تلوتك، ولا تأتي بلدًا إلا قفوتك، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل في جد حبلها، وفصم عروتها، فإن أحدًا لا يؤوي مثلك، ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا؛ فأما الدين فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق، ومخالفة ربك وإسخاطه، وأما الدنيا فما أراه بقي معك من الحطام الذي سرقته وحملت نفسك على الإيثار به، ما يتهيأ لك مكاثرتنا بمثله، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التي نستودعه تبارك وتعالى إياها، ونرغب إليه في إنمائها، إلى ما أنت مقيم عليه من البغي الذي هو صارعك، والعقوق الذي هو طالبك.

وأما ما منَّيتناه من مصيرك إلينا في حشودك وجموعك، ومن دخل في طاعتك؛ لإصلاح عملنا، ومكافحة أعدائنا بأمر أظهروا فيه الشماتة بنا، فما كان إلا بسببك، فأصلح — أيها الصبي الأخرق — أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا، واحزم في أمرك قبل استعمالك الحزم لنا، فما أحوجنا الله — وله الحمد —

إلى نصرتك ومؤازرتك، ولا اضطررنا إلى التكثر بك على شقاقك ومعصيتك: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

وليت شعري على من تهول بالجنود، وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك؟ دون رزق ترزقهم إياه، ولا عطاء تدرُّه عليهم، فقد علمت — إن كان لك تمييز، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك في الوقعة التي كانت بناحية أطرابلس، وكيف خذلك أولياؤك والمرتزقة معك حتى هُزِمت، فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك، ولا رزق لهم على يديك؟! فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك والخوف من سلطانك، فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منَّا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك، وإنهم لأحرى بخذلك، والميل إلينا دونك، ولو كانوا جميعًا معك ومقيمين على نصرتك، لرجونا أن يمكِّنَنا الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم، ويجرينا من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل علينا بأمثاله، ويتطول بأشباهه. فما دعاني إلى الإرجاء لك، والتسهيل من خناقك، والإطالة من عنانك؛ طول هذه المدة إلا أمران: أغلبهما كان عليَّ احتقار أمرك واستصغاره، وقلة الاحتفال والاكتراث به، وإني اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الإباق إلى أقاصي بلاد المغرب شريدًا عن منزلك وبلدك، فريدًا من أهلك وولدك، والآخر: أني علمت أن الوحشة دعتك إلى الانحياز إلى حيث انحزت إليه، فأردت التسكين من نفارك، والطمأنينة من جأشك، وعملت على أنك تحن إلينا حنين الولد، وتتوق إلى قربنا توقان ذي الرحم والنسب؛ فإن في رفقنا بك ما يعطفك إلينا، وفي تآخينا إياك ما يردك علينا، ولم يسمع منا سامع في خلاء ولا ملاء إنقاصًا بك، ولا غضًّا منك، ولا قدحًا فيك؛ رقة عليك، واستتمامًا لليد عندك، وتأميلًا لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك، والموفق بذلك لرشدك وحظك، فأما الآن مع اضطرارك إياي إلى ما اضطررتني إليه من الانزعاج نحوك، وحبسك رسلي النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك، واستعمالك المواربة والخداع فيما يجري عليه تدبيرك، فما أنت بموضع للصيانة، ولا أهل للإبقاء والمحافظة، بل اللعنة عليك حالة، والذمة منك برية، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة، والإضاعة لرحم الأبوة، فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة

اللاعنين، والملائكة والناس أجمعين، ولا قبل الله لك صرفًا ولا عدلًا، ولا ترك لك منقلبًا ترجع إليه، وخذلك خذلان من لا يُؤبَه له، وأثكلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حفظك. فوالله لأستعملن لعنك في دبر كل صلاة، والدعاء عليك في آناء الليل والنهار، والغدو والآصال، ولأكتبن إلى مصر، وأجناد الشامات والثغور، وقنسرين، والعواصم، والجزيرة، والحجاز، ومكة، والمدينة كتبًا تُقرَأ على منابرها فيك باللعن لك، والبراءة منك، والدلالة على عقوقك وقطيعتك، يتناقلها آخر عن أول، ويأثرها غابر عن ماضٍ، ويخلد في بطون الصحائف، ويحملها الركبان، ويُتحدَّث بها في الآفاق، وتلحق بك وبأعقابك عارًا ما اطرد الليل والنهار، واختلف الظلام والأنوار.

فحينئذٍ تعلم — أيها المخالف أمر أبيه، القاطع رحمه، العاصي ربه — أيَّ جناية على نفسك جنيت، وأي كبيرة اقترفت واجتنيت، وتمنيتَ — لو كان فيك مسكة، أو فيك فضل إنسانية — أنك لم تكن وُلِدت، ولا في الخلق عرفت، إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا؛ خاضعًا ذليلًا كما يلزمك، فنُقِيم الاستغفار مقام اللعنة، والرقة مقام الغلظة، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها، وذكر الله فاتقاه، إن شاء الله تعالى.[١١]

ونجد في رسائل المصريين شيئًا جديدًا لم نعهده عند القدماء، وكان له نظير عند كتاب العراق منذ القرن الثالث الهجري، ذلك أن المصريين كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء غالبًا، فدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة، أو الدعاء بكبت العدو، أو بطيب الحياة إلى غير ذلك من الأمور التي تتنوع بتنوع حال المرسل إليه، كقول أحد الكتاب المصريين داعيًا: «أطال الله بقاءك؛ ففي إطالته حياة الأنام، وأنس الأيام والليالي، وأدام عزك؛ ففي إدامته دوام الشرف، ونمو المعالي، وأتم نعمته عليك؛ فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق، ونزلت منزلة الاستيجاب، ووقفت على من لا تكون الآلاء مكانه ولا تنكر الفواضل محله ... إلخ.»[١٢]

وقد نجد بعض الكتاب يكتب مطرحًا الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بموجباتها، كقول أحد الكتَّاب: «قد كفى الله — عز وجل — مؤنة الدعاء لنعمته بالنماء؛ لأنها توخت لديك محلها، فحلت بفنائك سارة، مطمئنة قارة، تستوثر مهادها قبلك، وتستهنئ مواردها عندك، ولم تزل تائقة إليك، متطلعة نحوك، بما استجمع لها من لطيف السياسة، وحسن الاحتمال لأعباء المغارم، فهنَّأكها الله متصلة البقاء، بطول مدة بقائك، ومتحلية بحسن

فنائك، فلا زلت لعوارف النعم مستدعيًا، وللشكر بالزيادة فيها ممتريًا، وبدوام الحمد لردفها مستمريًا.»[١٣]

وقد لا نجد هذا ولا ذاك؛ إذ يهجم بعض الكتاب على موضوعه دفعة واحدة، ويكتب رسائله مفتتحًا بقوله: «كتابي إليك» أو «كتبت إليك».

أما في إجابة هذه الخطابات فنراهم يبتدئون بقولهم: «وصل كتابك»، ويختتمون بقولهم: «إن رأيت أن تفعل كذا وكذا» أو «فرأيك في كذا وكذا». وقد أفرد القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» بابًا عن هذه المكاتبات التي كانت بين الأصدقاء أيام الطولونيين أو ما قاربها وقد أتى بصور كثير من الفنون المختلفة التي ذكرنا بعضها.[١٤]

ومن المكاتبات التي هي من خصائص مصر، المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل، والبشارة في الركوب بفتح الخليج، ولا يشارك مصر في ذلك غيرها من الممالك ولا يزال القائمون بالأمر في مصر من قديم الزمان يكتبون بذلك إلى ولاة الأعمال،[١٥] ولكن لم يصلنا شيء من المكاتبات التي صدرت في العصر الذي نؤرخه عن ذلك.

ظهر عدد كبير من الكتاب أيام الطولونيين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحاق كاتب موسى بن طولون، وكان هذا الكاتب فيما يقال يعرف زيج السندهند، وعنده علم بالنجوم،[١٦] وجعفر بن عبد الغفار المصري، وأحمد بن أيمن وكان كاتبًا للعباس بن خالد البرمكي في حداثته،[١٧] وكثير غيرهم، وقد ذكر ابن الداية بعضهم في كتابه المكافأة. لم يكن هؤلاء الكتَّاب جميعهم من مصر بل كان أغلبهم من العراق، فأبو يوسف يعقوب بن إسحاق كان من سُرَّ من رأى، وابن الداية أصله من بغداد، والحسين بن مهاجر كان من الرقة،[١٨] ولكن كان ابن طولون يفضل أن يتخذ كتَّابه من المصريين مع قصورهم عن العراقيين، فقد قيل إن ابن طولون استكتب جعفر بن عبد الغفار المصري، ولكن هذا الكاتب لم يستطع أن يؤدي عمله كما يجب، ومع ذلك احتمله ابن طولون، وقد سأله صديقه أحمد بن خاقان عن السر في ذلك، فقال له الأمير: «أنا أحتمله؛ لأنه مصري.» فقال ابن خاقان: «أراك، أيها الأمير، تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي.» قال: «لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدًا أن يكون كاتبه منه، وأن يكون شمل الكاتب فيه، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة، منها أن يكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد، فيعود مرفقه على فريق من أهله، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به، فيكون صفافًا لجناياته، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتي، والكاتب العراقي ليس كذلك، لأنه يعتقد المستغلات في بلده النائي

عنه وعني، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده؛ فبهذا السبب زهدت في كتَّاب سر من رأى، مع علمي بتقدمهم في الكتابة والرجاحة.[١٩]

وكان للكتَّاب في مصر في هذا العصر شأن كبير فيما جرى من حوادث، وقد رأينا الكتَّاب الذين كانوا حول العباس بن أحمد بن طولون من أمثال جعفر بن جدار، وأحمد بن المؤمل، ومحمد بن سهل المنتوف، كانوا سببًا في قيام العباس ضد أبيه، كما كانوا سببًا في هزيمته؛ لأنهم لم يكونوا من رجال السيف ولا من رجال السياسة.[٢٠]

أما الذي تولى ديوان الإنشاء في عهد خمارويه، فهو علي بن أحمد المادرائي،[٢١] ولكن هذا الكاتب لم يوفق إلى إرضاء خمارويه، فتولاها إسحاق بن نصير العبادي،[٢٢] ويحدثنا ياقوت أن «إسحاق بن نصير الكاتب البغدادي كان كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبد كان»،[٢٣] ثم يروي عن ابن زولاق: «وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون، ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحاق بن نصير البغدادي من العراق، والتمس التصرف، فقال له ابن عبد كان: فيمَ تتصرف؟ فقال: في المكاتبات والأجوبة والترسل، وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت، فقال له: خذ هذه وأجب عليها. فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار، فأجاب عنها، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام، وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له فاجتاز به، والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها، فلما تأملها جعل يروح إسحاق بن نصير حتى انتبه، فقال له: عمن أخذت الكتبة؟ وأجرى عليه أربعين دينارًا في كل شهر، فلم يزل مع أبي جعفر إلى أن تُوفِّي أبو جعفر وانفرد بالأمر علي بن أحمد المادرائي، فقال لإسحاق: الزم منزلك، وانصرف، فوردت كتب فأجاب عنها علي بن أحمد ودخل على أبي الجيش خمارويه فعرضها عليه، فقال له: ما هذه الألفاظ التي تخرج عني. فمضى علي بن أحمد وعاد إليه، فما أراد أبو الجيش الجواب والاستزادة، فخرج علي بن أحمد وقال: هاتوا إسحاق بن نصير، فجيء به، فقال: أجب عن هذه، فأجاب، ودخل علي بن أحمد على أبي الجيش فقرأ الأجوبة، فقال: نعم هذا الذي أعرف، إيش الخبر؟ فقال له: كاتب كان مع أبي جعفر فاعتل وأحضرتُه الساعة، فقال: هاته، فأحضره، فقال: كم رزقك؟ فقال: أربعون دينارًا، فقال لعلي بن أحمد: اجعلها له أربعمائة في الشهر، وقال لإسحاق: لا تفارق حضرتي. فمكث إسحاق حتى صار رزقه ألف دينار في الشهر، فكان يجود بذلك، ويُفضَّل به على الناس، وأرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس: إلى أبي العباس المبرد، وأبي العباس ثعلب، وإلى وراق كان يجلس

عنده؛ دفعة واحدة ثلاثة آلاف دينار، لكل واحد منهم ألف دينار، وتُوفِّي هذا الكاتب سنة ٢٩٧هـ.[٢٤]

وإذا نظرنا إلى كتَّاب الرسائل في العصر الفاطمي نراهم يسيرون نهج ابن عبد كان ويتتبعون أثره في الكتابة، فابن عبد كان هو مؤسس مدرسة الرسائل في مصر وهي المدرسة التي تنسب خطأ إلى القاضي الفاضل، وسنتحدث عن ذلك بشيء من الإسهاب في كتابنا … في أدب مصر الفاطمية.

وكان إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمي زعيم كتَّاب الإخشيدين، وكان هذا الكاتب نحويًّا كَلِفًا بالعلوم العربية الخالصة، أخذ النحو عن الزجاج،[٢٥] وأخذ عنه بعض المصريين أمثال أبي الحسين المهلبي وجنادة اللغوي وغيرهما،[٢٦] فكان لدراسته هذه أثر في كتاباته، ومن إنشائه الخطاب الذي أرسله الإخشيد إلى المانوس ملك الروم، وكان قد ورد على الإخشيد كتاب منه، يفخر فيه، ويزعم أن له المنة عليه فلما قُرئ هذا الخطاب على الإخشيد، طلب من كتابه أن يجيبوه، فأجاب عنه جماعة فلم يختر إلا جواب إبراهيم النجيرمي، وكان عالمًا بوجوه الكتابة.[٢٧]

ومما جاء في هذا الخطاب: «من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين، إلى المانوس[٢٨] عظيم الروم ومن يليه: سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحقون، فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد، فقد تُرجِم لنا كتابك، الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك، فوجدناه مفتتحًا بذكر فضيلة الرحمة، وما نما عنا إليك، وعمن شبهنا فيها إليك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء، والتوصل إلى تخليص الأسرى، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهَّمْناه؛ فأما ما أطنَبْتَ فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول الذي يليق بذوي الفضل والنبل، ونحن — بحمد الله ونعمه علينا — بذلك عارفون، وإليه راغبون، وعليه باعثون، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون، وبه متواصون وعاملون، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمنِّه وقدرته.

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة، فإنا نرغب إلى الله — جل وعلا — الذي تفرَّد بكمال هذه الفضيلة، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها؛ أن يوفِّقنا لها، ويجعلنا من أهلها، وييسرنا للاجتهاد فيها، والاعتصام من زيغ الهوى عنها، وعَرَّة القسوة بها، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفًا على طاعته، وموجبات مرضاته، حتى نكون أهلًا

لما وصفتنا به، وأحق حقًّا بما دعوتنا إليه، وممن يستحق الزُّلفى من الله تعالى، فإنا فقراء إلى رحمته، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا، وحمَّله من جسيم الأمر ما حمَّلنا، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا، بمولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك، وتوفيقه وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ وأما ما وصفْتَه من ارتفاع محلِّك عن مرتبةِ مَن هو دون الخليفة في المكاتبة لما يقتضيه عِظَم مُلْككم، وأنه المُلْك القديم الموهوب من الله الباقي على الدهر، وأنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقًّا وكانت منزلتنا، كما ذكرته، تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا غنم ورشد؛ لكان من الأمر البين أنَّ أحظى وأرشد وأولى بمن حلَّ محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته، ولا يراه وصمة، ولا نقيصة، ولا عيبًا، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار، ويخوض الغمار، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته.

والذي تجشمته من مكاتبتنا، إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير، وجُلُّ نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم؛ لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين، فمن كان منَّا في أيديكم فهو على بينة من ربه، وعزيمة صادقة من أمره، وبصيرة فيما هو بسبيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه، وحميد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه، ولم يُعِذْه من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم، ولولا أن إيضاح القول في الصواب، أولى بنا من المسامحة في الجواب، لأضربنا عن ذلك صفحًا؛ إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم، بل إلى من نزل عن مرتبتنا، هو أنه لم يثق من منعه، ورد ملتمسه ممن جاوره، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم، ولا عار على أحد وإن جلَّ قدره في ردِّهم، ومن وثق في نفسه ممن جاوره، وجد قصده أسهل السبيلين عليه، وأدناهما إلى إرادته، حسب ما تقدم لها من تقدم، وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا، ولم يقرب من منزلتنا، فممالكنا عدة، كان يتقلد في سالف الدهر كلَّ مملكة منها ملكٌ عظيم الشأن.

فمنها ملك مصر الذي أطغى فرعون على خطر أمره، حتى ادعى الألوهية، وافتخر على نبي الله موسى بذلك، ومنها ممالك اليمن التي كانت للتبابعة، والأقيال العباهلة: ملوك حمير، على عظم شأنهم، وكثرة عددهم، ومنها أجناد الشام: التي منها جند حمص، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم، ومن قبله من عظمائها، ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث، واختيار الملوك المتقدمين له، ومنها جند الأردن على جلالة قدره، وأنه دار المسيح ﷺ وغيره من الأنبياء والحواريين، ومنها جند فلسطين، وهي الأرض المقدسة، وبها المسجد الأقصى، وكرسي النصرانية، ومعتقد غيرها، ومَحَجُّ النصارى واليهود طرًّا، ومقر داود وسليمان ومسجدهما، وبها مسجد إبراهيم وقبره، وقبر إسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام، وبها مولد المسيح وأمه وقبرها. هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة، والدلالات الظاهرة؛ فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها، وعظم قدرها، وما حوت من الفضل تُوفِي على كل مملكة؛ لأنها مَحجُّ آدم ومَحَجُّ إبراهيم وارثه ومهاجره، ومَحَجُّ سائر الأنبياء، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره[٢٩] وقبره، ومنبت ولده، ومَحَجُّ العرب على مرِّ الحقب، ومحل أشرافها، وذوي أخطارها، على عظم شأنهم، وفخامة أمرهم، وهو البيت العتيق المحرم، المحجوج إليه من كل فجٍّ عميق، الذي يعرف بفضله وقدمه أهل الشرف من مضى ومن خلف، وهو البيت المعمور، وله الفضل المشهور.

ومنها مدينة الرسول ﷺ المقدسة بتربته، وأنها مهبط الوحي، وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر، والسهل والوعر، والشرق والغرب، وصحارى العرب على بعد أطرافها، وتنازح أقطارها، وكثرة سكانها في حاضرتها وباديتها، وعظمها في وفودها وشدتها، وصدق بأسها ونجدتها، وكبر أحلامها، وبعد مرامها، وانعقاد النصر من عند الله برياتها، وأن الله تعالى أباد خضراء كسرى، وشرَّد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها.

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسي من أعظم كراسيكم: بيت المقدس، وأنطاكية، والإسكندرية. مع ما إلينا من البحر وجزائره، واستظهارنا بأتمِّ العتاد، وإذا وفَّيت النظر حقه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التي ينتفع الأنام بها، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة، وتحققتَ أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة، والحمد لله ولي كل نعمة.

وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا، وإحسانه إلينا، ومعونته لنا، وتوفيقه إيانا، كما كتبت إلينا، وصحَّ عندك من حسن

السيرة، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة، ويوسعها الأمن والدعة في المعيشة، ويكسبها المودة والمحبة.

والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا على نعمه التي تفوت عندنا عدَّ العادين، وإحصاء المجتهدين، ونشر الناشرين، وقول القائلين، وشكر الشاكرين، ونسأله أن يجعلنا ممن تحدَّث بنعمته عليه شكرًا لها، ونشرًا لما منحه الله منها، ومن رضي اجتهاده في شكرها، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها، وكان سعيه مشكورًا، إنه حميد مجيد.

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره، ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة، والقدرة القاهرة، ثم الفوز الأكبر يوم الدين، لكنك سلكت مسلكًا لم يجز لنا أن نعدل عنه، وقلت قولًا لم يسعنا التقصير في جوابه، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به؛ إذ نحن نكْرُم عن ذلك، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين، وعطفك عليهم، وتجاوزك في الإحسان إليهم جميع من تقدمك مِن سَلَفِك، ومن كان محمودًا في أمره، رُغِب في محبته؛ لأن الخير أهلٌ أن يُحب حيث كان. فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته، وعظمت دولته، وحسنت سيرته؛ فهذه ممالك عظيمة، واسعة جمة، وهي أجلُّ الممالك التي ينتفع بها الأنام، وسر الأرض المخصوصة بالشرف، فإن الله قد جمع لنا الشرف كله، والولاء الذي جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، مخصوصين بذلك إلى ما لنا بقديمنا وحديثنا وموقعنا، والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بمنِّه وإحسانه، ومنه نرجو حسن السعي فيما يرضيه بلطفه، ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه.

وإن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت مَن كان تقدمك قد كاتب مِن قبلنا مَن لم يحل محلنا، ولا أغنى غناءنا، ولا ساس في الأمور سياستنا، ولا قلده مولانا أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — ما قلدنا، ولا فوَّض إليه ما فوض إلينا، وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وآخر من كوتب تكين مولى أمير المؤمنين، ولم يكن تقلَّد سوى مصر وأعمالها.

ونحن نحمد الله كثيرًا أولًا وآخرًا على نعمه التي يفوت عندنا عددها عد العادين، ونشر الناشرين، ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة، ولكنا قصدنا بما عددنا من ذلك حالات؛ أولها: التحدث بنعمة الله علينا، ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة في المكاتبة، ولِتعلم قدر ما بسطه الله لنا في هذه المسالك، وعندنا قوة تامة على المكافأة على

جميل فعلك بالأسارى، وشكر وافٍ لما توليهم وتتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة، والتوفيق للسداد في الأمور كلها، والتيسير لصلاح القول والعمل الذي يحبه ويرضاه ويثيب عليه، ويرفع في الدنيا والآخرة أهله، بمنِّه ورحمته.

وأما المُلْك الذي ذكرت أنه باقٍ على الدهر؛ لأنه موهوب لكم من الله خاصة، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وإن المُلك كله لله، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير، وإن الله عز وجل نسخ مُلْك الملوك وجَبْرية الجبَّارين بنبوة محمد ﷺ وعلى آله أجمعين، وشفع نبوته بالإمامة، وحازها إلى العترة الطاهرة من العنصر الذي منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، والشجرة التي منها غصنه، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن كابر، ويلقيها ماضٍ إلى غابر، حتى أُنْجِز أمر الله ووعده، وبهر نصره وكلمته، وأظهر حجته، وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين، وقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ... إلخ.

ولعلك تلاحظ في هذا الخطاب هذه الصنعة الفنية التي امتاز بها كتاب الرسائل، فكثيرًا ما كان الكاتب يستعمل التكرار والإسراف في الإطناب، والإسهاب في المعنى الواحد، كما نرى هذي الجمل القصيرة المسجوعة التي تدل على أن الكاتب أجهد نفسه في الكتابة، وفي الملاءمة بين المعاني والألفاظ.

وقد أُعْجِب النجيرمي نفسه بهذا الكتاب؛ فنسخ منه نسخًا وأنفذها إلى البصرة وأعمالها يفتخر به.[٣٠]

ظل النجيرمي النحوي يعمل في خدمة الإخشيديين حتى اتصل بكافور ومدحه، قيل إن الفضل بن العباس دخل يومًا على كافور الإخشيدي وأبو إسحاق النجيرمي عنده، فقال الفضل: أدام الله أيام سيدنا الأستاذ، ولحن في كلامه بأن كسر الأيام، فتبسم كافور، فأنشد أبو إسحاق على البديهة:

لا غرو أن لحن الداعي لسيدنا ... وغُصَّ من هيبه بالريق والبهر
فإن يكن خَفَضَ الأيام عن دهشٍ ... من شدة الخوف، لا من قلة البصر

فقد تفاءلت في هذا لسيدنا والفأل نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن دولته صفو بلا كدر[٣١]

وقد أورد له ياقوت في معجم الأدباء بعض الأشعار، كما نقل الحصري في زهر الآداب كثيرًا من كتاباته وأشعاره.

ونجد الكاتب محمد بن كلا يكتب للإخشيديين أيضًا،[٣٢] ويسفِر بين الإخشيد وبين ابن رائق، وقد كان هذا الكاتب ثقة الإخشيد ورسوله إلى العراق، ومع ذلك كان ممن نكبهم الإخشيد، «والإخشيد أول من أقام الراتب ونكب عماله وكتابه.»[٣٣] قبض الإخشيد على ابن كلا آخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، وصادره على ثلاثمائة ألف دينار، وقبض على أهله وصادرهم، وقبض على جماعة كانوا في داره وصادرهم أيضًا، ولكن ابن كلا أقسم أن لا يدفع مال المصادرة أو يلقى الإخشيد ويراه، فامتنع الإخشيد أولًا، وأغلظ ابن كلا في القسم حتى أمر الإخشيد بدخوله عليه، فمروا به عليلًا يتوكأ على رجلين — وكان به عرج — فنظر إلى الإخشيد، وقال: أما أنا فقد استحييت، فأطرق الإخشيد، وتم قبض المصادرة وأطلقه،[٣٤] ولم يصلنا عن هذا الكاتب شيء نستطيع أن نعرف قيمة كتابته.

ومهما يكن من شيء فأنت ترى من ذلك كله أن النثر سهل، واستطاع الكاتب أن يتصرف كيفما أحب، دون أن يجد مشقة وجهدًا، كما أنا لا نجد مشقة في فهم جمله، بل نجد استقامة في المعنى، وخصوبة في هذه المعاني؛ مما زاد في جمال الكتابة، كما أن الكتَّاب استطاعوا أن يعبروا عما في نفوسهم، وما تجيش به خواطرهم بسهولة في أسلوب فني جميل يظهر فيه أثر صنعة الكاتب الفنية، وقدرته على الكتابة في ألوان الفنون المختلفة.

هوامش

(١) صبح الأعشى: ج١١، ص٢٨.
(٢) الفهرست: ص١٩٧.
(٣) صبح الأعشى: ج١، ص٩٥.
(٤) صبح الأعشى: ج١٠، ص٢٨.
(٥) صبح الأعشى: ج٣، ص١٧.

(٦) مقدمة ابن خلدون: ص٢١٥.
(٧) مقدمة ابن خلدون: ص٢١٦.
(٨) محاضرات الأستاذ الدكتور طه حسين بك سنة ١٩٣١ في النثر العربي.
(٩) الركس: هو رد الشيء مقلوبًا وقلب أوله على آخره.
(١٠) هَبِلتْه: ثكلته.
(١١) صبح الأعشى: ج٧، ص٥ وما بعدها.
(١٢) صبح الأعشى: ج٢، ص١٦٠.
(١٣) صبح الأعشى: ج٨، ص١٦١.
(١٤) صبح الأعشى: ج٨، ص١٦٠–١٦٦.
(١٥) صبح الأعشى: ج٨، ص٣٢٨.
(١٦) سيرة ابن طولون لابن الداية: ص١٤.
(١٧) المكافأة: ص٩٤.
(١٨) المغرب في حلى المغرب: ج٣، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(١٩) سيرة ابن طولون: ص١٥.
(٢٠) سيرة ابن طولون: ص٥٨.
(٢١) معجم الأدباء: ج٢، ص٢٣٧.
(٢٢) المغرب في حلى المغرب: ج٣. مخطوط بدار الكتب: ج٤، ص١٤، طبعة ليدن.
(٢٣) معجم الأدباء: ج٢، ص٢٣٧.
(٢٤) معجم الأدباء لياقوت: ج٢، ص٢٣٧.
(٢٥) النجوم الزاهرة: ج٤، ص٦.
(٢٦) بغية الوعاة للسيوطي: ص١٨١، معجم الأدباء: ج١، ص٢٧٨.
(٢٧) المغرب في حلى المغرب: ج٤، ص١٨ طبع ليدن.
(٢٨) هكذا في المغرب وفي صبح الأعشى: ج٧، ص١١، جاء إلى «ارمانيوس»، وهو الإمبراطور رومانوس لوكابينوس Romanus Lucapenus الذي ولي عام ٩١٩م إلى عام ٩٤٤م.
(٢٩) نلاحظ هنا أن الضمائر لا تستقيم مع ما قبلها، مما يدل على أن بعض الجمل قد سقطت، ولم تثبت في صبح الأعشى ولا في المغرب.
(٣٠) المغرب: ص٢٣.

(٣١) معجم الأدباء: ج١، ص١٧٨.
(٣٢) المغرب: ص٢٥.
(٣٣) المغرب: ص٣٩.
(٣٤) المغرب: ص١٧.

الباب الرابع

في الشعر

الفصل الأول

من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية

وُجِد الشعر العربي بمصر كما وجد في غيرها من الولايات الإسلامية، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير، لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري، ولا أن نفرق بينه وبين الشعر في الأقطار الأخرى، قد نجد في هذه الأبيات القليلة التي وصلتنا بعض المعاني المصرية، وبعض الحواث المصرية، التي تفرق الشعر المصري عن الشعر في البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية، ولكن هذه الأبيات أو المقطوعات لا تكفي لأن تدلنا على مدى تأثر الشعر العربي بالبيئة المصرية، وإن كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر تأثر بالحياة المصرية، وأن هذا الشعر فُقد، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متناثرة في كتب الأدب والتاريخ.

وأُرجِّح أن أسباب ضياع الشعر المصري في هذا العصر هي نفس الأسباب التي جعلت الكتابة الفنية؛ أي كتابة الرسائل والإنشاء تتأخر في مصر حتى قدوم أحمد بن طولون، ففي عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن مقر الخلافة، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يُحمَل إلى الخليفة أو يرحل هو إلى دار الخلافة؛ لينال من العطاء والهبات ما كان يأخذه شعراء الخليفة، أضف إلى ذلك عدم اكتراث المصريين في أول الأمر بدراسة الأدب والعلوم الأدبية، بل كان جلُّ اهتمامهم يكاد ينصرف إلى الدراسة الدينية الخالصة، مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر، وسبب ضياع أكثر شعر المصريين.

وإذا أردنا درس تاريخ الشعر في مصر الإسلامية في العصر الذي نؤرخه في هذا الكتاب، فسنرى ثلاثة أدوار تطوَّر فيها الشعر المصري تطورًا بيِّنًا.

ففي الدور الأول الذي يبتدئ بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية لم يصلنا في هذا العصر الذي يَنُوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة جدًّا، لا نستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله، ولم تصلنا قصيدة كاملة، إلا إذا استثنينا شعر الشعراء الوافدين على مصر، والذين كان لهم أثر كبير في ازدهار الحياة الأدبية في مصر، ومع ذلك فهذه الأبيات القليلة التي وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان في مصر شعر، وأنه لم يُعْنَ أحد بروايته وحفظه فضُقِد.

ولعل أول قصيدة رويت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوي التي هجا بها أشراف مصر، وقد أُعْجِب بها الخليفة معاوية بن أبي سفيان فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة.[1]

فالشاعر في هذه القصيدة يعيب عرب مصر أنهم حضرميون، ليس لهم شرف ولا مجد وأنهم متكبرون، ولست أدري سبب هذا الهجاء لكن يُخيَّل إليَّ أنه طلب نوالهم فرفضوا عطاءه.

وظلت أنادي اللكعاء قيسًا	ليدخلني وقد حضر الغذاء
وليس بماجد الجدات قيس	ولكن حضرميات قماء
وأعرض نفحه اليربوع عني	يزيد بعد ما رفع اللواء
أشار بكفه اليمنى وكانت	شمالًا، لا يجوز لها عطاء
أكلم عائذًا ويصد عني	ويمنعه السلام الكبرياء
وجرف قد تهدم جانباه	كريب ذاكم البرم العياء
وأما القحزمي فذاك بغل	أضر به مع الدبر الحفاء
وهذاك القصير من تجيب	ولو يسطيع ما نفض الخلاء[2]

يريد يزيد بن شرحبيل، وقيس بن كليب الحاجب، وعائذ بن ثعلبة البلوي الذي قُتِل بالبرلس سنة ٣٥، والقحزمي هو عمرو بن قحزم، وكريب بن أبرهة، وأشار بالقصير إلى زياد بن حناطة التجيبي صاحب القصر المعروف باسمه.

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن كلثوم التجيبي الذي وهب أبوه داره؛ ليكون مسجدًا بالفسطاط، وقد ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد:

وأبوك سلَّم داره وأباحها لجباه قومٍ ركع وسجود[٣]

وهذا الشعر صدر من رجل لا نعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة المُكنَّى بأبي مصعب البلوي، ولا ندري أكان يقطن مصر كغيره من بطون «بلي» أم وفد عليها كباقي الشعراء الذين أكثروا من الوفود على مصر لمدح ولاتها.

ومن الأشعار التي وصلتنا أيضًا في تصدُّق عبد الرحمن بن قيسية على المسلمين بداره؛ لبناء مسجد الفسطاط، ما قاله أبو قبان بن نعيم بدر النجيبي:

وبابليون قد سعدنا بفتحها وحزنا — لعمر الله — فيئًا ومغنما
وقيسية الخير بن كلثوم داره أباح حماها للصلاة وسلما[٤]

وفي ولاية مسلمة بن مخلد، سنة ثلاث وخمسين من الهجرة هدم ما كان بناه عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط وأمر بالزيادة في المسجد الجامع وبناء منار المساجد كلها، فقال عابد بن هشام الأزدي:

لقد مدَّتْ لمسلمة الليالي على رغم العدات مع الأماني
وساعده الزمان بكل سعد وبلَّغه البعيدَ من الأماني
أمسلم فارتق لا زلتَ تعلو على الأيام مسلم والزمان
لقد أحْكَمْت مسجدنا فأضحى كأحسنَ ما يكون من المباني
فتاه به البلاد وساكنوها كما تاهت بزينتها الغواني
كأنَّ تجاوب الأصوات فيها إذا ما الليل ألقى بالحران
كصوت الرعد خالطه دوي وأرعب كل مختطف الجنان[٥]

وكان بين الولاة من يحب الشعر ويرويه، ومنهم من كان شاعرًا كالوالي عقبة بن عامر الذي كان شاعرًا ولكن منعه شدة حرصه على دينه من أن يكثر من إنشاد الشعر.[٦]

ولعل أكثر ولاة مصر في هذا الدور حبًّا للشعر والشعراء هو الأمير عبد العزيز بن مروان الذي ولي من سنة خمس وستين، إلى أن تُوفِّي بمصر سنة ست وثمانين هجرية، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابهين ومدحوه هو وآل بيته، ولا غرو في ذلك فعبد العزيز كان إليه أمر الخلافة بعد أخيه عبد الملك، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تصير إليه الخلافة، وكان عبد العزيز جوادًا يبذل العطاء لكل من يقصده؛ فوفد عليه الشعراء، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يُقِيموا بها إلا لأيام معدودة، على أن يعودوا إلى مواطنهم.

فممن جاء لمدح عبد العزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدي، أقام هذا الشاعر عند الوالي وأكثر من مدحه حتى قَدِم الشاعر نصيب بن رباح فأُعْجِب الأمير بشعره، وبينما نصيب ينشد مدحه جاء الحاجب يقول: إن أيمن بن خريم بالباب. فأذن له عبد العزيز، فلما دخل قال له الأمير: يا أيمن، كم ترى ثمن هذا العبد؟ وأشار إلى نصيب، فنظر أيمن إليه وقال: «لنعم الغادي في إثر المخاض، هذا، أيها الأمير، أرى ثمنه مائة دينار.» قال: فإن له شعرًا وفصاحة، فسأل أيمن نصيبًا: أتقول الشعر؟ فأجابه نصيب: نعم! فقال: قيمته ثلاثون دينارًا. فقال الأمير: يا أيمن، أرفعه وتخفضه أنت! قال: لكونه أحمق أيها الأمير، ما لهذا وللشعر! أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرًا؟! فأمر عبد العزيز نصيبًا أن ينشده فأنشده، فقال عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: شاعر أسود، هو أشعر أهل جلدته.

قال الأمير: «هو — والله — أشعر منك.» وكرَّر ذلك؛ فغضب أيمن وقال: «والله أيها الأمير، إنك لملول ظرف.» قال الأمير: كذبت والله، ما أنا كذلك، ولو كنت كذلك ما صبرت عنك، تنازعني التحية، تواكلني الطعام، وتتَّكئ على وسادتي وفرشي وبك ما بك.[٧] فاغتاظ أيمن واستأذن الأمير في الخروج إلى العراق فأذن له، وسار أيمن إلى بشر بن مروان والي العراق ومدحه بقوله:

ركبت من المقطم في جمادى إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف رأى حقًّا عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين، أقم ببشر عمود الحق؛ إن له عمودا

ودع بشرًا يقوِّمهم ويُحْدثْ لأهل الزيغ إسلامًا جديدا
كأن التاج تاج بني هرقل جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدي وجه بشر إذا الألوان خالفت الخدودا[٨]

فأنت ترى أن الشاعر هنا عرَّض بعبد العزيز في قوله: «إذا الألوان خالفت الخدودا»، فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش.

أما نصيب بن رباح فيقول الرواة إنه كان لبعض العرب من بني كنانة فاشتراه عبد العزيز بن مروان منهم، وقيل: بل باعه عمه بعد أن مات أبوه إلى عبد العزيز، وقيل: إن نصيبًا رأى في نفسه مقدرة على الشعر، فحادث أمه أو أخته في الرحيل إلى عبد العزيز بمصر عساه يعتق أهل بيته، فضحكت هذه ساخرة منه، ولكنه أنشدها شعرًا أُعْجِبت به، واطمأنت إلى قدومه مصر فحضر باب عبد العزيز ولكنه لم يستطع الدخول، حتى رأى رجلًا حسن البزة، فحادثه نصيب في التوسط له بالدخول على الأمير، وعرَّفه أنه شاعر فاستنشده الرجل، فلما أنشده نصيب شيئًا من شعره استملحه الرجل، ولكنه شك أن يكون مثل هذا الشعر لمثل هذا الأسود، فطلب إليه أن ينشد شعرًا يذكر فيه جوف مصر وبعض فضائلها، ووعده أن يستمع إليه في الغد، فلما جاء الغد أنشد نصيب الرجل:

سرى الهم تثنيني إليك طلائعه بمصر وبالجوف اعترتني روائعه
وبات وسادي ساعد قل لحمه عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه

إلى أن قال:

وكم دون ذاك العارض البارق الذي له اشتقت من وجه أُسِيل مدامعه
تمشي به أفناء بكر ومذحج وأفناء عمرو وهو خصب مرابعه
إذا اكتحلت عينا محب بضوئه تجافت به حتى الصباح مضاجعه
وما زلت حتى قلت إني لخالع ولائي من مولًى نمتني قوارعه
ومانح قوم أنت منهم مودتي ومتخذ مولاك مولًى فتابعه[٩]

فأيقن الرجل صدق شاعرية نصيب، وقدمه إلى الوالي، فجرى له مع أيمن ما ذكرناه سابقًا. على أن هناك رواية أخرى تقول: إن نصيبًا كان يرعى إبلًا لمواليه، فأضلَّ منها بعيرًا، فخرج يبحث عنه حتى أتى الفسطاط وبه عبد العزيز، فرغب في الاتصال به، فاستأذن في الدخول فمُنِع، وبعد لأْيٍ طلبه الأمير واستنشده فأنشده:

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألين أبوابهم ... ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين ... من الأم بالإبنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلي ... نَ أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومني الثناء ... بكل مُحَبَّرة سائرة[١٠]

فسُرَّ به الوالي وأعطاه واشترى ولاءه، ولكنهم مع هذا كله فالمؤرخون يروون روايات كثيرة عن خروج نصيب إلى عبد العزيز، ومهما يكن من شيء فإن الشاعر اتصل بعبد العزيز حتى لُقِّب بمولى عبد العزيز بن مروان، ولكنه لم يقم عند الأمير عبد العزيز بمصر، بل كان كثير التنقل متكسبًا بشعره كغيره من شعراء العرب، ولم يزل نصيب يتردد على مصر بين الفينة والفينة، ويمدح عبد العزيز حتى تُوفِّي الأمير متأثرًا بالطاعون، وكان قد هرب إلى قرية في الصعيد تسمى «سكر»؛ خوفًا على نفسه من المرض، ولكنه تُوفِّي بها.[١١]

فلما أتى نصيب نَعْي الأمير أنشد:

أصبت يوم الصعيد في سكر ... مصيبة ليس لي بها قِبَل[١٢]
تالله أنسى مصيبتي أبدًا ... ما أسمعتني حنينها الإبل
لم يعلم النعش ما عليه من ... العرف، ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجنوه في ضريحهم ... حين انتهى من خليك الأمل[١٣]

وقد رثاه بقصيدة رائية أخرى منها:

عرفت، وجربت الأمور فما أرى ... كماضٍ تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي ... يمرون أسلافًا أمامي وأغبر

فإن أبكه أُعْذَر، وإن أغلب الأسى بصبر، فمثلي عندما اشتد يصبر
وكانت ركابي كلما شئت تنتحي جماحًا فتقضي نحبها وهي تضمر
فقد عَرِيتْ بعد ابن ليلي فإنما ذراها لمن لاقت من الناس منظر
ولو كان حيًّا لم يزل بدفوفها مرادًا لغربان الطريق ومنقر
فإن كن قد نلن ابن ليلى فإنه هو المصطفى من أهله المتخير

وقد أُعْجِب بهذه القصيدة الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان يطلب من نصيب أن ينشدها أمامه.[١٤]

ووفد الشاعر عبد الله بن الحجاج[١٥] على عبد العزيز بن مروان بمصر ومدحه، فأجزل عطاه، وأمر أن يقيم عنده، ولكن طال مقامه واشتاق إلى ذويه بالكوفة، فاستأذن الأمير في السفر فلم يأذن له، فاضْطُر الشاعر إلى أن يعصي أمر الأمير، فقد غلبه الشوق، فرحل بدون إذن، فاضْطُر الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر والي العراق أن يمنع عطاء بن الحجاج، واضْطُر الشاعر إلى أن يعود إلى مصر مادحًا عبد العزيز معتذرًا، فصفح عبد العزيز عنه بعد أن استمع لقصائده التي منها:

تركت ابن ليلى ضلة وجريمة وعند ابن ليلى[١٦] معقل ومعول
سأحكم أمري إذ بدا لي رشده وأختار أهل الخير إن كنت أعقل
وأترك أوطاري وألحق بامرئ تحلب كفاه الندى حين يسأل[١٧]

ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل، وسمح له أن يقيم أنَّى شاء.

وجاء مصر الشاعر كُثَيِّر عزة وتردد عليها مرارًا يمدح الأمير عبد العزيز بن مروان، ويقال إنه دخل على عبد العزيز يعوده في مرضه وأهله يتمنون أن يضحك، فلما وقف عليه قال: «لو أن سرورك لا يتمُّ إلا بأن تَسْلَم وأَسْقَم، لدعوت ربي أن يصرف ما بك إليَّ، ولكني أسأل الله تعالى لك العافية ولي في كنفك النعمة.» فضحك عبد العزيز وسُرَّ أهله،[١٨] وبينما كثير يتأهب للرحيل من مصر لقيته عزة في طريقها هي وقومها إلى مصر، قيل: فحادثها طويلًا ثم افترقا فقدمت هي مصر وسافر هو إلى الحجاز على أن يلحق بها بمصر، ويحدثنا الحصري قال: وروى المداني: خرج كثير من الحجاز يريد مصر فلما قرب منها نزل بمنزل فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب، فأسرع

الرحيل ومضى لوجهه، فلقيه رجل من بني نهد، فقال: يا أخا الحجاز، ما لي أراك كاسف اللون؟ قال: ما علمت إلا خيرًا. قال: فهل رأيت في طريقك شيئًا أنكرته؟ قال: لا والله، إلا في منزلي هذا، فإني رأيت غرابًا ينتف ريشه على بانة ينعب. قال: أما إنك تطلب حاجة لا تدركها. فقدم كُثيِّر مصر والناس منصرفون من جنازة عزة، فقال:

رأيت غرابًا ساقطًا فوق بانة ... ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت، ولو أني أشاء زجرته ... بنفسي، للنهديِّ: هل أنت زاجره؟
فقال: غرابٌ، لا غراب من النوى ... وفي البان بينٌ من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدي! لا درَّ درُّه ... وأزجره للطير، لا عزَّ ناصره![19]

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة، ثم رحل وهو يقول:

أقول ونضوي واقف عند رأسها ... عليك سلام الله والعين تسفح
فهذا فراق الحق لا أن تُزيرَني ... بلادك فتلاء الذراعين صيدح
وقد كنت أبكي من فراقك حية ... وأنت، لعمري، اليوم أنأى وأنزح[20]

وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر، وأن يبكيها كُثيِّر بها، والرواة يقولون: إن شعره تغيَّر بعد موتها، وسأله أحدهم: ما بال شِعْرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الخلال.[21]

وقَدِم جميل بن معمر إلى عبد العزيز مادحًا، فأذن له وسمع قصائده وأحسن جائزته، وسأله عن حبِّه لبُثَيْنة فذكر ولعه بها، وأمره الوالي أن يقيم معه في مصر وهيَّأ له منزلًا وأجرى عليه رزقًا فما أقام إلا قليلًا حتى وافته منيته بمصر سنة اثنتين وثمانين من الهجرة، ويقال إنه أنشد وهو يحتضر:

بكر النعي وما كان بجميل ... مثوى بمصر ثواء غير قفول
قومي بثينة فاندبي بعويل ... وابكي خليلك قبل كل خليل[22]

وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبد العزيز وأشاد بذكر مدينة حلوان التي بناها الأمير واتخذها مسكنًا له:

سقيًا لحلوان ذي الكروم وما ... صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من الـ ... ـبرني غلب تهتز في شربه
أسود سكانه الحمام فما ... تنفك غربانه على رطبه[٢٣]

ومدح عبد العزيز بأشعار كثيرة جدًّا نجدها في ديوانه، من ذلك ما قاله لما خرج عبد العزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة إحدى وثمانين من الهجرة:

غدوا من مَدْرج الكرْيَو ... ن حيث سفينهم حزقُ
فلما أن علون النيـ ... ـل والرايات تختفق
رأيت الجوهر الحكميَّ ... والديباج يأتلق
سفائن غير مُقرفةٍ ... إلى حلوان تستبق
محل من يحل به ... لذيذٌ عيشه غدق
يحل به ابن ليلى والنـ ... ـدى والحلم والصدق[٢٤]

ونلاحظ أن الفرزدق لم يكن يحب الوفود على الأمراء، ولكنه كان يود أن يفد على مصر، وعمل شعرًا في مدح عبد العزيز بن مروان، وهمَّ الفرزدق أن يزور مصر ولكن جاءه نعي عبد العزيز فبقي مكانه ولم يأت مصر.

وقد رثى الأمير عبد العزيز بن مروان كثير من الشعراء؛ من ذلك ما قاله ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثي عبد العزيز وابنه الأصبغ الذي تُوفِّي سنة ست وثمانين من الهجرة قبل وفاة أبيه بنحو شهرين:

نقول غداة قطعنا الجفا ... ر والعين بالدمع مغرورقةْ
مقال امرئ كاره للفرا ... ق تاع البلاد وباع الرقة
أبعد الخليفة عبد العزيز ... وبعد الأمير كذا وابقة
فما مصر لي بعد عبد العزيـ ... ـز والأصبغ الخير بالمونقة
سقى الله قبريهما والصدى ... وما جاورا ديمة مغدقة

فإن تك مصر أشارت بها إلى الشر يومًا يدٌ موبقة
فقُدْمًا تقر بمصر العيو نِ في لذة العيش محدودقة[٢٥]

فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبد العزيز بن مروان أن يجمع حوله عددًا من الشعراء البارزين، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر.

وكذلك نقول عن الوالي عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذي ولي مصر سنة ست وثمانين، فقد وفد عليه الحزين الكناني، ويُكنَّى سليمان أبا الشعثاء ومدح الوالي بقوله:

الله يعلم أن قد جُبْتُ ذا يمن ثم العراقين لا يثنيني السأم
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذاك تسري على الأهوال بي القدم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنًا وحيث تُحلَق عند الجمرة اللمم
قالوا دمشق ينبيك الخبير بها ثم ائت مصر فثمَّ النائل العمم
لما وقفت عليها في الجموع ضحًى وقد تعرَّضت الحُجَّاب والخدم
حييته بسلام غير مرتفق وضجة القوم عند الباب تزدحم
في كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع في عرنينه شمم[٢٦]

لم تعدم القبائل التي قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء، وقد هُيِّئت الأسباب التي تدعو إلى وجود الشعراء؛ تلك هي الفتن التي كانت في مصر إذ ذاك، كما كان الحال في جميع البلاد الإسلامية. من ذلك أن عبد الرحمن بن جحدم ولي مصر من قبل ابن الزبير، فلما أن بويع مروان بن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبير؛ فسيَّر ابنه عبد العزيز إليها فحفر ابن جحدم خندقًا حول الفسطاط سنة خمس وستين من الهجرة، وأرسل جيشًا عليه زهير من قيس البلوي إلى أيلة؛ ليمنع عبد العزيز من المسير، وسار مروان أيضًا إلى مصر، ولكن هُزِم الجيش المصري وتقدمت جيوش المروانيين.[٢٧] ففي هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعرًا، ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النزر اليسير، من ذلك ما قاله زرعة بن سعد بن أبي زمزمة الحشني يمدح ابن جحدم:

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفًا هم أثاروا ترابه وخدوه في شهر حديث مصدق[٢٨]

وما زال هذا الشاعر ينقم على الأمويين، حتى كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وشاءت الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر فيتشاءم المصريون بالوالي الجديد، وخرج الوالي سنة ثمانٍ وثمانين إلى أخيه الوليد، فهجاه ابن أبي زمزمة بقوله:

إذا صار عبد الله من مصر خارجًا فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال وافٍ مغربل فما سار حتى سار والمُدُّ فالِج[٢٩]

فغضب عليه الوالي وأهدر دمه، فاضْطُر الشاعر أمام هذا الوعيد إلى أن يهرب من مصر إلى بلاد المغرب؛ حيث كتب إلى الخليفة:

ألا لا تنه عبد الله عني كما قد قال يجعلني نكالا
ولم أشتم لعبد الله عرضًا ولم آكل لعبد الله مالا[٣٠]

وقيل إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبي زمزمة فهرب منه، فبلغ الوالي أن عمران بن عبد الرحمن قاضي مصر أوى الشاعر وأن القاضي هجا الوالي بأبيات له منها:

أنا ابن أبي بدر بهجرة يثرب وهجرة أرض للنجاشي أفخر
أمثلي على سني وفضل أبوتي نسيت وهذا نجل مروان يذكر[٣١]

فعزله عبد الله عن القضاء والشرطة سنة تسع وثمانين، فقال عمران يهجو عبد الله ويعرِّض بالقاضي الجديد عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية، وكان حدثًا غير أنه كان فقيهًا:

لَحَى الله قومًا أمَّروك، ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يريب
أتصرفني جهلًا عن الحكم ظالمًا ووليته عجزًا فتاة تجيب[٣٢]
ثكلتك من والٍ وأيضًا ثكلته ألم يك في الناس الكثير نصيب[٣٣]

واستمرت الحروب التي كانت بين الزبير وبين الأمويين في مصر طويلًا، وكانت تُعرَف هذه الحروب بأيام الخندق أو «التراويح»؛[٣٤] لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نُوَبًا، يخرج هؤلاء ثم يرجعون ويخرج غيرهم، وقتل من المصريين عدد كثير لا سيما من «المعافر»، وفي هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانيًّا:

ألا هل أتاها على نأيها نباء التراويح والخندق
بلغنا بفيلق يغشى الظراب بعيد السمو لمن يرتقي
وسدت معافر أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرق
ونادى الكماة: ألا فابرزوا فحتام حتى ولا نلتقي[٣٥]

وقام بعض المصريين بالصلح بين المروانيين والمصريين، ولكن المعافر لم يقبلوا أن يبايعوه، فقُتِل من المعافر نحو ثمانين رجلًا بينهم الأكدر بن حمام سيد لخم وشيخها، فلما علم المصريون ذلك، لم يبق أحد حتى لبس سلاحه، واجتمع على باب مروان أكثر من ثلاثين ألفًا؛ فخاف مروان وأغلق بابه، وكاد المصريون يفتكون به لو لم يُجِرْه كريب بن أبرهة، وفي رثاء الأكدر قال زياد بن قائد اللخمي:

كما لقيت لخم ما ساءها بأكدر، لا يبعدن أكدر
هو السيف جرد من غمده فلاقى المنايا وما يشعر
فلهفي عليك غداة الردى وقد ضاق وردك والمصدر
وأنت الأسير بلا منعة وما كان مثلك يستأثر[٣٦]

ونرى شاعرًا آخر لا نعرف اسمه يخاطب الخليفة الوليد بن عبد الملك لما عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر وولَّى عليها قرة بن شريك سنة ٩٠هـ:

عجبًا ما عجبت حين أتانا أن قد أمَّرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا ثم فيلت فيه رأي أبيك[٣٧]

كذلك لم يصلنا شعر الشاعر المسور الخولاني، وقد كان في أواخر أيام الأمويين، ووصلنا من شعره بيتان من قصيدة يخاطب ابن عم له يحذره من الخليفة مروان بن محمد الذي قتل بعض أشراف مصر؛ لأنهم خلعوه وأرادوا غيره.

فإياك لا تجني من الشر غلظة ... فتُودى كحفص أو رجا بن الأشيم[٣٨]
فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم ... فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم!

وقال الشاعر مرسل بن حمير يبكي حفصًا وأصحابه:

يا عين لا تبقي من العبرات ... جودي على الأحياء والأموات
يا حفص، يا كهف العشيرة كلها ... يا أخا النوال وساتر العورات
إما قتلت فأنت كنت عميدهم ... والكهف للأيتام والجارات
أودى رجاء لا كمثل رجائنا ... رجل، وعقبة فارِج الكربات
وشبابنا عمرو، وفهد ذو الندى ... وابن السليط وعامر الغارات
قُتِلوا ولم أسمع بمثل مصابهم ... سروات أقوام بنو سروات
ظلت دماؤهم فلم يعرج لهم ... بَيْنٌ ولم يطلب لهم بجناة[٣٩]

ولما قدم مروان بن محمد مصر في شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة وجد أن أكثر أهل مصر قد سُوِّدوا، فعزم على تعدية النيل، فأمر بالدار المذهبة أن تحرق، وكانت تسمى بالدار البيضاء، وهي التي بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين هجرية، فبكى شعراء مصر هذه الدار، فمن ذلك ما قاله عيسى بن شافع:

يا طللًا أقوى وحلَّ البِلى ... منه لدى العلو وفي السفل
قد كنت مغنًى لعيون المَها ... وكنت مأوى لظبي الرمل
وكان أربابك ما إن لهم ... في الناس من نوع ولا شكل[٤٠]

وكان لبعض الولاة ولع باللهو والمجون وشرب الخمر، كالوالي قرة بن شريك الذي هدم الجامع العتيق بالفسطاط وأعاد بناءه، فكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا قرة بالخمور والزمور والطبول فيشرب الخمر في المسجد طول الليل، وهو يقول: «لنا الليل ولهم النهار.»[٤١] وعن هذا الوالي قال السيوطي: «كان قرة ظلومًا عسوفًا قيل كان

يدعو بالخمر والملاهي في جامع عمر.»[٤٢] ولقد أغضب هذا الوالي جماعة العرب بمصر، فقال أحدهم فيه الشعر الذي ذكرناه،[٤٣] ويحدثنا صاحب الأغاني أن الأبجر المغني كان متصلًا بالخليفة الوليد بن يزيد، فلما قتل الوليد خرج الأبجر إلى مصر وما زال بها حتى مات،[٤٤] ولكنا لا نعلم أنه كان في خدمة أحد من ولاة مصر، وربما اضطره فنه إلى أن يطرب المصريين ويشجيهم.

وقد فُقِد كل الشعر الغزلي، وكل ما أنشد في وصف حياة اللهو والمجون في مصر، كما فقد غيره من الشعر في هذا العصر.

هوامش

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم: ص١٢٤.

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم: ص١٢٣.

(٣) خطط المقريزي: ج٤، ص٥.

(٤) خطط المقريزي: ج٤، ص٥.

(٥) شرحه: ج٤، ص٧.

(٦) الولاة والقضاة للكندي: ص٣٧.

(٧) يقصد بذلك أن أيمن بن خريم كان به وضح.

(٨) الأغاني: ج١، ص١٢٧.

(٩) الأغاني: ج١، ص١٢٧.

(١٠) الأغاني: ج١، ص١٢٩.

(١١) هكذا في الأغاني: ج١، ص١٣٩، ولكن الكندي يقول: إنه تُوفِّي في حلوان.

(١٢) يُروَى هذا البيت في كتاب الولاة للكندي ص٦٦ منسوبًا إلى كثير في رثاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبي بكر بن عبد العزيز بن مروان.

(١٣) الأغاني: ج١، ص١٣٩.

(١٤) الأغاني: ج١، ص١٢٩.

(١٥) الأغاني: ج١٢، ص٢٩.

(١٦) كان الأمير عبد العزيز يغتبط إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته «ليلى» في شعره، حتى روي أنه قال: «لا أعطي شاعرًا شيئًا حتى يذكرها في مدحي لشرفها.» (الأغاني: ج١، ص١٣١) وكانت من بني كلاب.

(١٧) الأغاني: ج١٢، ص٣٠.
(١٨) ابن خلكان: ج١، ص٤٣٣.
(١٩) زهر الآداب: ج٢، ص١٦٩.
(٢٠) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٣٢٢.
(٢١) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٣٢٢.
(٢٢) شرحه.
(٢٣) خطط المقريزي: ج١، ص٢٠٩، وديوان قيس الرقيات، والكندي: ص٥٠.
(٢٤) ديوان ابن الرقيات: ص٣٣٩.
(٢٥) الكندي: ص٥٦.
(٢٦) الأغاني: ج١٤، ص٧٦، وقيل: إن هذه القصيدة للحزين في رثاء عبد العزيز بن مروان، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فقد قيلت هذه القصيدة في مصر وكان الحزين بها.
(٢٧) الكندي: ص٤١-٤٢.
(٢٨) الكندي: ص٤١-٤٢.
(٢٩) شرحه: ص٥٩.
(٣٠) شرحه.
(٣١) الكندي: ص٣٢٨.
(٣٢) أراد بفتاة تجيب القاضي عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي.
(٣٣) الكندي: ص٣٢٨.
(٣٤) الكندي: ص٤٤.
(٣٥) شرحه.
(٣٦) الكندي: ص٤٦.
(٣٧) الكندي: ص٩٣.
(٣٨) هكذا في الكندي ص٩١، ولكن عجز هذا البيت مكسور، ولعل الصحيح «أو رجاء بن أشيم»، وحفص المذكور هو حفص بن الوليد الذي ولي على مصر مرارًا، وكان رجاء عامله على الصعيد، قتلهما حوثرة الباهلي سنة ١٢٨هـ.
(٣٩) الكندي: ص٩١-٩٢.
(٤٠) الكندي: ص٩٥.

(٤١) النجوم الزاهرة: ج١، ص٢١٨.
(٤٢) حسن المحاضرة: ج٢، ص٧.
(٤٣) ص١٢٣.
(٤٤) الأغاني: ج٣، ص١١٢.

الفصل الثاني

من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون

في دراسة العصر الأموي رأينا أننا لا نكاد نجد في مصر شعرًا، اللهم إلا هذه الأبيات القليلة المتناثرة في كتب الأدب والتاريخ، وشعر الشعراء الوافدين الذين كانوا يقيمون في مصر أيامًا معدودات على أن يعودوا إلى بلادهم مزوَّدين بعطايا وهِبات أمراء مصر، أما في العصر العباسي فالأمر يختلف باختلاف تطور الحياة في مصر وتطور الثقافة التي كانت بها؛ ولذلك قبل أن أتحدث عن حياة الشعر بمصر يجب أن نلمَّ إلمامًا يسيرًا بعدة أمور، أرى أن لها أثرًا بعيدًا في توجيه الحياة الأدبية في مصر في العصر العباسي، بل في انتعاش هذه الحياة الأدبية:

(١) نلاحظ أولًا أن العرب الذين وفدوا على مصر في العصر السابق قد استقروا بها وعاشوا فيها مع المصريين واختلطوا مع المصريين اختلاطًا أدَّى إلى نوع من المزج بين المصريين والعرب الوافدين، فنجد في مصر في العصر العباسي عنصرًا جديدًا من السكان؛ هم نتيجة اختلاط العرب بالمصريين أولًا، وزواج العرب من نساء مصريات ثانيًا، ودخول كثير من المصريين في الدين الإسلامي رغبة أو رهبة ثالثًا، حتى هؤلاء الذين احتفظوا بدينهم من المصريين تأثروا بالعرب كما تأثر العرب بهم، وكان نتيجة ذلك كله: أن انتشرت اللغة العربية في مصر انتشارًا عظيمًا حتى إذا كان القرن الرابع لم يجد البطريق سويرس بن المقفع من يعرف اللغة القبطية أو اليونانية، واضْطُر إلى أن يكتب كتابه «سير الآباء البطاركة» باللغة العربية، نتيجة ثانية: هي أننا نجد في العصر العباسي كثيرًا من العلماء المسلمين من أصل قبطي؛ أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد، وكان

من أهل الديانة والفضل، وكانت له حلقة في المسجد يلقي فيها دروس الفقه، وسعيد بن تليد كاتب القضاء في عهد لهيعة بن عيسى، ويحيى بن بكير الفقيه المؤرخ وأحد تلاميذ الليث بن سعد ومن أساتذة عبد الرحمن بن عبد الحكم، هؤلاء وغيرهم كانوا من أصل غير عربي ولكن حسُن بلاؤهم للعربية والإسلام.

ونتيجة ثالثة لهذا المزج: أن الآثار الأدبية التي تركها الشعراء والأدباء ظهر فيها روح الشعب المصري مثل روح الدعابة والفكاهة، مما يدل على أن أثر البيئة المصرية كان قويًّا شديدًا على الأدباء والشعراء في هذا العصر.

(٢) نلاحظ ثانيًا أننا لا نكاد نجد في هذا العصر العباسي هجرة قبائل أو بطون عربية إلى مصر كالهجرات التي كانت في العصور السابقة، والهجرة الوحيدة التي كانت في العصر العباسي هي تلك التي كانت سنة ٢٠٠هـ، وهي هجرة طائفة كبيرة من الأندلسيين إلى الإسكندرية وضواحيها، وسبب هذه الهجرة هو أن أهالي قرطبة ثاروا على الحكم بن هشام؛ فأمر الخليفة بتخريب قرطبة ثم نادى في الناس بالأمان على أن يهاجروا من المدينة، فرحل منهم خمسة عشر ألفًا إلى إفريقية، أقام منهم ثمانية آلاف في المغرب، وذهب الباقون إلى مصر، وقال دوزي: إن الذين رحلوا إلى مصر كانوا خمسة عشر ألفًا خلا النساء والأطفال، فلما وصلوا الإسكندرية اعترضهم أهلها ومنعوهم من دخول المدينة، فمكثوا في سفنهم حتى أُتِيحَت لهم الفرصة فغلبوا الوالي ودخلوا المدينة، وظلُّوا بها حتى قدم عبد الله بن طاهر حوالي سنة ٢١١، فلما رأى شرَّهم حاربهم ثم اتفق معهم على الجلاء عن الإسكندرية، فرحلوا عنها إلى جزيرة كريت، وظلوا يحكمونها حتى سنة ٣١٥هـ/٩٦١م إذ انتزعها منهم الإمبراطور أرمانوس.

هذه هي الهجرة الوحيدة التي ذكرها لنا المؤرخون، وقد كان لهؤلاء الأندلسيين تأثير كبير في الثورات التي حدثت في هذا السنوات القليلة التي مكثوها بالإسكندرية ولا سيما في ثورة الجروي التي سنتحدث عنها بعد ذلك، وفي هذه الثورات أنشد شعراء مصر أشعارًا كثيرة ذكروا فيها وقائعهم وحوادثهم.

(٣) ومن ناحية ثالثة: كانت مصر طوال العصر العباسي مِرْجلًا يغلي بالفتن والثوات، وكان الحكم في مصر مضطربًا اضطرابًا شديدًا، فالولاة كانوا يُعزَلون بعد عام أو بعد بضع عام، وجرى خلفاء العباسيين على سنة تغيير الولاة في مصر فلم يتمكن الولاة من إصلاح البلاد الداخلية، وانتهز بعض الولاة فرصة ولايته فارتشى في أحكامه وشدَّد

الحكم على المصريين، فثار المصريون جميعًا سواء أكانوا من العرب أو من الأقباط، وكان لهذه الثورات أثر قوي في إيقاظ روح الشعر في مصر؛ فجرى الشعر على ألسن الشعراء متحدِّثين بما كان في البلاد من حوادث حتى إن أكثر ما حُفِظ لنا من شعر هذا العصر إنما كان يتحدث عن هذه الثورات.

(٤) نلاحظ بعد ذلك تطورًا عظيمًا في الدراسات التي كانت بمصر في العصر العباسي، فقد عرفنا أن أكثر الدراسات التي كانت في العصر الأموي كانت دراسات دينية من قراءات وتفسير ورواية الحديث أو دراسات تتصل بالدين كالتاريخ الذي كان يقصد منه:

أولًا: تفسير الآيات التاريخية في القرآن، ولم نعرف طوال العصر الأموي اهتمام المصريين بالعلوم العربية الخالصة؛ كرواية الشعر وعلوم اللغة والنحو إلى غير ذلك، ولكن في العصر العباسي نجد أكثر العلماء يهتمون بالعلوم العربية الخالصة اهتمامًا كبيرًا بجانب اهتمامهم بالعلوم الدينية؛ فالليث بن سعد فقيه مصر كان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر، وابن الوزير التجيبي كان محدِّثًا فقيهًا وكان عالمًا بالشعر والأدب، وعبد الحميد بن الوليد المصري المُتوفَّى سنة ٢٢١هـ كان عالمًا بالأخبار والنحو، والشاعر المصري الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر عُرِف عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعي وكان أحد رواته، والشاعر سعيد بن عفير كان مؤرخًا ومحدِّثًا وشاعرًا وأديبًا وإمامًا في اللغة والنحو حتى قيل: إن مصر لم تُخْرِج أجمع مَن للعلوم منه، وكان الوالي عبد الله بن طاهر يقول عنه: «رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء: النيل، والهرمين، وابن عفير.» ولما وفد على مصر عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وكان إمامًا في اللغة والنحو اجتمع بالإمام الشافعي وتناشدا كثيرًا من أشعار العرب، وروى عنهما المصريون الشعر، ووفد أبو نواس على مصر فلما علم المصريون بوجوده هرعوا إليه واجتمعوا حوله فأملاهم أشعاره. من هذه الأمثلة نستطيع أن ندرك هذا التطور الذي حدث في الثقافة في مصر وكيف اهتم المصريون في هذا العصر بالدراسات الأدبية اهتمامًا كبيرًا كان له أثر واضح في رُقِي الحياة الأدبية في مصر.

وكما وفد الشعراء على أمراء مصر في العصر الأموي كذلك نجد كثيرًا من الشعراء العباسيين المعروفين يفدون على مصر؛ فأبو نواس وفد على الخصيب، ودعبل الخزاعي

وإبراهيم بن العباس بن الأحنف وفدا على المطلب الخزاعي، والبطين الحمامي دخل مصر مع عبد الله بن طاهر، وقال ابن منظور: إن ديك الجن جاء مصر ووجد لأبي نواس أشعارًا تُروَى في مصر لا يعرفها أهل العراق، ووفد ابن المولى وربيعة الرقي على يزيد بن حاتم، وجاء أبو تمام إلى مصر وهو صغير وتلقَّى كثيرًا من الدراسات الأدبية فيها، وفي مصر أنشد الشعر بل ذهب بعض المؤرخين إلى أن أبا تمام أنشد أول شعره بمصر حتى ذهب الكندي وابن زولاق والسيوطي إلى أن أبا تمام مصري، وقالوا إنه شاعر مصر الأكبر.

من هذه العجالة نستطيع أن ندرك أن الحياة الأدبية في مصر في العصر العباسي كانت مزدهرة، وأن الدراسات الأدبية كانت منتشرة ومع ذلك كله لا نجد بين شعراء مصر شاعرًا بلغ إلى درجة فحول الشعراء الذين عرَفتْهم الأقطار الإسلامية الأخرى، وتعليل ذلك عندي أن الرواة ومؤرخي الآداب لم يهتموا بمصر فلم يحفظوا شعر المصريين؛ ولهذا السبب لم تصلنا قصائد كاملة من شعراء مصر في هذا العصر العباسي، وأخشى أن أقول إن المصريين تنقصهم العصبية، فقد رأيناهم لا يهتمون بإمام مصر الليث بن سعد وفضَّلوا مذهب مالك والشافعي وهما من الغرباء، فالغريب عند المصريين أكرم لديهم من إخوانهم، ومن ناحية أخرى من الطبيعي أن يتأخر الإنتاج الأدبي في مصر عن نظيره في العراق والشام، فمنذ الجاهلية كانت العراق والشام تعدان من بلاد العرب وما الغساسنة والمناذرة إلا من العرب، ومنذ الجاهلية كانت القبائل العربية تسكن بلاد الشام والعراق، أما مصر فلم تكن علاقتها بالعرب بهذه القوة، ولم تفد عليها قبائل عربية كثيرة إلا بعد الفتح، فضَعُف الإنتاج الأدبي بمصر بينما قوي الإنتاج الديني والتاريخي؛ لأن النبوغ في الثقافة الدينية أسهل من النبوغ في الأدب، ولأن الذين أسلموا من المصريين ليس من السهل عليهم أن ينبغوا في الأدب بينما من السهل أن ينبغوا في العلم، وأكثر من هذا أن التحمس الديني في هذا العصر كان أقوى من التحمس للأدب؛ لذلك كله لا نجد شاعرًا مصريًّا بلغ مرتبة الفحول.

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الذي وصلنا في هذا العصر يعطينا صورة لِما كانت عليه الحالة في مصر السياسية والاجتماعية والأدبية، ثم تدلنا على أن الشعر المصري ابتدأ ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة، ويُعبِّر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة وألوان الثقافات المتعددة، وضروب الحركات السياسية وغير السياسية،

وليس أدل على ذلك من هذه الأشعار التي قيلت في الاضطرابات العديدة التي كانت في مصر في ذلك العصر.

(١) أثر الفتن في الشعر

نستطيع أن نقسم الفتن التي كانت بمصر في هذا العصر إلى:

ثورات سياسية

إن صحَّ هذا التعبير، كان يقوم بها قبائل العرب ضد الولاة والأمراء؛ لجور حكَّامهم، وسوء سياستهم، من ذلك ما كان في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي الذي ولي في أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة، فقد تشدَّد الوالي في جمع الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولًا، وجعل خراجًا على أهل الأسواق وعلى الدواب، وعاد إلى الرشوة في الأحكام، فأظهر الجند كراهته، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الحوف وتحالف القيسية واليمنية على قتاله، واتفق أهل الحوف أيضًا مع جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالي، فخرج موسى مع جنده لقتال الثائرين، فانهزم جند الفسطاط عنه وقُتِل الوالي سنة ثمانٍ وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته، هذا الحادث كان له أثر في الشعر؛ إذ أنشد الشعراء في ذلك مترنِّمين بانتصار أهل الحوف، من ذلك ما قاله سعيد بن عفير:

ألم ترهم ألوتْ بموسى سيوفهم ... وكانت سيوفًا لا تدين لمترف
فما برحت به تعود وتبتدي ... إلى أن تروى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى ... بمصر من الدنيا سليبًا بنفنف
ولكن أهل الحوف لله فيهم ... ذخائر إن لا ينفد الدهر تعرف[١]

وفي ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج سنة إحدى وتسعين ومائة من الهجرة، وخرج أبو الندى مولى «بلي» في نحو ألف رجل يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام، وساعده في ذلك رجل من جذام يُقال له المنذر بن عابس وآخر

يُدعَى سلام النوى، فكثر فسادهم، وأوقعوا الرعب في نفوس المصريين جميعًا، فبعث هرون الرشيد بقائده يحيى بن معاذ لقمع هذه الحركة ولإخضاع أهل الحوف، فتم ليحيى ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن عابس فمدح الشعراء القائد يحيى، فمن ذلك ما قاله أبو عثمان السكري:

يا قيس عيلان، إني ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إني أحذركم يحيى وصولته فما رأيت له تقيًا إذا غضبا

وقال أيضًا:

قد جبينا قيسًا ولم تك تجبى فقتلنا أبا الندى وابن عابس
وتركنا لخمًا وحي جذام لا يطيقون رفع كف تلامس
آمن الله بالمبارك يحيى حوف مصر إلى دمشق فبالس
وأباد الخلاع من كل أرضٍ بعدما حاد عنهم كل فارس[٢]

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التي كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاة والحكام، ولكن أرى أن ألُمَّ بثورة الجروي التي شغلت ولاة مصر والخلافة العباسية مدة طويلة،[٣] فقد كان عبد العزيز بن الوزير الجروي صاحب الشرطة بمصر في ولاية المطلب الخزاعي سنة ثمانٍ وتسعين ومائة من الهجرة وعزل بعد قليل، وبعث على رأس الجيش لمحاربة أهل الحوف، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع وتسعين ومائة في ولاية العباس بن موسى، ولكن الجند ثاروا، وأجمعوا على تولية المطلب الخزاعي مرة أخرى؛ فاضْطُر الجروي إلى الهروب إلى تنيس، فلما تم الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الحوف، أرسل إلى الجروي بعقده على تنيس وأمره بالحضور إلى الفسطاط، فامتنع الجروي فبعث المطلب بوالٍ آخر على تنيس، فلم يستطيع دخولها، وسار الجروي لمحاربة السري بن الحكم الذي أرسله الوالي لحرب الجروي، فأُسِر السري وسجن، وتوالت جيوش الوالي لحرب الجروي فكانت تُهزَم الواحدة تلو الأخرى، وجدَّ الوالي في أمر الجروي؛ فأخرج الجروي السري بن الحكم من السجن بعد أن تعاهدا على أن يخلعا الوالي ويخلفه السري، وبعد حروب طويلة أرسل الوالي في طلب الأمان من السري على أن يسلِّم إليه

الأمر ويخرج عن مصر، وقد تم ذلك وخرج المطلب الخزاعي إلى مكة، وفي هذا أشار دعبل الخزاعي بقوله:

فكيف رأيت سيوف الجريش ووقعة مولى بني ضبة[٤]
أحجَّتْك أسيافهم كارهًا وما لك في الحج من رغبة

وتمَّ أمر مصر إلى السري في رمضان سنة مائتين من الهجرة، فطلب الوالي إلى الجروي أن يذهب لتأديب لخم بالإسكندرية، وكاد الجروي يفتح حصنها فخشي السري أن يملكها الجروي، فأوعز إلى أحد رجاله أن يخالف الجروي، فاضْطُر الجروي إلى أن يرجع إلى تنيس سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السري، وفي ذلك قال سعيد بن عفير:

ألا من مبلغ الجروي عني مغلغلة يعاتب أو يلوم
أقمت تنازل الأبطال حتى تميَّز ذو الحفيظة والسئوم
وصلت بهم فما وهنت قواهم وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حلوا عليهم باد جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني أتتك بصحو نحس لا يقيم
أتاك وقد أمنت ونمت كيدًا لصل لا ينام ولا يُنيم

ثم ولي سليمان بن غالب مصر في ربيع الأول سنة إحدى ومائتين، فحاربه السري بن الحكم، ولكن هُزِم السري وأسر هو وابنه ميمون وسجنا في أخميم واستقام الأمر لسليمان فقال المُعلَّى الطائي في ذلك:

إذا شن في أرض سليمان غارة أثار بها نقعًا كثير المصائب
ألم تر مصرًا كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب
حماها ولولا ما تقلد أصبحت حبيسًا على حكم القنا والمقانب

ولكن أعيد السري مرة أخرى للولاية، وهرب سليمان إلى الجروي، وانتقم السري من كل أعدائه، فأخذ يقتلهم ويصلبهم، حتى قامت فتنة إبراهيم بن المهدي ببغداد، واتصل إبراهيم بالجند في مصر وأمرهم بخلع المأمون، والوثوب بالسري، فلبَّى دعوته

جمع من المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروي بالوجه البحري وسلامة الطحاوي بالصعيد وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي، فحاربوا السري، وملك الجروي الإسكندرية، وأخرج الطحاوي عمال السري من الصعيد، وسار الجروي حتى التقى بجيش السري بشطنوف فهُزم السري سنة ثلاث ومائتين وقُتل ابنه ميمون بن السري، فرثاه مُعلَّى الطائي بقوله:

لو رد غرب منية بشجاعة ... أحد لدافع ركنها ميمون
لو كان تجريد السيوف يردها ... لحماه منها منصل وثمين
ما زلت أطمع في رجوعك سالمًا ... ويروعني شفقًا عليك ظنون
فليفجعن غدًا بقتلك طاهر ... وليفجعن بقتلك المأمون

وقال أبو نجاد الحارثي في ذكر هذه الحروب:

جمع رعاعك يا سري فإنها ... حرب تحس سعيرها قحطان
قتلوا أبا حسن وجروا شِلْوه ... كالكلب جرَّ بشِلْوه الصبيان
ولت تجيب وأسلمته جيادها ... عيلان يوم تواكلت عيلان
فاستخرجوه ملبيًا فأتى به ... يجري ويهرج حوله السودان
أبشر فإن أفول نجمك بعده ... عرض السماء ونجمك الدبران
لا تبك فالعقبى لإخوته غدًا ... أو بعده فكما تدين تُدان

وأشرف الجروي على الفسطاط وأراد أن يحرقها فخرج إليه الفقهاء وسألوه الكف عن ذلك، فانصرف عنها، ثم علم أن أهل الإسكندرية أخرجوا عامله، ودعوا للسري، فسار إليهم في رمضان سنة ثلاث ومائتين، وثار القبط بسخا فهزمهم الجروي فمدحه المُعلَّى الطائي يخاطب الخليفة المأمون:

فقل لأمير المؤمنين نصيحة ... وما حاضر شيئًا كآخر غائب
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه ... ولولاه كنا بين قتل وناهب

وسار الجروي إلى الإسكندرية، فقُتل في سنة خمس ومائتين، واستطاع السري أن يهزم سلامة الطحاوي الثائر بالصعيد، وفي ذلك قال المُعلَّى:

أراد الطحاوي التي لا شوى لها ... فأوقد نارًا كان بالنار صاليا
ودب لأقطار البلاد بفتنة ... فجاشت بسقم لا يجيب المداويا
وراسله من كان يحفى بفاقة ... وأصبح ذا ميل إليه مماليا
جَنَتْ ما استحق القتل يا صاح كفه ... وكل امرئ يجرى بما كان جانيا

وتُوفِّي السري بالفسطاط بعد قتل الجروي بثلاثة أشهر، وولي بعده ابنه أبو النصر بن السري، وكان علي بن عبد العزيز الجروي قد خلف أباه، فأرسل ابن السري جيشًا لمحاربة ابن الجروي ولكن هُزِم هذا الجيش، واكتفى ابن الجروي بذلك فلم يتبع الجيش المنهزم، وحنق بعض المصريين عليه لذلك، وظهر هذا في قول سعيد بن عفير يخاطب ابن الجروي:

ألا من مبلغ عني عليًّا ... رسالة من يلوم على الركوك
علام حبست جمعك مستكفًّا ... «بشط ينوف» في ضنك ضنيك
وقد سنحت لك الغفران ممن ... رماك بجيشه الوهن الركيك
أمن بقيا فلا بقيا لمن لا ... يراها عند فرصته عليك

وفي سنة سبع ومائتين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني واليًا على مصر فامتنع ابن السري من تسليمها وحاربه، فانضم ابن الجروي إلى جيش خالد، واستمر القتال مدة طويلة، فملَّ الجيشان الحرب، وحدث أن ارتفع النيل في هذا الوقت فسار خالد إلى الحوف. فلما رأى ابن الجروي ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد عن ملكه، فمكر به حتى أنزله «نهيا» وهناك تركه ابن الجروي في جهد وصفه المُعلَّى بقوله:

سلا خالدًا لما انجلى عنه شكه ... وأسلمه في عدوة البحر خاذله
فزالت أمانيه غداة سما لنا ... بعارض جيش يمطر الموت وابله

فلما انكشف النيل سار ابن السري إلى خالد وحاربه فأسر خالد، وفي ذلك قال المُعلَّى:

ألا لا أرى خيلًا أضر له الوغى ... وأجبن في الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلة ... تمالوا على إسلامه في الشدائد
فما أسروا منه جبانًا معضدًا ... ولكن أبا شبلين عبل السواعد
فإن يقتلوه يقتلوا منه سيدًا ... شجاعًا جوادًا ماجدًا وابن ماجد
وإن كففوا عن قتله فهي منة ... لآل سري في مناط القلائد

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن قسم مصر بين ابن السري وابن الجروي؛ فولَّى كل واحد منهما ما في يديه، فأقبل ابن الجروي على جمع الخراج فقاومه قوم من أهل الحوف وكتبوا إلى ابن السري يستعدونه على ابن الجروي، فتقابل الجيشان في «بلقين» واستمر القتال طويلًا حتى اضْطُر ابن الجروي إلى أن يفر إلى دمياط، وفي ذلك قال المُعلَّى:

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة ... لنا بحمى بلقين شيبت الولدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة ... خطاء ولكنا قتلناهم عمدا
ولما تبيَّنت المنية في القنا ... نكصْتَ تناد حين ضل الندا سعدا
فوليت عن ربع المحلة هاربًا ... على أبله ما يركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره ... علينا وولاك المذلة والطردا
سنهدي إلى المأمون منا نصائحًا ... نُضمِّنها طي الصحائف والبردا
بفعل علي والذي كان مجمعًا ... عليه بإظهار الخلاف الذي أبدا

وسار ابن السري إلى تنيس ودمياط واضطر ابن الجروي إلى أن يهرب إلى الفرما والعريش فخاطبه سعيد بن عفير بقوله:

ألا يا علي بن عبد العزيز ... إلى أين صرت تريد الفرارا
فلست بأول من كاده ... عدوٌّ فكَرَّ عليه اعتكارا
وأجر مصيرك أن يسحبوا ... إليك فتوحًا عظامًا كبارا
فتدرك ثأرك من أهله ... وتلبس بعد الكبو الفسارا[٦]

فلما سمع ذلك ابن جروي أغار على الفرما سنة تسع ومائتين وهرب أصحاب ابن السري من تنيس ودمياط، وسار ابن الجروي حتى قابل جيش ابن السري بشطنوف فهُزِم ابن الجروي ولحق بالعريش فمدح المُعلَّى الطائي ابن السري بقوله:

ألم تر خيله صَبَحَتْ عليًّا تدف على مناسجها النساعا
فولى عن عساكره وخلى على الأسل المدائن والرباعا
ولكن فات فوق أقب نهد كرجع الطرف لا يخشى اصطلاعا
فحسبك أن قومك من جذام وسعد لا ترى لهم اجتماعا
دعتهم طاعة لك فاستجابوا ومن عجبٍ لمثلك أن يُطاعا

وعاد ابن الجروي مرة أخرى سنة عشر ومائتين فملك تنيس ودمياط وهزم جيش ابن السري، ولم تهدأ هذه الفتن حتى دخل عبد الله بن طاهر مصر سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذها من ابن السري، كما خضع له ابن الجروي.

وقامت في مصر فتن أخرى من أجل السلطان بين الأمويين والعباسيين، ويحدثنا ياقوت أنه في أيام المهدي خرج دحية الأموي بمصر ودعا لنفسه واستمر في دعوته إلى أيام الهادي، وكانت الدولة ترسل إليه الجيوش فلم تستطع قهره وكانت نعم أم ولد دحية تقاتل في طليعة الجيش لا سيما في واقعة بويط، وفي هذا قال شاعرهم:

فلا ترجعي يا نعم، عن جيش ظالم يقود جيوش الظالمين ويجنب
وكري بنا طردًا على كل سانح إلينا منايا الكافرين تقرب
كيوم لنا، لا زلت أذكر يومنا بفاو، ويوم في بويط عصبصب
ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه على فئة الفضل بن صالح تنعب[٧]

فهذه أشعار قيلت في حروب بين جيش الثائرين وجيوش الخليفة، ولو لم تحفظ هذه الأشعار ما كنا نعلم شيئًا عن هذه الوقائع فإن كتب التاريخ التي وصلتنا لم تذكر تفاصيل هذه الحروب بل أغفلتها ولكن الشعراء يفخرون دائمًا بما يحرزه أهلهم من نصر فيسجِّلون الوقائع في أشعارهم.

ونلاحظ أن الشاعر استعمل في الأبيات السابقة كلمة أيام التي كان يستعملها العرب منذ الجاهلية.

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحوادث السياسية المصرية، والحروب الداخلية التي كانت في هذا العصر؛ قد أثرت في الأدب أثرًا كبيرًا، فقد اضْطُر الشعراء إلى أن يسجلوا هذه الحروب، وأن يدافعوا عن المتحاربين، ولكن أكثر هذا الشعر فُقِد ولو قُدِّر لهذا الشعر البقاء لكان أصدق مرآة لهذه الحوادث الكثيرة المضطربة، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير، يعطينا صورة مصغرة مشوَّهة لهذه الحوادث.

فتنة العصبية العربية

ولعل أصدق صورة لعصبية القبائل في مصر هي هذه الحادثة التي ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجلى مظاهرها؛ تلك هي حادثة «فرس مراد» المعروفة «بقضية جناح والزعفران» ذلك أن عشيرة «مراد» كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران، فأخرجت الفرس يوم الرهان، كما أخرجت عشيرة «يحصب» فرسًا لهم تسمى الجناح، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق، وجعلوا للسباق غايته، فخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر، فكان السابق فرس مراد في أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية، فخرج كمين من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيَّرت الفرس، فسبقتها الجناح إلى دخول الغاية. ساء مرادًا ذلك واستلُّوا سيوفهم واقتتل الطائفتان قتالًا عنيفًا حتى اضْطُر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم وأحال أمرهم إلى القاضي عبد الرحمن العمري الذي ولي سنة ١٨٥هـ، وقد عُرِف هذا القاضي بحبه للمال وأخذه الرشوة، فأتت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضي، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران، ولكن استمر النزاع حتى ولي القضاء القاضي البكري الذي ولي سنة ١٩٤هـ، فرد الفرس إلى مراد. هذا الحادث يذكرنا بصورة لها في أيام الجاهليين هي قصة داحس والغبراء، وكما كثر شعر الجاهليين في قصتهم أنشد المصريون شعرًا في قصتهم ولا سيما أن القاضي العمري كان مكروهًا من المصريين، ونقم عليه الشعراء فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه، فمن ذلك قول يحيى الخولاني:[٨]

إن كان مَهْر أخي زَوْفٍ أَفاتَ به ... ريبُ الزمان عليه جور زنديق
فكم يد لبني زوف وإخوتهم ... في آل فهر تغص الشيخ بالريق
إنْ حاكمٌ عمريٌّ جار في فرس ... فسوف يُرجعه عدل ابن صَدِّيق

ومن الطبيعي أن نجد شعراء آخرين دافعوا عن القاضي العمري في هذه القضية، فمن ذلك قول عبد الله بن بجيرة من ولد معاوية بن حديج يرد على الشاعر يحيى الخولاني:

طَلَبْتَ فما نلت حسن الطلب ورمت عظيمًا ولما تصب
وعوَّلت موتًا على رميهم بقوس الضلال ونبل الكذب
فإن كان في فرس عُتْبُكم فعندي لكم فرس من قصب
وإلا فمهر كريم النجار قليل العظام كثير العصب

فأجابه يحيى:

ألا أيها الشاعر المنتدب يحامي عن العمري العطب
ورامي مراد وخولانها بنبل من الجهل غير الصيب
لعمرك، ما أنقص العمري من الناس إلا كريم الحسب
ملا الأرض جورًا بأحكامه وأظهر فيها جميع الريب

ومن العصبية القبلية أيضًا فخر الحضارمة إذا ولي أحدهم، ففي سنة تسع وتسعين ومائة ولي القضاء لهيعة بن عيسى الحضرمي، فقال شاعرهم:

لقد ولي القضاء بكل أرضٍ من الغرِّ الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال من الصيد الجحاجحة الضخام[٩]

وقال يزيد بن مقسم الصدفي:

يا حضرموت هنيئًا ما خصصت به من الحكومة بين العُجْم والعرب
في الجاهلية والإسلام يعرفه أهل الرواية والتفتيش والطلب

فتن بين العرب والمصريين

ولون آخر من ألوان العصبية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليهم على غيرهم من الشعوب، حتى على من أسلم من هذه الشعوب، فقد كوَّن العرب في مصر طبقة أرستقراطية — إن صح التعبير — لم تقبل أن يسمو إليها المصريون؛ ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة في العصر العباسي وقام القبط بثورات عنيفة؛ ابتغاء طلب المساواة بالعرب، ولكن هؤلاء استطاعوا أن يخمدوا الثورات المتوالية، ونلمح من الأشعار التي وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يترفَّعون على المصريين، حتى اضطر من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسبًا عربيًّا حتى يتساوى بالعرب، ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم، ولعل قضية أهل الحرس تبين علاقة العرب بالمصريين؛ ذلك أن جماعة من القبط أسلموا وعُرِفوا بأهل الحرس، تحرش العرب بهؤلاء القوم وآذوهم فجمع أهل الحرس من بينهم نقودًا دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسبًا عربيًّا، وخرج بعضهم إلى الرشيد ببغداد يدَّعون له نسبًا، كما أتوا بجمع من أعراب الحوف الشرقي وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال فشهدوا أمام القاضي أن أهل الحرس من العرب وأن نسبتهم إلى بني حوتكة (من قضاعة) فقبل القاضي شهادتهم إلا شهادة حُوَيِّ بن حُوَيِّ بن معاذ العذري، وسجل لهم نسبًا بذلك؛ فثار عرب مصر، وقام الشعراء يهجون القاضي وأهل الحرس، من ذلك قول يحيى الخولاني في هجاء حُوَيٍّ:

يا ليت أم حُوَيٍّ لم تلد ذكرًا ... أو ليت أن حُوَيًّا كان ذا خرس
كسا قضاعة عارًا في شهادته ... لله در حوي شاهد الحرس!
شهادة رجعت لو أنها قبلت ... لألحق الزور منها العير بالفرس

وقول يحيى الخولاني أيضًا:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة ... من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا: أبونا حوتك، وأبوهم ... من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادعوا ... بأنهم منهم سفاهًا وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضيًا ... بهم رغَمًا ما دامت الشمس تغرب[١٠]

وقال مُعلَّى بن المُعلَّى الطائي في هجاء القاضي العمري:

كم كم تُطوِّل في قُرانِك ... والجور يضحك من صلاتك
تقضي نهارك بالهوى ... وتبيت بين مغنِّياتك
فاشرب على صرف الزما ... نِ بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم ... عربًا فزوجهم بناتك
وليكشفن بما أتيـ ... ـت صدور قوم من مساتك
وكأنني بمنية ... تسعى إليك بكف فاتك
أفقرته من ماله ... بقضية أو لم يؤاتك
لا تعجلن أبا الندى ... حتى تصير إلى وفاتك
إن المقامع تطلقن ... من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أكـ ... ـثم ما وصلت إلى صفاتك[11]

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنَّى القاضي بأبي الندى، وهي كنية اللص الذي ظهر سنة إحدى وتسعين ومائة، وثم تراه قد تهكَّم بالقاضي؛ إذ دعاه أن يزوج أهل الحرس من بناته، وهو حكم وضعي سار عليه المسلمون حتى أصبح من الأحكام الفقهية؛ ذلك أن المولى لا يتزوج عربية، وبعد أن عُزِل القاضي العمري أرسل عرب مصر وفدًا إلى الخليفة الأمين فذكروا له ما فعل العمري بأهل الحرس فكتب الأمين إلى القاضي البكري يأمره أن لا يمنح أحدًا من غير العرب اللحاق بالعرب، وأن يردَّ أهل الحرس إلى ما كانوا عليه من أنسابهم، فأمر البكري أهل الحرس بإقامة البيِّنة، وجمع بعض أهل القناعة والعدالة من مصر فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا، فردَّهم القاضي إلى أصلهم ومزق سجلهم، ففرح عرب مصر بذلك، وقال مُعلَّى الطائي:

يا بني البظراء موتوا كمدًا ... واسخنوا عينًا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم ... من بني العباس طرًّا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم ... قبط مصر ومن القبط سفل
كيف يا قبط، تكونوا عربًا ... ومريس أصلكم شر الجيل

وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني:

ولقد قمعت بني الخبائث عندما ... راموا العلا وتَحَوْتَكوا وتعرَّبوا
فرددتهم قبطًا إلى آبائهم ... ونسبت أصلهم الذي قد غيبوا
وتركتهم مثلًا لكل ملصق ... نسبًا إذا التقت المحافل يُضرَب

وقال يحيى الخولاني:

اشكروا الله على إحسانه ... فله الحمد كثيرًا والرغب
رجع القبط إلى أصلهمُ ... بعد خزي طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيًا ... جائرًا قد كان فينا يغتصب
أخذ الأموال منهم خدعة ... وتولى عنهمُ ثم هرب
أبلغ البكري عني أنه ... عادل في الحكم فرَّاج الكرب[١٢]

كانت روح العصبية العربية ظاهرة واضحة أيام الأمويين والعباسيين؛ مما جعل القبط يثورون، وكان أشد هذه الثورات أيام المأمون؛ إذ اضطر الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر، وأن يقمع هذه الفتن بشدة وحزم فلم يقم بعدها للمصريين قائمة، ثم إن العرب وجدوا أنفسهم في عهد المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا؛ فخمدت روح العصبية وصار العرب كالمصريين سواء بسواء، وبالرغم من أن بعض العلماء عطفوا على من أسلم من المصريين وعاملوهم كالعرب فولَّوا بعضهم الأعمال الهامة في الدولة، ولكن هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا، من ذلك ما رُوي أن بعض من أسلم من القبط وجد عطفًا من القاضي لهيعة بن عيسى، الذي ولي قضاء مصر مرتين في عهد المأمون، فقد فسَّح هذا القاضي مجلسه للمصريين، وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم في أعمال الدولة، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد — وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبو إليه الفقهاء — كما اتخذ شهودًا جعلهم بطانته، منهم معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو ثلاثين رجلًا، فتقوَّل العرب في القاضي مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته، وقد ظهر أقوال المصريين في أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم:

قبح الله زمانًا ... راس فيه ابن تليد

بعد مقراض وخيط وأُبَـيْـرات حـديـد
وأبـو الـزنـبـاع خـنـا ق غـرامـيـل الـعـبـيـد
بـعـد سـيـف خـشـبـي وسـهـام مـن حـديـد
وابـن تـدراق الأفـانـيـ ـن البليد بن البليد
وابـن بـكـار كـراكـيـ ـر وغـطـاس الـثـريـد
وأبو الروس المريسي ابـن دبـاغ الـجـلـود
واللـقـيـط ابـن بـكـير نـطـفـة الـفـدم الـطـريـد
وابن سهم حارس الجيـ ـزة حـلـوان الـبـريـد
عصبة من طينة النيـ ـل ميـامـيـن الـخـدود
لـبـسـوا بـعـد الـتـبـابـيـ ـن نـفـيـسـات الـبـرود
لازمـوا الـمـسـجـد ضـلًّا لا مـن الأمـر الـرشـيـد
لـحـوانـيـت بـنـوهـا بـفـنـا كـل عـمـود
وتـسـمـوا وتـكـنـوا بـعـد جـرح وشـنـود
وألاحـوا بـجـبـاه من نطاح الحصر سود
تـحـت أمـيـال طـوال كـبـراطـيـل الـيـهـود
نـصـبـوهـا كـالـمـقـاعـيـ ـد على روس القرود
وتـراهـم لـلـوصـايـا وعـدالات الـشـهـود
فـي مـراء وجـدال وقـيـام وقـعـود
وخـشـوع وابـتـهـال وركـوع وسـجـود
على القسمة أضرى من تماسيح الصعيد
وأشـاروا لـلـهـدايـا بـأبـي عـبـد الـحـمـيـد[١٣]

ومن ذلك أيضًا ما روي في قضية «ابن القطاس»، فقد كان سعيد بن زياد الملقَّب بابن القطاس ممن عُرِف بين المصريين بالعلم والفضل وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال لهيعة بن عيسى وابن المنكدر وغيرهما شهادته، كما كان أحد الذين يتولون التدريس في المسجد، فلما ولي محمد بن أبي الليث قضاء مصر رماه ابن القطاس بالبدعة، ودعا عليه، فنُقِل ذلك إلى القاضي، وأتى إلى القاضي من ذكر له أن ابن القطاس

مولًى لم يجر عليه عتق، وشهد آخرون بأنه مولى رجل من الأزد يُقال له ابن الأبرش، وادَّعى ابن الأبرش رقبته، فأمر القاضي بحبس ابن القطاس خمسة أيام ونُودِي عليه في سوق الرقيق فاشتراه القاضي بدينار وأعتقه، وفي ذلك قال الجمل في مدح القاضي:

وبطشت بالقطوس بطشة قائم	بالحق غير مقصر ومبذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده	في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رقة ومنعته	وطأ الحرائر وهو غير محرر
هذا النداء، وهذه هاد لهم	إن جاء فيه بغير فلس أقشر
يفتي وينظر في المكاتب دائبًا	والعبد غير مكاتب ومدبر[١٤]

ومما لا شك فيه أن المصريين أنشدوا شعرًا كثيرًا جدًّا في علاقة عرب مصر بالمصريين، ولكن هذا الشعر فُقِد ولم يبق منه إلا قدر يسير قد ذكرنا أكثره.

(٢) أثر محنة خلق القرآن

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية الأخرى، فقد روى الكندي أن المأمون طلب إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله كيدر نائبه على مصر أن يمتحن القضاة والشهود، فمن أقرَّ منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلًا قُبِلت شهادته وأقر بموضعه، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هرون بن عبد الله، فامْتُحن وأقر بأن القرآن مخلوق، وتبعه عامة الشهود وبعض الفقهاء وهرب منهم من لم يوافق، وورد كتاب المعتصم على القاضي هرون بحمل الفقهاء في المحنة، فاستعفى هرون من ذلك، فكتب ابن أبي دؤاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في المحنة، وذلك قبل ولايته القضاء، فحمل البويطي وخشنام المحدث في جمع كثير غيرهما، ولما ولي الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين أمر أن يأخذ الناس بالمحنة وورد كتابه علي ابن أبي الليث الذي ولي القضاء سنة ست وعشرين ومائتين، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالمحنة وهرب كثير من الناس ومُلِئت السجون بمن أنكر المحنة، كان «مطر» غلام ابن أبي الليث يأخذ قلانس العلماء أمثال هرون بن سعيد الأيلي ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعمائمهم، وفي هذا كله أنشد شعراء مصر، فمن ذلك

ما قاله الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر، وكان منقطعًا إلى مدح القاضي ابن أبي الليث في ذلك العصر:

فحميت قول أبي حنيفة بالهدى ومحمد واليوسفي الأذكر
وفتى أبي ليلى وقول فريقهم زفر القياس أخي الحجاج الأنظر
وحطمت قول الشافعي وصحبه ومقالة ابن علية لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع أخملتها فكأنها لم تذكر
أعطتك ألسنة أتتك ضميرها وأتتك ألسنة بما لم تذكر
فأطفت بالأيلي[١٥] ينعق صائحًا في كل مجمع مشهد أو محضر
ومحمد الحكمي[١٦] أنت أطفته وأخوه ينعق بالصياح الأجهر
كل ينادي بالقران وخلقه فشهرتهم بمقالة لم تشهر
لم ترض أن نطقت بها أفواههم حتى المساجد خلقه لم تنكر[١٧]
لما أريتهم الردى متصورًا زعموا بأن الله غير مصور[١٨]

وكان أحمد بن صالح قد هرب إلى اليمن في هذه المحنة، ولزم يوسف بن أبي طيبة منزله ولم يظهر، وحاول محمد بن سالم القطان الهرب ولكن ظفر به فحُمِل إلى العراق، وهرب ذو النون المصري ثم رأى أن يرجع فأقر بالمحنة، وإلى هذا كله أشار الجمل بقوله:

أحجرت يوسف في خزانة بيته فطوته عنك وطالما لم يحجر
كفرت بك الأرضون حين سألتها خبر ابن صالح الخبيث الأكفر
جحدته أقطار البلاد فما على حركاته وسكونه من مظهر
وثوى ابن سالم خفية في بيته ثم امتطى غلس الظلام الأستر
فأتى به كعريج أو كأبي الندى والناس بين مهلل ومكبر[١٩]

وأخذ القاضي في اضطهاد الفقهاء؛ من ذلك أن الفقهاء وشيوخ مصر إذ ذاك كانوا يرتدون القلانس الطوال ويبالغون فيها، فأمرهم ابن أبي الليث بتركها، ومنعهم من لباسها وأمرهم أن يتشبهوا بزي القاضي فلم يأبهوا بأمره، فانتظر حتى أتى إليه عدد منهم وهو في مجلس حكمه فأمر غلاميه عبد الغني ومطرًا أن يضربا رءوس الشيوخ

حتى ألقوا قلانسهم على الأرض، وأخذها الصبيان والرعاع يلعبون بها، وفي ذلك قال الجمل:

وأخفت أيام الطوال وأهلها	فرموا بكل طويلة لم تقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم	والمشي نحوك بالرءوس الحسر
حتى تركتهم يرون لباسهم	بعد الجمال خطية لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة	يجدونها من أعين ومخبر
فإذا خلا بهم المكان مشوا بها	وتأبطوها في المكان الأعمر
فلئن ذعرت طوالهم فلطالما	ذعرت، ومن مروا بها لم يذعر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة	ولقوا القضاة بمشية وتبختر
مالي أراهم مطرقين كأنما	دمغت رءوسهم بحمَّى خيبر[٢٠]

هذا بعض ما وصلنا عن محنه الفقهاء في مصر، ومن يدري لعل المصريين أنشدوا في ذلك شعرًا كثيرًا يخالفون به المعتزلة لا سيما في مسألة خلق القرآن؛ إذ كان للمعتزلة في مصر حلقة زعيمها ابن صبيح،[٢١] كانت تدافع عن خلق القرآن، ولكن يُخيَّل إليَّ أن مذهب المعتزلة لم يجد مكانًا في نفوس المصريين حتى إن سيبويه المصري كان يقف في جمع كثير، وفي الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسي المتكلم وأحد شيوخ المعتزلة بمصر، فكان سيبويه يصيح ويقول: الدار دار كفر، حسبكم أنه ما بقي في هذا البلد العظيم أحد يقول: القرآن مخلوق، إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران، فقام أبو عمران يعدو حافيًا خوفًا على نفسه حتى لحقه رجل بنعله.[٢٢]

(٣) بعض أغراض الشعر

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصري في هذا العصر بل نجد بجانب ذلك شعرًا قيل في المدح والهجاء والرثاء؛ أي في الأغراض التي لا تتصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض في الشعر المصري، فكل الشعر العربي في جميع عصوره لم يخل منها، ففي الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن مدحهم كان أقرب إلى الواقع، وأبعد عن المبالغة، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء واضطر الشعراء إلى التزلف والتملق حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء، وفي الشعر المصري نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهليين في صدق مدحهم ولا

يسرفون في وصف الممدوح بما ليس فيه، فشِعْر سعيد بن عفير كان قريب الشبه من شعر زهير بن أبي سلمى الجاهلي كلاهما لم يمدح بقصد النوال، وكلاهما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أي شيء آخر ولا لشيء، ففي مدح سعيد لهبيرة بن هشام الذي عُذِّب وكاد يقتل لأنه أجار إبراهيم الطائي الثائر على الوالي المطلب الخزاعي، ولم يقبل هبيرة أن يسلِّم إبراهيم للوالي، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأل بن عاديا في الوفاء، ومدحه بجلده على تحمل العذاب في سبيل ذلك الوفاء:

لعمري لقد أوفى، وفاقَ وفاؤه ... هبيرة في الطائي وفاء السموأل
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه ... وقد برقت في عارض متهلل
فما انفك محبوسًا ومُطَّلب له ... عليه قصيف بالوعيد المهوِّل
فما زاده الإبعاد إلا توقرًا ... وصبرًا ولم يخشع ولم يتفكَّل
إلى أن تجلت عنه أبيض ماجد ... كريم الثنا في المشهد المتدخل[٢٣]

فسعيد هنا يمدح رجلًا كريمًا وفيًّا، ليس له سلطان ولا إمرة، ولم يطمع فيما كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين، ونجد من ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسَّب بشعره كالشاعر المُعلَّى الطائي الذي اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم، بل كان لا يتحرج من أن يمدح أحدهم ثم يمدح عدوَّه إذا صار الأمر بيد ذلك العدو، من ذلك ما قيل: إنه اتصل بالسري وابنه ومدحهما، وكانا ثائرين على الولاة، ثم وقف بين يدي عبد الله بن طاهر تحت المنبر وقال له: أصلح الله الأمير، أنا المُعلَّى الطائي، وقد بلغ مني من جفاء وغلظ فلا يغلظن عليَّ قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول:

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرة ... وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجري ماؤه ذهبًا ... لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلي بما فيه رق الحمد تملكه ... وليس شيء أعاض الحمد بالغالي
تفك باليسر كف العسر في زمن ... إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط ... ومرهف قاتل في رأس قتال
وما بثثتَ رعيل الخيل في بلد ... إلا عصفن بأرزاق وآجال
إن كنتُ منك على بال مننتَ به ... فإن شكرك من قلبي على بالي[٢٤]

فسُرَّ الوالي وأجزل عطاءه، فالشاعر مدحه لجوده وطمعه في صلاته، ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكسُّبًا بالشعر هو الحسين بن عبد السلام الشهير «بالجمل الأكبر» إذ اتصل بالقاضي محمد بن أبي الليث ومدحه، ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على القاضي لسوء معاملته — وقدَّمنا مثلًا من ذلك كله في حديثنا عن محنة خلق القرآن — ثم نراه يتصل بأحمد بن المدبر والي خراج مصر، ويطلب منه العطاء كما كان يفعل مروان بن أبي حفصة مع معن بن زائدة الشيباني، فقد قيل: إن ابن المدبر كان من عادته أنه إذا مدحه شاعر ولم يرض بشعره، أمر من يحمله إلى المسجد ويأمره أن يصلي عددًا معلومًا يفرضه عليه، فعرف الشعراء ذلك فدخل عليه الجمل الأكبر وأنشده:

قصدنا في أبي حسن مديحًا ... كما بالمدح تنتجع الولاة
فقلنا: أكرم الثقلين طرًّا ... ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا: يقبل المدحات لكن ... جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم: وما تغني صلاتي ... عيالي، إنما تغني الزكاة
فأما إذ أبى إلا صلاتي ... وعاقتني الهموم الشاغلات
فيأمر لي بكسر الصاد منها ... فتصبح لي الصلاة هي الصلات
فيصلح لي على هذا حياتي ... ويصلح لي على هذا الممات[٢٥]

وظل هذا الشاعر يتكسب بالمدح حتى ولي أحمد بن طولون فآثره بمدحه وأخذ عطاءه، فاعتبره كثير من المؤرخين شاعر ابن طولون، ولكن المنية عاجلت الشاعر في أوائل حكم الطولونيين؛ أي في سنة ثمانٍ وخمسين ومائتين.

لا نكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذي بقي لنا من هذا العصر معاني جديدة في المدح، بل اتخذ شعراء مصر نفس المعاني التي اتخذها غيرهم من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة، ولا نكاد نجد إلا أثرًا قليلًا لمصر في هذا الشعر الذي رأيناه في شعر المُعلَّى من ذكر النيل، ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثَّرت أيضًا في شعر الشعراء كالذي نراه في الأبيات التي رويناها للجمل في مدح ابن المدبر.

كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء نقد، رأينا كيف كان الشعراء يهجون الولاء والقضاة في مصر، ويحصون مساوئهم، وأكثر شعراء هذا العصر هجاءً هو الشاعر يحيى الخولاني الذي وقف بالمرصاد للقاضي العمري فرماه بالرشوة، وكنَّاه أبا الندى،

وهي كنية مصرية خالصة لم يعرفها شعراء العرب، ولم يذكرها إلا المصريون، وهجاه أيضًا بأنه كان يحب سماع الغناء وفي ذلك يقول الشاعر يحيى:

مر بنا راكب على فرس ... يا من رأى هربذا[٢٦] على فرس
فقلت: من ذا اللعين؟ قيل أبو النـ ... ـدا غدا مسرعًا إلى عرس
كيما يرى قينة ذكرت بها ... تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح في المخزيات منغمسا ... وليس في غيرها بمنغمس[٢٧]

كذلك الشاعر يحيى بن الفضيل الذي هجا الوالي عنبسة بن إسحاق الضبي، ورماه بدين الخوارج وبالجنون؛ لأن الوالي كان يذهب إلى المسجد وهو ينادي في شهر رمضان بالسحور، فلم يعجب الشاعر ذلك وأرسل إلى الخليفة يقول:

من فتى يبلغ الإمام كتابًا ... عربيًّا ويقتضيه الجوابا
بئس والله ما صنعْتَ إلينا ... حين وليتنا أميرًا مصابا
خارجيًّا يدين بالسيف فينا ... ويرى قتلنا جميعًا صوابا
مر يمشي إلى الصلاة نهارًا ... وينادي السحور ضل وخابا[٢٨]

والشاعر إسحاق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضي المفضل بن فضالة فقال:

خف الله وارقد واتئد يا مفضل ... فإنك عن فصل القضاء ستسأل
وإنك موقوف به ومحاسب ... فدونك، فانظر كيف في الحكم تفعل
أفي العدل أن أُقصَى وأخرج متبعًا ... وتدني بفضل منك خصمي وتدخل
ويُفتَح إن يدنو له الباب جهرة ... ويغلق دوني إن دنوت ويقفل
وتقبل منه في مغيبي شهوده ... وبيِّنتي ليست إذا غاب تقبل
فها أنذا أصبحت خصمك في الذي ... قضيت به، والحق ما ليس يجهل
فأصغ إليَّ السمع منك وأنبني ... بأي وجوه الفقه أصبحت تعمل[٢٩]

وقول سعيد بن عفير في هجاء الوالي الحسين بن جميل سنة تسعين ومائة:

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما	أمسى بمصر من الأنذال في الأمر
أما الأمير فحنَّاج وصاحبه	على الخراج سوادِي من الأكر
هذا الهنائي[٣٠] من الفسطاط يخلفه	والباهلي[٣١] على أعماله الأخر
كل لصاحبه شكل يلائمه	فهم سواسية في اللؤم كالحمر
وما هناءة إلا ظلف ذي يمن	والباهليون مأوى اللؤم من مضر
فما يسوغ لنا عيش فينفعنا	معْ ما نرى لهم من رقة الخطر[٣٢]

ولم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذي نراه بين شعراء الأقطار الإسلامية الأخرى، والهجاء الذي وصلنا يكاد يكون ذمًّا للمهجوِّ دون تعريض بأسرته، فلم يسرفوا في الهجاء كما لم يسرفوا في المدح.

أما الرثاء، فالمعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف في البكاء والنحيب والعويل حزنًا لوفاة قريب أو صديق، وشعراء العرب كانوا يسرفون في الرثاء ويبكون، ولكن ما وصلنا من الشعر المصري في الرثاء يختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء العرب، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت، وكيف لاقى الموت بشجاعة وجلد، ويتلقى الشاعر نعي الميت بصبر، عالمًا أن هذا مصير كل حي، كقول الشاعر سعيد بن عفير:

ساقت عمير إلى مصر منيته	بإمرة لم يكن فيها بمسعود
حتى أتته المنايا وهو ملتحف	ثوبين من حبرات البأس والجود
فاذهب حميدًا، فلا تبعد، فكل فتى	يومًا، وإن كرمت أفعاله، يودي[٣٣]

وقول سعيد أيضًا في رثاء هبيرة بن هشام بن حديج الذي قُتل في حروبه مع السري سنة مائتين:

لَعَمْري لقد لاقى هُبَيْرَةُ حَتْفَهُ	بأفْضَل ما تُلْقى الحتوف السوارعُ
بأنْفٍ حَمِيٍّ لَمْ تخالِطهُ ذِلَّة	وعِرضٍ نقيٍّ لم تَشِنْهُ المطامع
عَشيَّةَ يَسْتكْفيه مُطَّلِبُ الذي	به ضاق ذرْعًا والمنايا كوارع

فما انفك يحميه ويجعل نفسه ... له جُنَّةً حتى احتوته المصارع
فلاقى المنايا فوق أَجْرَدَ سابحٍ ... وفي الكف مأثورٌ من الهند قاطع
فبينا يخوض الهوْل من غمراته ... وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تقطَّر في أَهْوِيَّةٍ عن جواده ... فصادفه حَيْنٌ من الموت واقع
فلم أر مقتولًا أجل مصابه ... على من يعادي والذين يجامع
من ابن حديج يوم أُغْلِن نعيه ... وقام به في الناس راءٍ وسامع[٣٤]

وقد حُفِظَت قصيدة في الرثاء تكاد تكون كاملة أنشدها الشاعر المُعلَّى الطائي يرثي جارية له، قيل إنه كان يحبها لأدبها وعلمها، وكانت شاعرة، وقيل أيضًا: إن المُعلَّى باعها بأربعة آلاف دينار، فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا مُعلَّى؟ قال: نعم. قالت: والله، لو ملكتُ منكَ مثل ما تملكُ مني ما بعتُك بالدنيا وما فيها. فاضْطُر المُعلَّى إلى أن يرد الدنانير وأن يستقيل صاحبه ويعتذر إلى صاحبته،[٣٥] وتُوفِّيت هذه الجارية بعد ثمانية أيام من هذا الحادث؛ فرثاها المُعلَّى بقصيدة أرى أنها من آيات الشعر؛ لجمال معناها، وسموِّ عاطفتها، ورشاقة لفظها.

أخذ الشاعر يناجي الموت ويعاتبه كأنه شخص ماثل أمام عينيه، ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخصٍ يعرفه، فهو يلوم الموت؛ لأنه اقتنص جاريته التي عبَّر عنها بشق نفسه، فهو لا يستطيع أن يهنأ بالنصف فقط، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافًا أملاه عليه حزنه لفقدها وحبه لها، فقال إن الموت لم يرحم شبابها، ثم يأخذ في وصف عظامها اللينة، وشعرها وعينيها ومِشيتها، ويترحم على ذلك كله وأخيرًا يعاتب الموت أخرى؛ لأنه ترك حبيبته في قبرٍ تلعب الريح بترابه، وتمتد إليه يد البلى، وأن أحدًا لا يستطيع زيارة هذا القبر؛ لأن في زيارته الهلاك ثم يناشد القبر أن يُبْقِي على محاسنها، ويحفظ برَّها وظرفها. فالشاعر في هذه القصيدة حزين حقًّا، متألم أشد الألم لفراق جاريته، ولكنه حِزْن هادئ — إن صحَّ هذا التعبير — لم يرسل الدمع، ولم ينتحب، وهو في هذا الحزن يَذْكُر أنه سيلتقي بها يوم القيامة:

يا موت، كيف سلبتني «وصفا» ... قدَّمتها وتركتني خلفا
هلَّا ذهبت بنا معًا، فلقد ... ظَفِرتْ يداك فسمتني خسفا[٣٦]
وأخذت شقَّ النفس من بدني ... فقبرته وتركت لي النصفا

فعليك بالباقي بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى[٣٧]
يا موت، ما أبقيت لي أحدًا ... لما رفعت إلي البلى «وصفا»
هلا رحمت شباب غانية ... ريَّا العظام وشعرها الوَحْفا[٣٨]
ورحمت عيني ظبية جعلت ... بين الرياض تناظر الخشْفا[٣٩]
تقضي إذا انتصفت مرايضة ... وتظل ترعاه إذا أغفى
فإذا مشى اختلفت قوائمه ... وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيرًا في المشي مرتعشًا ... يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنه «وصف» إذا جعلت ... نحوي تحير[٤٠] محاجرًا[٤١] وطفا[٤٢]
يا موت، أنت كذا لكل أخ ... إلف يصون ببره الإلفا
خليتني فردًا وبِنْت بها ... ما كنت قبلك حاملًا وكفا[٤٣]
فتركتها بالرغم في جَدث ... للريح ينسف تربه نسْفا
دون المقطم لا يُلبِّسُها ... من زينة قلبًا ولا شنْفا
أسكنتها في قعر مظلمة ... بيتًا يصافح تربه السقفا
بيتًا إذا ما زاره أحدٌ ... عصفت به أيدي البلى عصفا
لا نلتقي أبدًا معاينة ... حتى نقوم لربنا صفا
لبست ثياب الحتف جارية ... قد كنت ألبس دونها الحتْفا
فكأنها والنفس زاهقة ... غصن من الريحان قد جفا
يا قبر، أبق على محاسنها ... فلقد حويت البر والظرفا[٤٤]

فأنت ترى الشاعر عميقًا في حزنه، مستسلمًا لما رُزِئ به، ولكنه لم يذكر بكاءه كغيره من الشعراء؛ إذ لا نكاد نجد قصيدة في الرثاء بدون دمع منهمر، فالبكاء عند الشعراء مظهر من مظاهر الحزن، وهو أيضًا يدل على بساطة في الحياة وسذاجة في الشعور؛ فكما أن الطفل الصغير يبكي إذا تألم، والمرأة تبكي إذا أغضبها شيء، كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا، ولا أدري لمَ لم يتبع شعراء مصر في هذا العصر سنة شعراء العرب أو طريقة المصريين في المآتم، ومن يدري لعل للمصريين في الرثاء أشعارًا كثيرة فيها هذا اللون من البكاء والنحيب ولكن الشعر فُقِد.

أما حياة اللهو والمجون ومجالس الخمر والغزل فلا أكاد أجد لها ذكرًا فيما وصَلَنا من الشعر في هذا العصر، ولا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد في مصر شعراء لهَوْا كما لها غيرهم، وتغزَّلوا كما تغزَّل غيرهم، وحياة مصر وأعيادها كانت تدعو إلى أن يتحدث

عنها الشعراء، ويكفي أن أنقل شيئًا مما ذكره المقريزي عن أعياد المصريين، فقد قال في حديثه عن عيد الشهيد: «ومما كان يُعمَل بمصر عيد الشهيد، وكان من أنزه أفراح مصر وهو الثامن من بشنس ويكون لذلك اليوم عيد ترحل إليه النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل، ويلعبون عليها، ويخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغنٍّ ولا مغنية، ولا صاحب لهو، ولا رب ملعوب، ولا بغي، ولا مخنث، ولا ماجن، ولا خليع، ولا فاتك، ولا فاسق؛ إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم، وتُصرَف أموال لا تنحصر، ويتجاهر هناك بما لا يُحتَمل من المعاصي والفسوق، وتثور فتن، وتُقتَل أناس، ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم، وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائمًا بناحية شبرا.[٤٥]

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر بإبطاله الأمير بيبرس سنة ٧٠٢هـ، ومن هذه الأعياد أيضًا عيد الغطاس وفيه يشارك المسلمون النصارى، وفي هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورًا،[٤٦] وقد شاهد المسعودي الغطاس سنة ثلاثين وثلاثمائة هجرية ووصفها، ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلاثمائة من إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس، ثم سمح لهم سنة ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة، وكذلك عيد الصليب، وفيه كان المصريون يخرجون إلى خارج الفسطاط، ويتظاهرون بالمنكرات والمحرمات وقد أُبْطِل هذا العيد سنة اثنتين وأربعمائة أيام الحاكم الفاطمي.[٤٧]

من الطبيعي أنه كان بين الشعراء في هذا العصر من شارك الناس في لهوهم وعبثهم، وأنشد شعرًا في هذه الحياة الصاخبة الماجنة، ولكن هذا الشعر فُقد ولم يبق منه ما يدل عليه، فلم يروه الرواة، ولم يدونه المؤرخون، ولا أستطيع أن أعلل ذلك، وكذلك لم يصلنا شعر في وصف الخمر مع أن الكندي يحدثنا أن العلويين خرجوا بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم، فأرسل الوالي إلى أصحابه، فجعلوا يأتونه سكارى، فقال لهم: إن نضوحكم الليلة لكثير،[٤٨] وخشي الوالي علي بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين؛ فأمر بمنع الملاهي والخمور في أيامه،[٤٩] ومع ذلك كله لم يصلنا شعر في مجالس الخمر ولا في وصفها. وكان بمصر قيان ومغنون شأنها في ذلك شأن كل الأقطار الإسلامية، ويحدثنا الكندي أن القاضي العمري كان يشدو بأطراف الغناء على مغاني أهل المدينة، ويبرز

كثيرًا في مجالسه، ولا يتحاشى أن يقول: هذا غنَّى به ابن سريح، وهذا به الدلال، وهذا من جيد غناء الغريض، ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها، وسمع غناءها، وربما قوَّم ما انكسر من غنائها، ويرى ذلك من الدين.[٥٠] وقد هجاه خصومه بذلك فقال يحيى الخولاني:

ألا قم فاندب العربا وَبكِّ الدين والحسبا
ولا تنفك تبكي العد ل لمَّا بان فاغتربا
لقد أحدثت — قاضي السو ء — في فسطاطنا عجبا
يظل نهاره يقضي بغير العدل منتصبا
ويسهر ليله لسما عه القينات والطربا
ويشربها معتقة عقارًا تشبه الذهبا
ويعجبه سماع العو د والمزمار، يا عجبا!
فيا للناس من قاضٍ يحب اللهو واللعبا[٥١]

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضي كَلَفه بالغناء وإعجابه بسماع العود والمزمار، وشرب الخمر، في حين أن خلفاء العباسيين في بغداد كانوا يلهون ويمجنون، ويظهرون اللهو والمجون ويشاركهم في هذه الحياة الشعراء والندماء.

(٤) الشعراء الوافدون

لم ينقطع في هذا العصر أيضًا وفود الشعراء على مصر لمدح الولاة والأمراء، بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر، كالوالي الفضل بن صالح المُتوفَّى سنة ١٧٢هـ، فقد كان شاعرًا فصيحًا أديبًا، ومن شعره:

عاش الهوى واستشهد الصبر وعاش في الحزن والضر
وسهل التوديع يوم نوى ما كان قد وعره الهجر[٥٢]

والوالي عبد الله بن طاهر الذي ولي مصر سنة إحدى عشرة ومائتين كان بارع الأدب حسن الشعر،[٥٣] ومن شعره ما أرسله للخليفة المأمون وقد أمره بالزيادة في الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر:

أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماه
فما أحببت من شيء فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أهواه
لك الله على ذاك لك الله، لك الله[٥٤]

وكان الوالي يزيد بن حاتم الذي ولي مصر سنة أربع وأربعين ومائة مَقْصَدًا للناس لكرمه، محبًّا للشعر وأهله،[٥٥] قصده كثير من الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقي، قيل إنه مدح يزيد، فتشاغل هذا عنه ببعض الأمور، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر، وقال:

أراني — ولا كفران لله — راجعًا بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ هذا القول يزيد، فأرسل في استدعاء الشاعر ورده إلى مصر، فلما دخل عليه قال له: أأنت القائل: «أراني، ولا كفران؟» قال: نعم. قال: هل قلت غير هذا؟ قال: لا. قال: والله، لترجعن بخفي حنين مملوءة مالًا. فأمر بخلع خفيه، وأن تملأ له مالًا، ثم قال له: أصلح ما أفسدت من قولك. فمما قاله الشاعر في مدح يزيد لَمَّا عُزِل عن مصر:

بكى أهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا عنها الأغر ابن حاتم[٥٦]

ويذكر السمعاني أن المسهر التميمي الشاعر وفد أيضًا على ابن حاتم ومدحه وأجزل الأمير عطاءه، كما قصده الشاعر محمد بن عبد الله بن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها:

وإذا تباع كريمة أو تُشترى فسواك بائعها وأنت المشتري[٥٧]

ومن قوله أيضًا في مدح يزيد:

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ويحدثنا الطبري أن البطين الحمصي الشاعر وفد على مصر بصحبة الوالي عبد الله بن ظاهر.[٥٨]

أبو نواس في مصر

وفي هذا العصر وفد أبو نواس على مصر، ولمكانة أبي نواس في الشعر، ولكثرة ما حُفِظ لنا من شعره في مصر رأينا أن نطيل بعض الشيء في حديثنا عن وفوده على مصر.

حدثنا جامع أخبار أبي نواس:[٥٩] أن الشاعر خرج إلى مصر متنكرًا في زي الشطار مع سليمان بن أبي سهل، فلما دخل على الخصيب ازْدَراه واستخفَّ به، ثم أرسل أبو نواس كتبًا إلى الخصيب فلم يستنشده، فكان ينصرف مهمومًا، وعلم المصريون بوجود أبي نواس بينهم، فهرعوا إليه واستمعوا إلى شعره وكتبوه، فأنشد بعضهم هذا الشعر إلى الخصيب فاستحضره وأنشده قصيدته التي مطلعها:

أجارة بيتِنا أبوك غيور ومِيسور ما يرجى لديك عسير

ونحن لا نستطيع أن نقبل هذه الرواية؛ إذ كيف يرفض أمير أن يستمع لأبي نواس مع مكانته في عالم الشعر إذ ذاك؟! ففي الوقت الذي كان ينشد فيه أبو نواس الخليفة في بغداد، وينادم ولي العهد؛ يرفض أمير مصر أن يستمع إليه؟ وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب أخبار أبي نواس أيضًا تحدثنا أن الخصيب هو الذي استزار أبا نواس فشخص هذا إليه، وبينما هو في طريقه صادف قومًا من أهل الأدب لهم شرف وهيبة، فآنسهم ومضوا جميعًا حتى دخلوا معه مصر، فسار أبو نواس إلى الخصيب الذي أحسن مقابلته وسأله عن خبره في رحلته واستنشده. هذه الرواية تناقض السابقة، وهي أقرب إلى الصواب؛ لأن أبا نواس كان معروفًا في ذلك العصر في كل البلاد الإسلامية وينشد شعره الأدباء بل نرى بعضهم قد تتبع أخبار أبي نواس كالذي قيل: إن النضر بن أمية الحمصي الشاعر قال: لما خرج أبو نواس من بغداد إلى مصر، كتب الناس ببغداد إلى

أهل الشام بذلك، فلم يزل القوم في الشام يرقبون قدومه حتى قدم. ويحدثنا السيوطي أن أهل الأدب بمصر لما عرفوا قدوم أبي نواس هرعوا إليه واستنشدوه، فكان يجلس في المسجد الجامع والناس حوله ينشدهم أشعاره، وهم يكتبون.[٦٠] فهذا يدلنا على أن أبا نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند المصريين وغير المصريين؛ ولذلك فإني أرجح هذه الرواية الأخيرة.

أما الخصيب الذي استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئًا ولم يذكره المؤرخون بين ولاة مصر وأمرائها، ولكن جامع ديوان أبي نواس قال: هو الخصيب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي، أمير مصر، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء، وكان رئيسًا في أرضه، فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي، ثم انتقل إلى الإمارة.[٦١] وفي حديث المقريزي عن المدن قال: منية الخصيب، هذه المدينة تُنسَب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر،[٦٢] ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصيب أيضًا بين ولاة خراج مصر، وإذا أمعنا في دراسة ولاة مصر وأمرائها في عصر الرشيد، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج في سنة ١٨٠هـ وسنة ١٨٣هـ وسنة ١٨٩هـ؛ أي إن الخصيب كان أميرًا على خراج مصر في إحدى هذه السنين، والذي أرجحه أنه كان في سنة ١٨٩هـ؛ إذ هي السنة التي وُلِّي فيها عبد الله بن محمد على مصر، وفي سنة ١٩٠هـ جعل على الشرطة أحمد بن حوي، وعلى الصلاة هاشم بن حديج، وقد ورد ذكر هذين الأميرين في شعر أبي نواس، وإذن فقد كان أبو نواس في مصر سنة ١٩٠هـ.

تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس في مصر هي قصيدته الرائية:

أجارة بيتنا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

وفيها يقول:

تقول التي عن بيتها خف مركبي: ... عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ... بلى ... إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها، واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير[٦٣]

وهو في هذه القصيدة يصف رحلته من العراق، ويذكر المدن التي مرَّ بها، ثم يحدثنا عن طمعه في نوال الخصيب، بل هو في كل شعره الذي أنشده في مدح الخصيب كان يتحدث دائمًا عن أمله في العطاء الجزيل، ويمني نفسه بالمال الكثير:

يا ابنتي، أبشري بميرة مصر وتمني وأسرفي في الأماني
أنا في ذمة الخصيب مقيم حيث لا تعتدي صروف الزمان
قد علقنا من الخصيب حبالًا آمنتنا طوارق الحدثان[٦٤]

وقوله أيضًا:

وإني جدير إذ بلغتك بالمني وأنت بما أملت منك جدير

وفي قصيدة أخرى قال:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أملي شيئًا فما لكما به عذر
ويحق لي إذ صرت بينكما ألا يحل بساحتي فقر
النيل ينعش ماؤه مصرًا ونداك ينعش أهله الغمر[٦٥]

فلولا هذا الطمع في المال ما أتى أبو نواس من بغداد إلى مصر، وقد ولد الأمل في نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء، فإذا الشاعر صادق في مدحه للخصيب مغتبط بحضوره إلى مصر، عظيم الأمل في الثروة، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه، حتى قال ابن منظور: إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار، وأعطاه مثلها ثاني يوم، وأعطاه أخرى ثالث يوم، وقرَّبه الخصيب إليه ونادمه.

وهذا المدح الذي أنشده أبو نواس للخصيب يشبه مدح المتنبي لكافور الإخشيدي، فكلاهما وفد على مصر بسبب النوال والغنى، وإن كان المتنبي قد طمع أكثر مما طمع فيه أبو نواس، وكانت نهاية أيام الشاعرين في مصر تكاد تكون واحدة، إذا اضْطُر أبو نواس أخيرًا إلى أن يهجو الخصيب، وأن يرميه بالبخل، وقيل إن سبب هذا الهجاء هو

أن أبا نواس كان يكره شراب مصر، وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يُحمَل إليه؛ فغضب أبو نواس وهجاه بقوله:

يخص خصيب بالشراب ويرتجى لديه نوالًا إن ذا لعجيب
وليس خصيب بالخَصِيب لضيفه ولكنه وعر المحل جديب
فمن كان ذا أهلٍ بمصر وثروة فإني بها صفر اليدين غريب

وهجاه مرة أخرى بقوله:

نفس الخصيب جميعه كذب وحديثه لجليسه كرب
تبكي الثياب عليه معولة أن قد يجر ذيولها كلب

وقال مرة أخرى:

خبز الخصيب معلق بالكوكب يُحمى بكل مثقف ومسطب
جعل الطعام على بنيه مُحرَّمًا قوتًا، وحلله لمن لم يسغب
فإذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصيام إلى أذان المغرب[٦٦]

وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الخصيب إلى هجائه، ويغلب على ظني أن الخصيب لم يف بوعده لأبي نواس، أو أن أبا نواس كان يطمع في أضعاف ما ناله من الخصيب، كما كان الحال يبن كافور والمتنبي بعد ذلك بقرن ونصف تقريبًا.

ونجد في ديوان أبي نواس بعض قصائد في هجاء هاشم بن حديج الكندي، وفي كتاب أخبار أبي نواس عدة أبيات في هجاء معاوية بن حديج الفيلسوف، مما يدل على أن أبا نواس كان في صلة ببني حديج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ مصر الإسلامية، ومؤسس هذه الأسرة في مصر هو معاوية بن حديج التجيبي الكندي، وفد على مصر في جيش الفتح، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة يبشره بفتح الإسكندرية، وكان رابع أربعة عينهم عمرو على خطط الفسطاط، وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العثمانية بمصر؛ إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة المقتول،

فقام محمد بن أبي حذيفة ولكن ابن حديج اضْطُر إلى أن يهرب إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر لانتزاعها من أيدي العلويين، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وألقاه في جيفة حمار وأحرقه. كان هذا الرجل رأس أسرة بني حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموي وعبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الذي ولي مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٥٢، وفي سنة ١٩٠ — وهي السنة التي فيها كان أبو نواس في مصر كما رجحت — صرف عبد الله بن محمد العباسي عن ولاية مصر، فخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن، وهو الذي هجاه أبو نواس.

أما سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبي نواس أن الشاعر مدح هاشمًا فلم يعطه شيئًا فهجاه، ونقل عن كتاب الروضة للمبرد أن هاشمًا أراد أن يستبقي أبا نواس عنده في مصر فرفض هذا البقاء وخرج من مصر يهجو هاشمًا ويهجو المصريين:

قفوا معشر الراحلين اسمعوا أنبئكم عن بني كنده
وردنا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنده
رأيتك عند حضور الخوا ن شديدًا على العبد والعبده[٦٧]

ونراه في هذا الهجاء يعيِّر بني حديج بقتل محمد بن أبي بكر الصديق:

فإن حديجًا له هجرة ولكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
وما كان قاتِله في الرجال بحمل لطهر ولا رشده[٦٨]

وقوله:

يا هاشم بن حديج ليس فخركمُ بقتل صهر رسول الله بالسَّدد
أدرجتمُ في إهاب العير جثتهُ فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ولكن يُخيَّل إلي أن هناك سببًا آخر لهجائه بني حديج يُضاف إلى ما يذكره جامع ديوان أبي نواس، فقد كانت المنافسة التي بين أحمد بن حوي العذري وهاشم بن حديج شديدة جدًّا، وتجلت هذه المنافسة في قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها، وكان أبو نواس شديد الصلة بابن حوي حتى إن الشاعر هجا كل المصريين إلا ابن حوي:

دم المكارم بالفسطاط مسفوح — والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
يا أهل مصر، لقد غبتم بأجمعكم — لما حوى قصب السبق المساميح
أموالكم جمة، والبخل عارضها — والنيل مع جوده فيه التماسيح
لولا ندى ابن حوي أحمد نطقت — مني المفاصل فيكم والجواريح[٦٩]

وفي قصيدته السينية التي هجا بها هاشم بن حديج قال:

ما منك سلمى ولا أطلالها الدُّرُسُ — ولا نواطق من طير ولا خرس
يا هاشم بن حديج، لو عددت أبًا — مثل القلمس لم يعلق بك الدنس
إذ أصبح الملك النعمان وافده — ومن قضاعة أسرى عنده حبس
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا — فلم ينل مثلها من مثله أنس
أو رُحت مثل حوي في مكارمه — هيهات منك حوي حين يلتمس[٧٠]

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه، وذكر نسبه في اليمنية، وأن اليمنية تجمع بينه وبين هاشم بن حديج، فعاتب نفسه واعتذر إلى هاشم عن هذا الهجاء:

أهاشم خذ مني رضاك وإن أتى — رضاك على نفسي فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدي — وعرضي وما مزقت غير أديمي
فعذت بحقوي هاشم فأجارني — كريم أراه فوق كل كريم
وإنَّ امرأ أغضى على مثل زلتي — وإن جرحت فيه لعين حليم
تطاول فوق الناس حتى كأنما — يرون به نجمًا أمام نجوم[٧١]

أما صلة أبي نواس بشعراء مصر، فحدثنا السيوطي أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا لمصاحبة أبي نواس، وكتابة شعره، وكان بينهم رجل يُعرَف بالحسن بن عمر الأجهري، كان شاعرًا ضعيف الشأن فأراد أن يُعْلِي شأنه، فهجا أبا نواس بقوله:

ألا قل للنواسي الضـ ـعيف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالًا فلم نحمدك في الخير
وما إن ذعت بالمنظر ولكن ذعت بالذكر

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة، فنظر إليه النواسي وقال: بماذا أهجوك؟ وبأي شيء أصفك؟ وقد سبقني الله تعالى إلى توحيش منظرك، وتقبيح مخبرك، وهل أكون إن قلت شيئًا إلا سارقًا من ربي، ومتكلِّفًا ما قد كفاني. فقال له بعض من معه من المصريين: اهجه على كل حال، لا يقول هذا إلا إنه أفحمك. فقال النواسي:

بما أهجوك؟ لا أدري لساني فيك لا يجري
إذا فكرت في هجو ك أبقيت على شعري

وحدثنا صاحب أخبار أبي نواس قصة دعابة أبي نواس ولهوه مع الفتيان الثلاثة، وهذا الشعر الذي أنشده في أصحابه هؤلاء، كل هذا يدلنا على أن أبا نواس اشترك مع الشعب المصري في لهوه ومجونه.

لأبي نواس أشعار كثيرة قيلت في مصر ولكنها لم تصل إلينا، فيقول جامع شعره: إن لأبي نواس بمصر قصائد لا يعرفها أهل العراق، ويروي ديك الجن وقد دخل مصر بعد أن تركها أبو نواس: أنه وجد للنواسي أشعارًا كثيرة منها:

إذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شباه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدثان

وروى حمزة الأصفهاني أنه وجد رسالة في شعر أبي نواس وقد سقط منها الشعر الذي قاله بالشام ومصر، مع أن المصريين يروون للنواسي أشعارًا كثيرة لم تقع إلى أهل العراق، قال: وقدم علينا رجل من حمص حافظ لشعر أبي نواس وزعم أن أباه كان قد لقي أبا نواس بحمص فكتب عنه قصائد له أنشدها في مصر.

وفي كتاب أخبار الحسن بن هانئ لابن منظور نجد روايات كثيرة تدلنا على أن أبا نواس كان صديقًا لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية، ولكني أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبا نواس؛ لأن ابن الداية تُوفِّي بمصر بعد وفاة أبي نواس بنحو قرن؛ أي بعد انتهاء الدولة الطولونية. فقد وهم إذن ابن منظور حين روى عن ابن الداية أنه كان صديقًا لأبي نواس، وربما كان أحمد بن يوسف كاتب العباسيين المعروف هو صاحب أبي نواس، فوهم ابن منظور وظنه ابن الداية؛ لتشابه اسميهما.

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كما ذكر صاحب أخباره، وقد هجا مصر والمصريين بالأبيات التي ذكرتها سابقًا، ثم نراه يهجو النيل أيضًا:

أضمرت للنيل هجرانًا وتقلية إذ قيل لي: إنما التمساح في النيل

وفي شعر أبي نواس في مصر، نجد أثر مصر واضحًا قويًّا، فمثلًا هو يذكر دائمًا قصة «موسى وفرعون» التي كانت في مصر، فنراه قد شبه شعره بعصا موسى تلقف ما يقول غيره من الشعراء. فقد قيل: إن أبا نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيب رأى جماعة من الشعراء أسن منه، فطلب من الخصيب أن ينشدوا قبله، فلما أنشدوا تبسَّم أبو نواس وقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصى موسى تلقف ما يأفكون، ثم أنشده قصيدته الرائية، وفيها يقول:

وأطرق حيات البلاد لحية خصيبية التصميم حين تسور

ومدح الخصيب مرة أخرى بقوله:

حية تصرع الرجال إذا ما صارعوا رأيه على الأذقان

وحذر المصريين من الاستمرار في الفتنة والثورة بقوله:

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصحٍ بنصيب
فإن يك باقٍ إفك فرعون فيكم فإن عصى موسى بكف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحيةٍ أكولٍ لحيات البلاد شروب

ولا أكاد أعرف لأبي نواس شعرًا في هذا المعنى أنشده في غير مصر، مما يدل على أن هذا المعنى من أثر مصر في شعر أبي نواس، ثم ذكر النيل مرارًا وما به من التماسيح، وهو معنى مصري لا يتأتى لشاعر لم ير النيل، وما به من التماسيح.

ووفد على مصر أيضًا الشاعر الهجَّاء دعبل بن علي الخزاعي طمعًا في نوال أحد أقاربه المطلب بن عبد الله الخزاعي والي مصر، ومدحه دعبل أولًا بقصيدته التي فيها:

أبعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب

فولاه المطلب إقليم أسوان فمكث به أيامًا ولعله لم يرض بما ناله فغضب، ولم ينج المطلب من هجائه؛ إذ قال فيه:

أمطلب أنت مستعذب حميا الأفاعي ومستقبل
وعاديت قومًا فما ضرهم وشرفت قومًا فلم ينبلوا

فاضْطُر الوالي إلى أن يعزله، وكان المطلب يقول كلما قابل دعبلًا: ما تفكرت في قولك قط: «وإن كاثرونا جئنا بأسرته.» إلا كنت أحب الناس إلي، ولا تفكرت، والله، في قولك: «وعاديت قومًا» إلا كنت أبغض الناس إلي.[٧٢]

وحدث أنه عُزِل المطلب عن مصر، فلم يقبل أن يسلمها لمن خلفه؛ فتحاربا، فانهزم المطلب واضْطُر إلى أن يفر إلى مكة، فقال دعبل في ذلك:

فكيف رأيت سيوف الحريش ووقعة مولى بني ضبة
أحجَّتك أسيافهم كارهًا وما لك في الحج من رغبة[٧٣]

يريد بمولى بني ضبة السري بن الحكم الوالي الذي جاء بعد المطلب، ولقد سعدت مصر سنة تسع وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن إدريس الشافعي على مصر بصحبة عبد الله بن الوالي العباس بن موسى، وقيل إن الشافعي قدم مصر بعد أن أحس بالشر في بغداد، فقد اشتدت الفتنة في إظهار القول بخلق القرآن، فهرب من بغداد إلى

مصر،[٧٤] ومهما يكن السبب الذي جاء من أجله الشافعي إلى مصر فإنه أقام بها ناشرًا لآرائه وعلمه ملازمًا للاشتغال بجامع عمرو بزاوية الخشابية التي عرفت به.[٧٥]

كان الشافعي شاعرًا، ويحدثنا السيوطي أن الشافعي اجتمع بعبد الله بن هشام صاحب السيرة وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة،[٧٦] ومع ذلك فالشافعي كان يهتم بالفقه أكثر من اهتمامه بالشعر، ولأنه كان يقول:

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد[٧٧]

كان مجيء هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح الشاعرية المصرية وأيقظت ما كمن منها، ومن الجائز أن بعض الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوافدين، وقد رأينا كيف كان يجتمع المصريون في المسجد الجامع؛ لاستماع شعر أبي نواس، وكيف اهتموا به، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية في مصر وتطورها.

(٥) شعراء مصريون راحلون

يمتاز هذا العصر أيضًا بظهور شعراء مصريين، أو ممن أخذوا بحظ من الثقافة في مصر، وقضوا فيها شطرًا من حياتهم الأولى، ثم غادروها إلى مقر الخلافة؛ حيث اتصلوا بالخليفة ورجاله، ومع أننا نستطيع أن نسمي هؤلاء الشعراء مصريين أو متمصرين — إن صح هذا التعبير — فإن شعرهم اصطبغ بصبغة البلاد التي حلوا بها فلم يعد لهم أية صلة بمصر؛ ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين.

أبي تمام

فشاعر كأبي تمام مهما قيل عن أصله ومولده، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير، وكان يسقي الماء في المسجد الجامع، وجالس الأدباء والعلماء في مصر، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملكة الاختيار من شعر العرب، وجعلته يجمع منها حماسته، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره، وما زال في مصر حتى شاع ذكره فبلغ الخليفة العباسي المعتصم خبره فاستقدمه وأحسن إليه،[٧٨] ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى آخر أيام حياته.

لم يكن أبو تمام مصري المولد ولكنه قضى شطرًا من حياته فيها كما قضى أكثر أيام حياته بعيدًا عنها، ومع ذلك فالمصريون يعتبرونه واحدًا منهم بل يغالون ويدَّعون أنه شاعرهم الأكبر، ويفخرون به حتى عده الكندي أحد فضائل مصر؛[٧٩] وذلك لنبوغه وشهرته الواسعة وكثرة الشعر الذي أنشده، ولعله أول رجل تخرَّج في المدرسة المصرية تُروَى له هذا العدد الكبير من القصائد.

وحياة أبي تمام في مصر غامضة أشد الغموض فلم تصلنا أخباره ولا نعرف شيئًا عن أساتذته الذين أخذ عنهم، ويغلب على ظني أن أبا تمام قد استمع إلى هذه الدروس التي كانت تُلقَى في حلقات المسجد الجامع بالفسطاط، وكان في ذلك الوقت الشافعي وابن هشام راوي السيرة وابن عبد الحكم والليث بن سعد، ممن يلقون علومهم في هذه الحلقات، ولعل أبا تمام قد أدرك سعيد بن عفير والمُعلَّى الطائي ويحيى الخولاني والحسين بن الجمل الأكبر ويوسف السراج وغيرهم من شعراء مصر في هذه الفترة، فاستفاد مما سمعه من علوم أولئك وشِعْر هؤلاء حتى نمت ملكة الشعر عنده فأنشد هذا الشعر الذي استطاع به أن يُخْمِل شعراء عصره.

وأول ما نعرفه عن تكسبه بالشعر في مصر فهو اتصاله بعياش بن لهيعة، والتاريخ لا يذكر عياشًا إلا أنه كان صاحب الشرطة في مصر سنة ٢٠١هـ، وأن أباه هو القاضي لهيعة بن عيسى الحضرمي الذي ولي القضاء مرتين؛ الأولى سنة ١٩٦هـ إلى أن عزل سنة ١٩٨هـ، ثم وليها مرة أخرى في المحرم سنة ١٩٩، وظل في منصبه إلى أن تُوفِّي سنة ٢٠٤هـ، أما ابنه عياش فقد انقطعت أخباره ولا نعلم عنها شيئًا، ويذكر الرواة أن أبا تمام أول ما قال الشعر فهو في عياش:

تقي جمحاتي لستُ طوعَ مؤنبي ... وليس جنيبي إن عذلت بمصحبي
فلم توقدي سخطًا على متنصَّلٍ ... ولم تنزلي عتبًا بساحة معتب
رضيت الهوى والشوق خِدْنًا وصاحبًا ... فإن أنتِ لم ترضي بذلك فاغضبي

إلى أن يقول:

تركت حطامًا منكب الدهر إذ نوى ... زحامي لما أن جعلتك منكبي
وما ضيق أقطار البلاد أضافني ... إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي

وأنت بمصر غايتي وقرابتي بها، وبنو الآباء فيها بنو أبي
ولا غرو أن وطَّأت أكناف مرتعي لمهمل أحفاضي ورفَّهت مشربي
فقوَّمت لي ما اعوجَّ من قصد همتي وبيَّضت لي ما اسودَّ من وجه مطلبي

فأعطاه عياش وأجزل مكافأته، وظل الشاعر متصلًا بعياش إلى أن فسد ما بينهما فنرى الشاعر حينًا يعاتبه، وأخرى يهجوه حتى مات عياش، ولا ندري سبب هذا التحول من المدح إلى الهجاء إلا ما يرويه ابن عبد ربه أن أبا تمام استسلف عياشًا مائتي مثقال فشاور فيه زوجته فقالت: «هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غدًا. فاعتلَّ عليه واعتذرَ إليه ولم يقضِ حاجتَه.»[٨٠] فعاتبه أبو تمام بقصيدته التي أولها:

صدفتْ لُهَيَّا قلبي المستهتر فبقيتُ نهب صبابة وتفكُّر

والتي يقول فيها:

الفطر والأضحى قد انسلخا، ولي أمل ببابك صائمٌ لم يُفْطِر
حَول ولم ينتج نداك، وإنما تتوقع الحُبْلى لتسعة أشهر
جِشْ لي ببحر واحد أغرقك في مدح أجيش له بسبعة أبحر

ويفهم من شعر أبي تمام أن بعض القوم سعوا به عند عياش، ومن يدري لعل بعض شعراء مصر حسدوا هذا الشاب على صلته بالأمير؛ فأوقعوا بينهما مما أدى الشاعر إلى أن يقول:

أظن عندك أقوامًا وأحسبهم لم يأتلوا فيَّ ما أعدُوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضي وانتظار غد والكظم حتى عليَّ الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكري ولا رقابهم إلا وهم حيض

ولكن العلاقة بين عياش وأبي تمام فسدت نهائيًّا، فهجاه الشاعر بعدة قصائد منها قوله:

النار والعار والمكروه والعطب والقتل والصلب والمران والخشب
أحلى وأعذب من سيل تجود به ولن تجود به يا كلب يا كِلبُ

ويتوعده مرة أخرى بقوله:

ولأشهرنَّ عليك شنع أوابد يُحْسَبن أسيافًا وهن قصائد
فيها لأعناق اللئام جوامع تبقي، وأعناق الكرام قلائد
يلزمن عرض قفاك وسم خزاية لم يخزها بأبي عيينة خالد

وظل يهجو عياشًا إلى أن مات عياش فلم يتورع أمام الموت بل هجاه بقصيدة منها:

فكَّت أكف الموت غل قصائدي عنه وضيغمها عليه يزير
ما زال غل الموت ثاني عطفه حتى أتاه الموت وهو أسير
من بعد ما نزَّهْتُ في سوءاته حسنات شعر بحرهن بخور
يا خلقة الله التي من طرزها نشآ فكان القرد والخنزير

لم يحفظ لنا التاريخ شيئًا عن علاقة أبي تمام بشعراء مصر في هذا الوقت إلا ما رواه ابن رشيق صاحب العمدة أن أبا تمام هاجى السراج،[٨١] وما جاء في الوساطة: وما عدوت في هذا الفصل قضية أبي تمام ولا خرجت عن شرطه أن يقول في يوسف السراج شاعر مصر في وقته:

فلو نبش المقابر عن زهير لعول بالبكاء وبالنحيب
متى كانت معانيه عيالًا على تفسير بقراط الطبيب
وكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب[٨٢]

ويُفهَم من هذا أنه كانت هناك منافسة فنية في الشعر بين شاعر مصر يوسف السراج وبين أبي تمام، وأن أبا تمام كان يعيب على السراج فنه وشعره، فهو يأخذ على

شاعر مصر معانيه الفلسفية التي لم تُعرَف عند زهير؛ أي عند القدماء كما يأخذ عليه الغريب والتعقيد في شعره بينما الشعر في نظر أبي تمام يجري كالماء السلس الذي يرف عليه ريحان القلوب، والغريب أن أبا تمام الذي ينقد شاعر مصر على هذا النحو هو نفسه من أشد الشعراء إغراقًا في التعقيد المعنوي واللفظي، ومن أكثر الشعراء استعمالًا للغريب، فهل نستطيع أن نقول: إن فن أبي تمام هو أثر من آثار مصر؟

ونرى أبا تمام يتصل بالأمير عبد الله بن طاهر حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السري الثائر بمصر سنة ٢٢١هـ، ومدحه بقصيدة منها:

لعمري لقد كانت بمصر وقيعة ... أقامت على قصد الهوى كل مائل
على الخندق الأقصى وما كان حوله ... وما قد يليه من فضاء وساحل[٨٣]

وأنشد أبو تمام شعرًا في الحروب التي كانت بمصر في هذا العهد، من ذلك قصيدته في رثاء عمير بن الوليد الذي قُتِل يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين، وقد قُتِل في حرب بينه وبين أهل الحوف، وفي هذه قصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار ولعادات الجاهلية من بكاء على الميت ولَطْم الخدود، وهي نفس عادات المصريين التي لم يشر إليها الشعراء المصريون وإنما تشاهد كل يوم.

أعيدي النوح مُعْوِلة أعيدي ... وزيدي في بكائك ثم زيدي
وقومي في نساء حاسرات ... خوامش للنحور وللخدود
هو الخطب الذي ابتدع الرزايا ... وقال لأعين الثقلين جودي
ألا رزئت خراسان فتاها ... غداة ثوى عمير بن الوليد
ألا رزئت بمسئول منيل ... ألا رزئت بمتلاف مفيد
ألا إن الندي والجود حلَّا ... بحيث حللتَ من حفر الصعيد
بنفسي أنت من مَلِك رمتْه ... منيَّتُه بسهم ردى سديد

واستمر في بكائه ونحيبه ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه بالشجاعة في القتال والجود والسخاء:

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا ... بفقد فيك للسند العميد
فكم أسخنت فينا من عيون ... وكم أعثرت فينا من جدود[٨٤]

وضاق أبو تمام ذرعًا بما هو فيه من فقر وإملاق وكان يطمع في المال الكثير:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهة ... بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة ... مخيمة بين المطية والرجل
نأيت فلا مال حويت ولم أقم ... فأمتع إذ فُجعت بالمال والأهل
لئام طغام أو كرام بزعمهم ... سواسية ما أشبه الحول بالقبل[٨٥]

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسفٍ على فراقها وإن حنَّ إليها بعد خورجه منها، فذكر إخوانه بالفسطاط:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت ... حتى تشافه بي أقصى خراسان
خلَّفت بالأفق الغربي لي سكنًا ... قد كان عيشي به حلوًا بحلوان[٨٦]

ماني الموسوس

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبي تمام اختلافًا تامًّا، ذلك هو محمد بن القاسم ويُكنَّى بأبي الحسين، ويعرف بماني الموسوس؛ لأنه كان بعقله شيء من الجنون، هذا الرجل مصري المولد والنشأة، لكنه خرج من مصر ولم نعرف متى خرج؛ إذ لم نعثر على شيء من أخباره غير أن أبا الفرج يحدثنا أن هذا الشاعر «قدم مدينة السلام ولقيه جماعة من شيوخنا منهم أبو العباس بن عمار وأبو الحسن الأسدي وغيرهما،[٨٧] وقد وصفه أحد الأدباء لمحمد بن عبد الله بن طاهر، وقد طلب أحدًا لمنادمته فقال له: قد خطر ببالي من ليس علينا بمنادمته ثقل، قد خلا من إبرام المجالسين، وبرئ من ثقل المؤانسين، خفيف الوطأة إذا أدنيته، سريع الوثبة إذا أمرته.[٨٨]

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار في جنونه، وأبيات قليلة مبعثرة في كتب الأدب تحملنا عن القول بأن الشاعر كان كلفًا بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو، وبرع في هذه الفنون، وقد تأثر بالقدم فوقف على الديار وبقي الأطلال، وكان يحفظ كثيرًا من الشعر ويرويه لأبي العباس بن عمار وهذا يكتب عنه، قال ابن عمار:[٨٩] كان «مان»

يألفني، وكان مليح الإنشاد حلوه، رقيق الشعر غزله، فكان ينشد في الشيء ثم يخالط فيقطعه، وكان يومًا جالسًا إلى جنبي فأنشدني للعريان البصري قوله:

ما أنصفتك العيون لم تكف وقد رأيت الحبيب لم يقف

إلى آخر القصيدة، فسألته أن يمليها عليَّ ففعل، ثم قال: اكتب. فعارضه أبو الحسين المصري يعني مانا نفسه، فقال:

أقفز مغنى الديار بالنجف وحلت عما عهدت من لطف
طويت عنها الرضا مذممة لما انطوى غصن عيشها الأنف
حللت عن سكرة الصبابة من خوف إلهي بمعرك قذف
سئمت ورد الصبا فقد يبست مني بنات الخدور والخذف
سلوت عن نهد نسبن إلى حسن قوام واللحظ في وطف

وتُوفِّي هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين.

(٦) لمحة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر

سعيد بن عفير

هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلمة بن يزيد بن الأسود الأنصاري ويُكنَّى بأبي عثمان، وُلِد بمصر سنة ست وأربعين ومائة، وأتمَّ علومه الدينية بمصر، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة؛ حيث سمع الموطأ من الإمام مالك وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد، وابن لهيعة، وصار أحد المحدثين الثقات، وعنه أخذ البخاري والنسائي، وابن عبد الحكيم وبكار بن قتيبة وغيرهم،[٩٠] وأخذ بحظٍّ وافر من العلوم الأدبية فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب ومآثرها ووقائعها، والمناقب والمثالب، وكان في ذلك كله عالمًا كبيرًا «وكان أديبًا فصيح اللسان حسن البيان، لا تمل من مجالسته، ولا ينزف علمه، ويقال إن مصر لم تُخْرِج أجمع للعلوم منه.»[٩١] وكان عبد الله بن طاهر يقول: «رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء: النيل، والهرمين، وابن عفير.»[٩٢] وبجانب

هذا كله كان الشاعر ذكيًّا سريع البديهة، حاضر الجواب، فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع عشرة ومائتين جلس بقبة الهواء وبحضرته سعيد بن عفير، فقال المأمون: لعن الله فرعون؛ حيث يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ فلو رأى العراق وخصبها! فقال سعيد بن عفير: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا، فإن الله — عز وجل — قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته؟![٩٣]

ويحدثنا السيوطي:[٩٤] أن ابن عفير ولي قضاء مصر، ولكني لم أجد له ذكرًا بين القضاة في كتاب الكندي، ولا في رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني، ولكنه كان صديقًا للقضاة، وكانوا يرجعون إليه في كثير من المسائل الفقهية، ويثقون بشهادته، كما كان أحد الذين جُعِل إليهم التحكيم في قضية أهل الحرس التي مر ذكرها، كما كان له رأي في اختيار قاضي مصر سنة اثنتي عشرة ومائتين، فقد قيل إن عبد الله بن طاهر أمر بإحضار وجوه أهل مصر، فحضر عدد كبير بينهم سعيد بن عفير، فطلب إليهم ابن طاهر أن يختاروا قاضيًا من بينهم، فرشح بعضهم أصبغ بن فرج الفقيه العالم، فعارضه سعيد بن عفير، وقال: ليس هذا الرجل كما وصفت، هذا الرجل بذيء طويل اللسان، وسجع سعيد في وصفه. فقام أصبغ فقال: إن الأمير أمر أن يحضر في مجلسه الفقهاء وأهل العلم لا الشعراء ولا الكهنة.[٩٥] من هذا الحديث نستطيع أن ندرك أن ابن عفير عُرِف بين معاصريه بالشعر، وهجاه خصومه بذلك.

اتصل ابن عفير بالحوادث التي كانت في عهده، وأنشد الشعر في كل الاضطرابات التي كانت في مصر إذ ذاك، لا سيما ما كان منها بين سنة ثمانٍ وستين ومائة وسنة تسع ومائتين، وقد ظهر في شعره روح العصبية العربية، وقد ذكرنا صورًا من شعره في ذلك.

وكان ابن عفير رجلًا كريم النفس لم يتملق رئيسًا، ولم يمدح أميرًا بقصد العطاء، فلم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء، بل بالعكس من ذلك، نراه قد هجا الوالي المطلب الخزاعي ومدح معارضه هبيرة بن هاشم، ورثا أبا بشر الأنصاري الذي قتله الوالي.[٩٦]

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل وإنما هي مقطعات قصيرة صغيرة، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته، ولا أدري كيف قال الأستاذ «جيست»: «إن رثاء ابن عفير أرقى ما وصل إليه الشعر العربي في كتاب الكندي وأجمله»![٩٧] ولكن الأستاذ «جيست» كغيره

من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربي مهما بلغ علمهم وثقافتهم في العلوم العربية؛ لأن ذوقهم الفني متأثر بالبيئة التي هم فيها، وخاضع لألوان الحياة التي يحيونها، وهي تختلف تمام الاختلاف عن البيئة والحياة العربية، والذوق لا يأتي بالعلم والدرس فقط بل هو خاضع قبل كل شيء لما يحيط بالناقد من ضروب الحياة، فالمستشرق يستطيع أن يحكم على شعر أُنْشِد بلغته وقد يكون دقيقًا في حكمه، حكيمًا في نقده، ولكنه لا يستطيع أن يحكم على شعر عربي؛ لبعده من بيئة هذا الشعر، ثم إن الأستاذ جيست قد حكم على الشاعر بهذه المقطعات القصيرة الصغيرة، وهي عندي لا تكفي لأن ترينا رقة الشعر وجماله، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قالها، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرًا على آخر لبيت قاله حتى سخر منهم مروان بن أبي حفصة، فقد قيل إنه كان يروي شعرًا لزهير، وقال: زهير والله أشعر الناس، ثم أنشد للأعشى، وقال: الأعشى أشعر الناس، ثم أنشد لامرئ القيس، وقال: امرؤ القيس أشعر الناس، ثم ضحك وقال: والناس والله أشعر الناس.

ومهما يكن من شيء فإن ابن عفير لم يكن شاعرًا فحسب، فقد كان عالمًا محدِّثًا وفقيهًا، وأظن أن علم الرجل يُفْسِد في كثير من الأحيان شعرَه إذا أخضع فنه لعلمه، ويخرجه من الشعر الطبيعي إلى الشعر القريب من النظم؛ لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر مما يخضع لعواطفه وشعوره، أما إذا استطاع أن يُخْضِع علمه لفنه فهنا نستطيع أن نتذوق الشعر الفني القوي الذي لا يدانيه شعر آخر.

وتُوفِّي سعيد بن عفير كما قال الذهبي سنة ست وعشرين ومائتين.[٩٨]

المُعلَّى الطائي

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئًا قليلًا، ولم يتحدث عنه المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرًا لابن عفير، ولكنه لم يبلغ من العلم ما بلغه صاحبه، ويُخيَّل إليَّ أنه انقطع إلى الشعر والتكسب به، فقد مدح الولاة، واتصل بهم جميعًا، ودافع عن سياستهم، وهجا أعداءهم، فكان كغيره من الشعراء المادحين المتكسبين بشعرهم، فكان يمدح الوالي فإذا عُزل الوالي يمدح من يأتي بعده، وقد رأيناه يمدح المطلب الخزاعي وابن السري، ويحدثنا ابن سعيد في كتابه «المغرب في أخبار المغرب» أن المُعلَّى ممن عاصر أبا نواس،[٩٩] فمن الجائز أن يكون قد اتصل

بأبي نواس لَمَّا وفد هذا على مصر، ولكنا لا نعلم تمامًا مدى هذا الاتصال؛ إذ لم يصلنا شيء من أخبارهما، ويروي ابن سعيد هذا الأبيات الشهيرة للمُعلَّى:

لولا بُنيَّات كزُغب القطا جمعن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم أشفقت العين من الغمض[١٠٠]

ولكن أبا تمام في حماسته ينسبها لحطان بن المُعلَّى،[١٠١] ورواها ابن عبد ربه منسوبة إلى المُعلَّى،[١٠٢] ولا أستطيع أن أجزم لمن هذا الأبيات وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبي تمام؛ لأنه كان معاصرًا للمُعلَّى.

ويُخيَّل إليَّ أن المُعلَّى الطائي كان صاحب لهوٍ ومجون، ولعل هذه الأبيات القليلة التي رواها أبو الفرج في الأغاني تؤيد أن المُعلَّى كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء فهو يذكر الخمر بقوله:

باكر صبوحك صبحة النيروز واشرب بكأس مترع وبكوز
ضحك الربيع إليك عن نواره آس نسرين ومرماحوز[١٠٣]

الجمل الأكبر

اسمه الحسين بن عبد السلام، ويعد في طليعة شعراء هذا العصر فقد تمتع بشهرة فائقة في دولة الشعر، واتصل بكثير من الأمراء والقضاة، ولد سنة سبعين ومائة، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد الشافعي على مصر، صحبه الجمل وأخذ عنه، ولا نعلم شيئًا عن حياة هذا الرجل أيضًا، سوى أنه كان يتكسب بشعره، فمدح الولاة وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات، فقد مدح المأمون بمصر، كما مدح عبد الله بن طاهر، وأكثر مدائحه التي وصلتنا أنشدها في مدح القاضي محمد بن أبي الليث، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء حتى كان ابن المدبر فاتصل به، ثم اتصل بأحمد بن طولون، وخُصَّ به فاتخذه شاعره ونديمه، وعُرِف عن الجمل شره في الطعام، وقذارة الثوب ودناءة النفس،[١٠٤]

ولست أدري كيف نعته ابن يونس بهذه الصفات، في حين أننا نجد الجمل يقول في إحدى قصائده:

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعًا وريا
فكن رجلًا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أبيًّا لنائل ذي ثروة تراه بما في يديه أبيا
فإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المُحيَّا[١٠٥]

ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، وعُرِف الجمل بشيء من الظرف، وشُهِد له بذلك، فإن ابن سعيد في حديثه عن الجمل الأصغر قال: لقبه كلقب الأكبر وكذلك اسمه، وكان ينحو في الظرافة والتطايب منحاه.[١٠٦]

وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء، فقد روي أن الحسين بن عبد السلام بكَّر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر، فلم يمكنه الحاجب من الدخول، وأدخل شاعرين آخرين هما ابن شعوة وحمدويه، فلم يستطع الجمل صبرًا، وأرسل إلى سليمان أبياتًا منها:

ولعمري لئن حجبنا عن الشيـ ـخ فلا عن وجه هناك وجيه
لا، ولا عن طعامه التافه النز ر الذي حوله لطام بنيه
بل حجبنا به عن الخسف والمسـ ـخ وذاك التبريق والتمويه
فجزى الله حاجبًا لك فظًّا كل خير عنا إذا يجزيه[١٠٧]

وقد روينا له أبياتًا كثيرة عن الحوادث التي كانت بمصر في ذلك العصر، وتُوفِّي هذا الشاعر سنة ثمانٍ وخمسين ومائتين من الهجرة.

هوامش

(١) الولاة للكندي: ص١٢٧.
(٢) الكندي: ص١٤٥.
(٣) نجد ثورة الجروي في الكندي: ص١٥٥، وما بعدها.
(٤) مولى بني ضبة وهو السري بن الحكم.

(٥) هو طاهر بن حسين قائد المأمون.
(٦) الفسار: مُعرَّب كلمة فارسية (أفسر) بمعنى التاج.
(٧) معجم البلدان: ج٢، ص٣١١ طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦م.
(٨) الكندي: ص٤٠٢، وما بعدها.
(٩) الكندي: ص٤٢٦.
(١٠) الكندي: ص٣٩٩.
(١١) الكندي: ص٤٠١.
(١٢) راجع قضية أهل الحرس بكتاب الولاة والقضاة للكندي: ص٣٩٧–٣٩٩، ومن ص٤١٣–٤١٥.
(١٣) الكندي: ص٤٢٣.
(١٤) الولاة للكندي: ص٤٥٧.
(١٥) هو هرون بن سعيد الأيلي.
(١٦) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم.
(١٧) أمر القاضي ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد بالفسطاط: لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق، فالشاعر أشار في هذا البيت إلى ذلك.
(١٨) الكندي: ص٥٤٢–٤٥٣.
(١٩) شرحه.
(٢٠) الكندي: ص٤٦١.
(٢١) القضاة للكندي: ص٤٥٢.
(٢٢) أخبار سيبويه المصري لابن زولاق، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٢٣) الكندي: ١٥٢-١٥٣.
(٢٤) زهر الآداب: ج٢، ص١٨١ (المطبعة الرحمانية).
(٢٥) زهر الآداب: ج٢، ص١٨١ (المطبعة الرحمانية)، وتحفة المجالس للسيوطي: ص٣٥٥.
(٢٦) هِرْبِذ: كزبرج مفرد هرابذة، قومة بيت النار للهند وخدم نار المجوس.
(٢٧) الولاة والقضاة: ص٤٠٠.
(٢٨) الكندي: ص٢٠١.
(٢٩) الكندي: ص٣٨٠-٣٨١.
(٣٠) الهنائي: هو كامل الهنائي الذي ولي الشرطة في ذلك الوقت.

(٣١) الباهلي: هو معاوية بن صرد الذي ولي الشرطة بعد الهنائي.
(٣٢) الكندي: ص١٤٢-١٤٣.
(٣٣) الكندي: ص١٨٧.
(٣٤) الكندي: ص١٦٠.
(٣٥) العقد الفريد: ج٢، ص١٧٩.
(٣٦) الخسف: الذل والهوان.
(٣٧) أعفاه من الأمر: برأه.
(٣٨) الوحف: الشعر الكثيف الأسود.
(٣٩) الخشف مثلثة: ولد الظبي أول ما يولد.
(٤٠) حار يحار ويحتار واستحار: نظر إلى الشيء.
(٤١) محاجر لجمع محجر: ما دار بالعين.
(٤٢) الوطف: كثرة شعر الحاجبين والعينين.
(٤٣) الوكف: الإثم.
(٤٤) العقد الفريد: ج٢، ص١٧٩.
(٤٥) المقريزي: ج١، ص١١٠.
(٤٦) المقريزي: ج٢، ص٢٦.
(٤٧) المقريزي: ج٢، ص٢٩.
(٤٨) الكندي: ص١١٣.
(٤٩) الكندي: ص١١٣.
(٥٠) الكندي: ص٣٣٩.
(٥١) شرحه: ص٤٠٠.
(٥٢) النجوم الزاهرة: ج٢، ص٦١.
(٥٣) شرحه: ج٢، ص١٩٢.
(٥٤) شرحه، وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الولاة للكندي: ص١٨١ مع اختلاف يسير، ولكن الكندي روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات مع طلب الأمان لعبد الله بن السري الذي تحدثنا عنه.
(٥٥) النجوم الزاهرة: ج٢، ص٢.
(٥٦) العقد الفريد: ج١، ص١٥٦، والنجوم الزاهرة: ج٢، ص٢.
(٥٧) النجوم: ج٢، ص٢.

(٥٨) تاريخ الطبري وحوادث سنة ٢١٠هـ.
(٥٩) أخبار أبي نواس نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٦٠) تحفة المجالس للسيوطي: ص٣٣٧.
(٦١) ديوان أبي نواس: ص٧٧، طبع مصر سنة ١٣٢٢.
(٦٢) خطط المقريزي: ج١، ص٢٣١.
(٦٣) ديوان أبي نواس: ص٨٠، وأخبار أبي نواس لابن منظور: ص٢٣٧.
(٦٤) ديوان أبي نواس: ص٧٨.
(٦٥) شرحه: ص٨٠.
(٦٦) الديوان: ص١٨٢.
(٦٧) ديوان أبي نواس: ص١٣٨.
(٦٨) شرحه: ص١٣٩.
(٦٩) ديوان أبي نواس: ص١٢٧–١٢٨.
(٧٠) ديوان أبي نواس: ص١٣٩.
(٧١) شرحه: ص١٢٦.
(٧٢) تراجع أخبار دعبل بمصر: ج١٨، ص٤٨ من كتاب الأغاني.
(٧٣) الولاة والقضاة للكندي: ص١٦١.
(٧٤) ثمرات الأوراق مطبوع على هامش محاضرة الأدباء: ص٤٤.
(٧٥) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق: ج٤، ص١٤٠.
(٧٦) حسن المحاضرة: ج١، ص٣٠٦.
(٧٧) راجع ما كتبناه آنفًا عن الشافعي.
(٧٨) حسن المحاضرة للسيوطي: ج١، ص٣٢٢.
(٧٩) فضائل مصر للكندي نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ٤٢٢ تاريخ.
(٨٠) العقد الفريد: ج١، ص١٤٤.
(٨١) العمدة: ص٦٩، ج١.
(٨٢) الوساطة: ص٢٥.
(٨٣) الولاة للكندي: ص١٨١.
(٨٤) الكندي: ص١٨٦، وديوان أبي تمام (طبعة محمد جمال ترخيص نظارة المعارف نمرة ٤١٣) والجزء الخامس من نهاية الأرب: ص٢٠٤.
(٨٥) ديوان أبي تمام: ص٤٢١.

(٨٦) شرحه: ص٣٢٣.
(٨٧) الأغاني: ج٢٠، ص٨٤.
(٨٨) ذيل ابن خلكان: ج٢، ص٢٩٢.
(٨٩) الأغاني: ج٢٠، ص٨٤.
(٩٠) حسن المحاضرة في مواضع متفرقة، ومسالك الأبصار للعمري في باب المحدثين (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية).
(٩١) تهذيب التهذيب: ج٤، ص٧٤.
(٩٢) البلدان للهمداني: ص٦٨.
(٩٣) فضائل مصر وأخبارها لابن زولاق (نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩).
(٩٤) حسن المحاضرة: ج١، ص١٦٨.
(٩٥) القضاة للكندي: ص٤٣٤.
(٩٦) الكندي: ص١٥٦.
(٩٧) الكندي: ص٤٣.
(٩٨) تاريخ الإسلام للذهبي نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٩٩) المغرب: ص١٠١.
(١٠٠) شرحه.
(١٠١) ديوان الحماسة: ص١٠١ مطبعة السعادة سنة ١٩١٣.
(١٠٢) العقد الفريد: ج١، ص٣٦٤.
(١٠٣) الأغاني: ج١٧، ص١٢٧.
(١٠٤) معجم الأدباء لياقوت: ج٤، ص٢٦.
(١٠٥) شرحه.
(١٠٦) المغرب: ص١٠٢.
(١٠٧) العقد الفريد: ج١، ص٤١.

الفصل الثالث

الشعر في عهد الطولونيين والإخشيديين

نستطيع أن نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفنا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها، وفقدت سلطانها، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها، ولم يبق للخلفية العباسي إلا الدعاء في الخطبة، بل كثيرًا ما كان الولاة يقطعون خطبة الخليفة العباسي، فصار أمير كل دويلة مستقلًّا في شئون دويلته، وتنافس الأمراء فيما بينهم، فكان بينهم حروب، وأراد كل أمير أن يُعرَف فضله، وتُعلَى كلمته، فشجع الأمراء العلم، وحبب كل أمير إلى العلماء أن يفدوا عليه، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات، وتنافس الشعراء في خدمة الأمراء، فكانت في الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمي — إن صح أن نسميه كذلك — إذ ظهر في الشعر عناصر الأقاليم المختلفة، ومميزات الدول المتباينة، وأصبح في كل إقليم شعراء، وحفظ كل إقليم الشعر الذي أُنْشِد فيه، فبعد أن كانت بغداد هي مركز الحياة الأدبية وقلبها النابض، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة في الأقاليم، وكثرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار، وأكثر الأمراء عطاءً ونوالًا هو أعظمهم حظًّا من وفود الشعراء والعلماء.

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ، يعطون الأموال الكثيرة، ويهبون الهدايا، ويمدون السمط لكل طارق، واستقدموا الشعراء والأدباء، وقربوهم ووصلوهم، فكوَّنوا حولهم بلاطًا أدبيًّا أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين، فأنتجت هذه الحياة في مصر، أيام الطولونيين، شعرًا كثيرًا، واجتمع في مصر عدد من الشعراء قلَّ أن يجود الدهر بمثلهم حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في عددهم؛ إذ نقل عنه المقريزي أنه قال في كتابه «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة»: رأيت كتابًا قدر اثنتي عشرة

كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون. قال: فإذا كان أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة، كم يكون شعرهم؟![1] ومع ما في هذا القول من مبالغة فإن بني طولون جمعوا حولهم عددًا كبيرًا من الشعراء فكثر بذلك الشعراء المتكسبون، فلم يأت الأمير أمرًا إلا ظهر في شعر الشعراء، فمثلًا في الخلاف الذي كان بين أحمد بن طولون والموفق العباسي سنة تسع وستين ومائتين نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا عنه ومدحوه؛ لأنه خلع الموفق عن ولاية العهد، وأمر بجهاده وحربه، من ذلك ما قاله قعدان بن عمرو:

طال الهدى بابن طولون الأمير كما ... يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها ... منه على الهول ماضٍ غير محجام
في جحفل للمنايا في مقانبه ... مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بني سام غطارفة ... بيض وسود أسود من بني حام
لو أن روح بني كنداج معلقة[2] ... بالمشتري لم يفته أو ببهرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا ... بصارم من سيوف الله صَمْصَام
يا أيها الناس، هبوا ناصرين له ... مع الأمير بدهم الخيل في اللام
ليست صلاة مصليكم بجائزة ... ولا الصيام بمقبول لصيَّام
حتى يرى السيد الميمون ذبَّكم ... عن الإمام بأطراف القنا الدامي[3]

وكقول الشاعر منصف بن خليفة الهذلي:

يا غرة الدنيا الذي أفعاله ... غرر بها كل الورى تتعلق
أنت الأمير على الشام وثغرها ... والرقتين وما حواه المشرق
وإليك مصر وبرقة وحجازها ... كل إليك فؤاده متشوق
هتك الخلافة «صاعد»[4] وخليله ... «إسحاق» لعبًا والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المنون فليتها ... بنجيع من خذل الإمام تخلق
تمسي وتصبح ضاربًا من دونه ... بمهنَّد منه الحتوف تفرق
يتلوك «سعد» والمقدم «تيتك» ... و«اللاذقي» وذو الحفيظة يلحق[5]

وفي أيام خمارويه بن أحمد بن طولون خرج خمارويه لحرب إسحاق بن كنداج سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن كنداج وتبعه خمارويه حتى بلغ «سر من رأى» فمدحه القاسم بن يحيى المريمي:

أتانا أبو الجيش الأمير بيُمْنه ... فشرد عنا الجور وافتقر العسر
فإن يكُ أرضُ الرقتين به اكتست ... ضياءً وإشراقًا لقد أظلمت مصر
فسائِلْ به إسحاق إذ سار نحوه ... بجيش كعرض النيل يقدمه النصر
فأبلس إذ قيل الأمير ببالس ... وأضحى ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلًا ... أرته المنايا الحمر أعلامه الحمر
فولَّى شديدًا ذا ارتياع كأنه ... بكل بلاد طائر ما له وكر
لئن سرَّ إسحاقَ النجاةُ بنفسه ... لقد ساءه في جمعه القتل والأسْر
فلا يغبطنْ بالعيش من بعد هذه ... فقد كسرته كسرة ما لها جبر[٦]

وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المريمي شعره في مدح خمارويه، وقال فيه كل مدائحه حتى سُئِل مرة أن يرحل عن مصر فقال:

وكيف رحيلي عن بلاد غدا بها ... أبو الجيش والنيل الذي ملا الأرضا[٧]

وما كادت تدول دولة الطولونيين، وتعود مصر مرة أخرى إلى حكم العباسيين سنة اثنتين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراء يرثون الطولونيين، ويأسفون على أيامهم الزاهرة، بل نجد شاعرًا هو سعيد القاص ينظم تاريخهم في قصيدة أرى أن أثبتها هنا؛ لما فيها من إشادة بأفعال الطولونيين ومنشآتهم:

جرى دمعُهُ ما بين سحْر إلى نحر ... ولم يجْر حتى أسلمته يد الصبر
وبات وقيدًا للذي خامر الحشا ... يئنُّ كما أنَّ الأسير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى ... يبيت على جمر ويُضحِي على جمر
تتابُعُ أحداث يُضيِّعْن صبره ... وغدر من الأيام، والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ... ذوي الدين والدنيا بقاصِمة الظَّهْر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها ... بفقد بني طولون والأنجم الزهر

فبادُوا وأضحوا بعد عِزٍّ ومنعة ... أحاديث لا تخفى على كل ذي حِجْر
وكان أبو العباس أحمد ماجدًا ... جميل المحَيَّا لا يبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها ... وإشراقها في عصره ليلة القدر
يدُلُّ على فضل ابن طولون هِمة ... مُحلِّقةٌ بين السماكين والغفْر
فإن كنت تبغي شاهدًا ذا عدالة ... يخبِّرُ عنه بالجليِّ من الأمر
فالبجبل الغربي خطة يشكر ... له مسجد يغني عن المنطق الهذر
يدل ذوي الألباب أن بناءه ... وبانيَه لا بالضنين ولا الغمر
بناه بآجرٍّ وساج وعرعر ... وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الأقطار سام بناؤه ... وثيق المباني من عقود ومن جدر
فسيح الرحاب يحسر الطرف دونه ... رقيق النسيم طيب العرف والنشر
وتنور فرعون الذي فوق قلة ... على شاهق عالٍ على جبل وعر
بنى مسجدًا فيه يروق بناؤه ... ويهدى به في الليل إن ضل من يسري
تخال سنا قنديله وضياءه ... سهيلًا إذا ما لاح في الليل للسفر
وعين معين الشرب عين زكية ... وغير أجاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيل في جنباتها ... تروح وتغدو بين مدٍّ إلى جزر
فأرقأها[٨] مستنبطًا لمعينها ... من الأرض من بطن عميق إلى الظهر
بناء لو انَّ الجن جاءت بمثله ... لقيل: لقد جاء بمستفظع نكر
يمر على أرض المعافر كلها ... وشعبان والأحمور والحي من بشر
قبائل لا نوء السحاب يمدها ... ولا النيل يرويها ولا جدول يجري
ولا تنس مارستانه واتساعه ... وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوَّامه وكفاته ... ورفقهم بالمُعْتَفِين ذوي الفقر
فللميِّت المقبور حسن جهازه ... وللحي رفق في علاج وفي جبر
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملًا ... إلى الحصن أو فاعبر إليه عن الجسر
ترى أثرًا لم يبق من يستطيعه ... من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وإن باد ربها ... ومجد يؤدي وارثيه إلى الفخر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعه ... أجل إذا ما قيس من قبتي حجر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته ... كما قام ليث الغاب في الأسَل السمر

أتته المنايا وهو في أمن داره ... فأصبح مسلوبًا من النهي والأمر
كذاك الليالي من أعارته بهجة ... فيالك من باب حديد ومن ظفر
وورث هرون ابنه تاج ماجد ... كذاك أبو الأشبال ذو الناب والهصر
وقد كان جيش قبله في محله ... ولكن جيشًا كان مستنقص العمر
فقام بأمر المُلْك هرون مدة ... على كظظ من ضيق باعٍ ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشح ... عقاربه من كل ناحية تسري
تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا ... كما ارفضَّ سلك من جمان ومن شذر
فمن يبكِ شيئًا ضاع من بعد أهله ... لفقدهم فليبك حزنًا على مصر
لِيبك بني طولون إذ بان عصرهم ... فبورك من دهر وبورك من عصر[٩]

ولهذا الشاعر أيضًا عدة قصائد في مدح الطولونيين يصف فيها ازدهار الحياة في مصر، وقوة البلاد في عصرهم وما كانت ترتع فيه من نعيم ورخاء.

على أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولونيين، وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التي نراها دائمًا في مدح شعراء العرب، لم يلبثوا أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة العباسيين الذين أبادوا ملك الطولونيين، وأخرجوا قوادهم ومواليهم فخلت منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولونيين التطريد والتشريد، فنرى شاعرًا كإسماعيل بن أبي هاشم قد مدح الطولونيين بعدة قصائد كقوله بعد أن دالت دولتهم:

قف وقفة بفناء باب الساج ... والقصر ذي الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيما إزعاج
كانوا مصابيحًا إذا ظلم الدجى ... يسري بها السارون في الإدلاج
وكأنْ وجوههم إذا أبصرتها ... من فضة مصبوغة أو عاج
كانوا ليوثًا لا يرام حماهم ... في كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم ... علمًا بكل ثنية وفجاج
وعليهم ما عشت لا أدع البكا ... مع كل ذي نظر وطرف ساج[١٠]

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطولونيين والإخلاص لهم ونراه قد استمر على وفائه وإخلاصه، يدلنا على ذلك شعره في ثورة محمد بن علي الخليجي،[١١] وكان أحد جند الطولونيين الذين أَسَرَهم محمد بن سليمان القائد، وسار بهم إلى الشام، وفي دمشق حدَّثت نفس ابن الخليجي أن يعود إلى مصر، ويعيد الطولونيين إلى ملكهم، وكاشف بذلك بعض أصفيائه فأجمعوا كلمتهم على ذلك، وساروا معه حتى استولوا على الرملة باسم إبراهيم بن خمارويه، واجتمع إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم جيوش عيسى النوشري الوالي حتى استطاع ابن الخليجي أن يستولي على الفسطاط في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وأرسل الخليفة المكتفي بالله جيشًا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك وغيره، فقاتلهم ابن الخليجي بمنية الأصبغ وهزمهم سنة ثلاث وتسعين ومائتين،[١٢] فمدحه الشعراء منهم إسماعيل بن هاشم بقوله:

أميرنا يابن البهاليل الغرر ... شفيت من عدونا أبي الأغر
صدورنا وقيت من كل حذر ... إذ جاء في الشوك إلينا والشجر
في جحفل كموج بحر قد زخر ... يتبعه أهل البوادي والحضر
صبرتَ إذ لاقيتَه وما صبر ... فمر في أسرع من لمح البصر
يقطر منه بَوْلُه قطر المطر ... أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيتنا من تركهم مع الخزر ... ثم عفا أميرنا لما قدر[١٣]

فهو هنا قد حفظ وفاء الطولونيين ولكن من الجائز أن يكون الشاعر قد مدحه خوفًا منه، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع الطولونيين وهو بخلاف الشاعر سعيد القاص، فقد رأينا قصيدته التي تحدث فيها عن الطولونيين، ومع ذلك فقد مدح القائد بدر الحمامي الذي هزم ابن الخليجي سنة ثلاث وتسعين ومائتين بقوله:

حالت معارفهم إلى إنكار ... وغدا الخميس لهم بيوم بوار
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا ... وتلاعنوا فيها كأهل النار
وأتوك بين معذر في عذره ... خجِل وبين مصرح الإقرار
وتزعزعت تلك الرماح فصوَّرت ... ركن المقطم في شفير هار
طلعت نجوم في الرماح يروحها ... فسقطن إذ طلعت نجوم قدار

لما انجلى ذاك الغبار رأيتهم صرعى وقد لبسوا بريم غبار
فاسعد بنصر الله والفتح الذي عظُمت به النعمى على الأبرار[١٤]

فهذا الشاعر متقلب في مدحه يمدح ذا السلطان والإمرة دون نظر إلى مبدأ أو عقيدة، مثله في ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبيشي الذي مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدي الطولونيين، فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بائية تكاد تكون نفس قصيدة أبي تمام التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فالشاعر المصري في قصيدته أخذ معاني قصيدة أبي تمام وأودعها شعره بل أخذ ألفاظ أبي تمام وصنع منها قصيدته، وفيها يقول:

الحمد لله إقرارًا بما وهبا قد لمَّ بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمَّدها وفرَّج الظلم والإظلام والكربا
لا ريب رُبَّ هياج يقتضي دعة وفي القصاص حياة تذهب الريبا
رمى الإمام به عذراء غادرة فاقتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمد بن سليمان أعزهم نفسًا وأكرمهم في الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرًا أضحى عرينهم الخطي لا القضبا
حُمَّ القضاء على اليحموم حين أتوا مثل الدبى يمتحون الدبة الدأبا
إيهًا علوت على الأيام مرتبة أبا علي ترى من دونها الرتبا
لما أطال بنو طولون خطبتهم من الخطوب وعافت منهم الخطبا
هارت بهرون من ذكراك بقعته وشيَّب الرعب شيبانًا وقد رعبا
وكم ترى لهم من جنة أنف ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنها من زمان غابر ذهبا[١٥]

ولأترك مقارنة هذه القصيدة المصرية بقصيدة أبي تمام المعروفة التي أنشدها في مدح المعتصم ويذكر فيها عمورية؛ إذ ليس هنا مجال البحث عن ذلك وأكتفي بالإشارة إليها، وأعود إلى الشاعر أحمد بن محمد الحبيشي فأقول: إنه كغيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب السلطان ويتغيرون بتغير الولاة والأمراء فهو في هذه القصيدة مدح عدو الطولونيين فلما استولى ابن الخليجي على مصر وأراد أن يعيد ملك الطولونيين نراه قد مدح الأمير لانتصاره على جيوش العباسيين بقوله:

غضبْتَ لمصر وما نالها ... وشردت بالحوف من غالها
تلافيتَها بعد إدبارها ... وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تؤوِّه شوقًا إليك ... وتظهر بالشوق بلبالها
وما شوقها كان من طبعها ... ولكن ربَّك أوحى لها
لقد فرَّج الله كرب النفوس ... وبَلَّغها فيك آمالها
ولما رأيناك في مصرنا ... منحنا الإمارة إجلالها
وما زلت تطلبها همة ... وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور ... إما عليها وإما لها
تمنوا لقاك فلما رأوك ... رأوا للمنية إظلالها
ومروا يطيعون في كل شيء ... رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العفاة ... وبحر الثغور التي عالها
به كانت الروم في أمنها ... تفزِّع للذنب أطفالها[١٦]

نستطيع من ذلك كله أن ندرك أن عددًا كبيرًا من الشعراء ظهروا في هذا العصر، وأنشدوا شعرًا في مدح الأمراء وأن كثيرًا منهم تقلب في المدح بتقلب الأحوال السياسية في البلد؛ إذ لا همَّ لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير.

على أنه وجد بعض الشعراء الذين اتخذوا لأنفسهم رأيًا خاصًّا، ومذهبًا دافعوا عنه غير آبهين بأمير أو سلطان، ففي الوقت الذي كان فيه أحمد بن طولون في منتهى قوته واتساع سلطانه، وفي الوقت الذي تقرب فيه الشعراء إليه وحاولوا إرضاءه وطمعوا في نواله وتحدثوا عن نعمه وأياديه على البلاد، في هذا الوقت نجد شاعرًا من شعراء الطولونيين هو محمد بن داود قد أكثر من هجاء ابن طولون فلم يأت الأمير عملًا إلا هجاه هذا الشاعر حتى إذا أقام الأمير المنشآت النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشآت

وسيلة لهجاء الأمير دون خوف، فمثلًا بنى الأمير المارستان سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر محمد بن داود بقوله:

ألا أيها الأغفال إيهًا تأملوا — وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة — تسير من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت — عليكم يد العلج السخيف المجهَّل
فيا ليت مارستانه نِيط باسته — وما فيه من علج عُتُل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره — تضج إلى قلب عن الله مغفل[١٧]

ولما بنى أحمد بن طولون المراكب الحربية واتخذ الحصن في الجزيرة هجاه الشاعر بن داود بقوله:

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا — ساقيه زرقًا إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنًا يستجن به — بالعسف والضرب والصناع في تعب
وراقب الجيزة القصوى فخندقها — وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة — فما سوى القار للنظار والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت — بالشط ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسبًا — لكن بناها غداة الروع للهرب[١٨]

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى تُوفِّي الأمير فلم يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط لسانه في الأمير حتى بعد وفاته، من ذلك قوله:

مضى غير مفقود وما كان عمره — سوى نقمة للخلق شنعاء صيلم
لقد زيد في اليحموم بالرجس لعنة — ولم يسقِ بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت — سرورًا ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه — عليه بأحمى بقعة في جهنم
لقد طهرت الأرض من سوء فعله — ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجداثه صوب مزنة — وأنى وفيها شر أولاد آدم[١٩]

ولا أدري سبب هذا الهجاء الذي لا أكاد أعرف مثيلًا له في الهجاء العربي؛ فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن هجاء الموتى، ولكن هذا الشاعر المصري كان موتورًا — كما يُخيَّل إليَّ — فلم يكفه أن يُظْهِر فرحه لموت الأمير بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها مما يدل على أن المصريين في هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى، وهو الأمر الذي لم نره في شعر المصريين قبل ذلك العصر.

وفي هذا العصر أيضًا ظهر في الشعر المصري فنٌّ لم نجد له مثيلًا في العصور السابقة، بل لا نجد له مثيلًا في الشعر العربي إلا في شعر الأندلسيين، فمؤرخو الأدب العربي قالوا إن الأندلسيين امتازوا برثاء الممالك والبلدان كلما اختطف عدوهم منها شيئًا، وأشاد مؤرخو الأدب بقصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثا بها دولة بني الأفطس والتي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

ومن يقرأ الشعر المصري في هذا العصر يجد أن هذا الفن كان معروفًا في مصر، وأن شعراء مصر أكثروا في الحديث عنه، فبعد أن دالت دولة الطولونيين، وعاد الأمر إلى الخليفة العباسي ودمرت القطائع، وخرب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين، وما بنوه، ويعددون مفاخرهم، ويصفون دورهم، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت الجليلة من التدمير والخراب، والترحم على الأيام الجميلة التي قضوها بين هذه المباني مثل قول الشاعر محمد بن طشويه:

من لم ير الهدم للميدان لم يره تبارك الله ما أعلاه واقْدَره
لو أن عين الذي أنشاه تبصره والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التي كانت تحل به وأين من كان بالإتقان دبره
وأين من كان يحميه ويحرسه من كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم وحط ريب البلى فيه فدعثره
وأخلق الدهر منه حسن جدته مثل الكتاب محا العصران أسطره
دكت مناظره واجْتُث جوسقه كأنما الخسف فاجاه فدمَّره

أو هبَّ إعصار نار في جوانبه فعاد معروفه للعين منكره
كم كان يأوي إليه في مقاصره أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
كم كان فيه لهم من مشرب غدق فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر! طوبى لمن خصه رشد فذكره[٢٠]

وقال إسماعيل بن أبي هاشم:

يا منزلًا لبني طولون قد دثرا سقاك صوب الغوادي القطر والمطرا
يا منزلًا صرتُ أجفوه وأهجره وكان يعدل عندي السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا؟[٢١]

وكقصيدة سعيد القاص التي مر ذكرها، فمن ذلك نستطيع أن ندرك أن الشعراء المصريين أخذوا بنصيب وافر من هذا الفن الذي لم يُكْثِر فيه غيرهم من شعراء الشرق، كما يدلنا أيضًا على تطور الشعر في مصر، فبعد أن كان الشعر المصري في العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربي في الأقطار الأخرى من حيث المعاني والخيال مع اختلاف المعاني والخيال باختلاف الحياة المصرية، وبعد أن كان الشعر شعر مناسبات — إن صح هذا التعبير — أصبح الشعر في عصر الطولونيين والإخشيديين يأخذ مظهرًا آخر لم نعرفه من قبل، وقد رأينا الشعراء في العصر السابق يأخذون مظهرًا آخر لم نعرفه من قبل، وقد رأينا الشعراء في العصر السابق يأخذون بحظٍّ وافر من الثقافات المختلفة، وبعضهم صاحبوا أئمة الفقه وأخذوا عنهم، تطور الشعراء في عصر الطولونيين فقد ترك أكثرهم العلم، واهتموا بالفن الشعري والتكسب به، حقيقة وُجِد بعض الشعراء في ذلك العصر أتقنوا كثيرًا من فنون العلم، فكان منهم الكتَّاب أمثال جعفر بن محمد بن جدار وصالح بن رشدين وغيرهما، وكان منهم المؤلفون أمثال ابن الداية الذي تحدثنا عنه، والحسن بن علي الأسدي صاحب كتاب الأنيس الذي وصفه بقوله:

فيه ما يشتهي الأديب من العلـ ـم وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معان ضاحكات إلى وجوه شموس[٢٢]

كما كان بين شعراء ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه والحداد القاضي، ومنهم المتكمون كابن الجبي الشهير بسيبويه المصري، وبالغ بعضهم في إطالة القصائد كالذي يُروَى عن قصيدة محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان الأسواني التي لا يُعلَم في الوجود أطول منها، سُئِل قبل موته بسنتين: كم بلغتْ قصيدتك إلى الآن؟ قال: ثلاثين ومائة ألف بيت، وقد ضمَّن قصيدته هذه كثيرًا من الأخبار وقصص الأنبياء وبعض العلوم والآراء الفقهية وعلوم الطب،[٢٣] وبالرغم من وجود هؤلاء الشعراء العلماء كان أكثر شعراء ذلك العصر يهتمون بالشعر دون غيره.

وفي الشعر المصري في هذا العصر كثير من الحكم والأبيات التي جرت مجرى الأمثال، وكثير من أشعار الزهد كالتي نراها في أشعار منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما.

(١) أثر اللهو في الشعر

والظاهرة التي يجب أن نلاحظها على شعراء هذا العصر هي انغماس الشعراء في تيار اللهو والمجون، فقد غمرهم الترف، فأخذوا بحظٍّ وافر منه، وكثر المجون في هذا العصر وازداد بازدياد ثروة البلاد، فرغب الشعب المصري في هذه الحياة الماجنة، والمصري بطبيعته ميَّال إلى الفكاهة والدعابة، وإذا ذُكِر في العراق جماعة أبي نواس ففي مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضي البقر شاعر الإخشيد، وأبي هريرة بن أبي العصام وغيرهم.

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بمصر بذخ الأمراء وإسرافهم وأَخْذِهم بحياة النعيم وشرب الخمر والإسراف في شربها وسماع الغناء واللهو بالجواري والقيان، كما كان يفعل خلفاء بني العباس.

فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداب الدين، وكثرة علمه، وما كان يُؤثَر عنه أنه كان يُبكِّر كل يوم فيخرج لسماع قراءة الأئمة في المحراب[٢٤] كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء، ويقرِّب المغنين.

حدثنا ابن الداية قال: قال أحمد بن أيمن: كنا عند أحمد بن طولون فقال لكنيز المغني: أشتهي صوتًا ما سمعته منذ خرجت من «سر من رأى»، فقال: وما هو يا سيدي؟ فقال هذا البيت:

ألا شفيتم غليلًا لا أفارقه نفسي فداؤك من ذي غلة صادي

فحملني النبيذ وما استهواني من تقريب أحمد بن طولون وإيناسه على أن قلت: أنا أُحْسِنه! ففرح ابن طولون، واندفعت أغنيه إياه — وكان أحمد بن أيمن ذا جثة عظيمة، وعقيرة جهيرة حسنة الإيقاع — فطرب طربًا شديدًا ثم صفق بيديه، فسبقته إلى سخف الطرب، وقمت فرقصت على إيقاع اللحن فزاد سروره.[٢٥]

وعُرِف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والمجون، والبذخ في الحياة والإسراف في الشراب حتى حدثنا التنوخي أن خمارويه كان إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلًا من نبيذ مصر المعروف بالشبروي، ومن يشرب منه رطلًا يستطيع أن يشرب من غيره أرطالًا،[٢٦] وهذا، لا شك، إسراف من التنوخي أيضًا، ولكنه يدلنا على أن خمارويه كان كلفًا بالشراب، ووُجِد بعض البلدان عرفت بصنع الخمور كمدينة أبوان (بالقرب من دمياط) كان أهلها نصارى ويُعمَل فيها الشراب الفائق فينسب إليها فيقال بوني.[٢٧]

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التي كان ينزح إليها الشعراء وغيرهم من أصحاب اللهو والمجون، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير عبدوس وغيره من الأديرة، كذلك ذهب المصريون إلى دير القصير ودير نهيا ودير مارحنا وغيرها، وكان خمارويه يذهب إلى دير القصير؛ إذ بنى لنفسه غرفة في أعلى الدير ذات أربع طاقات إلى أربع جهات، وكان يذهب إلى هذا الدير مظهرًا إعجابه بصورة مريم العذراء التي كانت في هيكل الدير، ويشرب على النظر إلى هذه الصورة.[٢٨] وكان الشعراء يذهبون إلى هذا الدير، ووصفوه في شعرهم، وذكروا طيبه ونزهتهم به، ثم لهوهم ومجونهم وأيامهم التي قضوها فيه؛ من ذلك قول أبي هريرة بن أبي العصام وكان من شعراء الإخشيديين وعاش حتى أوائل حكم الفاطميين:

كم لي بدير القصير من قصف مع كل ذي صبوة وذي ظرف
لهوت فيه بشادن غنج تقصر عنه بدائع الوصف[٢٩]

ويحدثنا المقريزي أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بهدم هذا الدَّيْر في رمضان سنة أربعمائة. أما دَيْر مارحنا فقد كان على شاطئ بركة الحبش وبقربه بئر تُعرَف ببئر نجاتي عليها جميزة يجتمع الناس إليها ويشربون عندها.[٣٠] ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا الدير الشاعر العباس بن البصري، قال عنه الشابشتي: وكان ابن البصري هذا من الخلعاء المجان، وله شعر يجري مجرى الهزل والطيب، وخدم أبا القاسم أونوجور بن الإخشيد فأحسن إليه وكساه، وصار يركب معه، وكان يلبس طيلسانًا أزرق يتشبه بالقضاة، وكان أونوجور قد حمله على برذون أصفر غليظ بطيء السير، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه قال لهم: صفوا لى موضعكم حتى ألحق بكم! وكان مليح المجالسة كثير النادرة، وكان يبيع الصيدلة في مسجد عبد الله بمصر.[٣١] وقد قال هذا الشاعر في دير مارحنا:

يا حامل الكأس أدرها واسقني ... قد ذعر الشوق فؤادي فانذعر
أما ترى البركة ما أحسنها ... إذا تداعى الطير فيها فصفر
أما ترى نوارها، أما ترى ... حسن مسيل مائها إذا انحدر
كأنما صفر الدنانير بها ... مبذولة ليس بها من متجر
كأنما الجوهر في ألوانه ... نُثِر في تلك النواحي فانتثر
كأنما كف جواد ولعت ... في ذلك الروض بتبديد البدر
وأبيض النرجس في أجفانه ... دمع الندى لولا التشاجي لقطر
ونظرة الورد إلى أترابه ... نظرة معشوق بلحظ منكسر
دعني فما أهلك إلا بالجوى ... ما عيشة العاشق إلا في كدر[٣٢]

ولابن البصري شعر كثير في الأديرة التي كانت بمصر لا سيما في دَيْر نهيا بالقرب من الجيزة، قال ابن فضل الله العمري عن هذا الدَّيْر: «وديرها — أي دير نهيا — هذا من أطيبها موضعًا، وأجلها موقعًا، عامر برهبانه وسكانه، وله في النيل منظر عجب؛ لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، ويزيد في حسن متنزهاته، فإذا تصرف الماء أظهرت

أرضه غرائب النوار، وعجائب الزهور المشرقة الأنوار وله خليج ينساب انسياب أرقم، وعليه شطوط كأنها بالديباج ترقم.»[٣٣] وفي هذا الدير قال ابن البصري:

يا من إذا سكر النديم بكأسه ... غريت لواحظه بسكر الفيق
طلع الصباح فأسقني تلك التي ... ظلمت فشُبِّه لونها بالزنبق
والْقَ الصباح بنور وجهك إنه ... لا يلتقي الفرحان حتى نلتقي
قلبي الذي لم يبق فيه هواكم ... إلا بقية نار شوقٍ قد بقي
أوما ترى وجه الربيع وقد زهت ... أنواره بنهاره المتألق
وتجاوبت أطياره وتبسمت ... أشجاره من ثغر زهرٍ مورق
لم يغدها طل الرذاذ ببرده ... حتى تفتح كل جفنٍ مطبق
والبدر في وسط السماء كأنه ... وجهٌ مليحٌ في قناع أزرق
يا للديارات الملاح وما بها ... من طيب يوم مر لي بتشوق
أيام كنت وكان لي شغلٌ بها ... وأسير شوق صبابتي لم يطلق
يا دير «نهيا» ما ذكرتك ساعةً ... إلا تذكرت الشباب بمفرقي
والدهر غضٌّ والزمان مساعدٌ ... ومقامنا ومبيتنا بالجوسق
يا دير «نهيا» إن ذكرت فإنني ... أسعى إليك على الخيول السبق
وإذا سئلت عن الطيور وصيدها ... وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
فالغر، فالكروان، فالقارور إذ ... يشجيك في طيرانه المتحلق
أَشَهِدتَ حرب الطير في غيطانه ... لما تجوَّق منه كل مجوَّق؟
والزُّمَّج الغضبان في رهط له ... ينحط بين مرعدٍ ومبرق
ورأيت للبازي سطوة موسر ... ولغيره ذل الفقير المملق
كم قد صبوت بغرتي في شرتي ... وقطعت أوقاتي برمي البندق
وخلعت في طلب المجون حبائلي ... حتى نسبت إلى فعال الأخرق
ومهاجر ومكاسر ومنافر ... قلق الفؤاد به وإن لم يقلق
لو عاين التفاح حمرة خده ... لصبا إلى ديباج ذاك الرونق
يا حامل السيف الغداة وطرفه ... أمضى من السيف الحسام المطلق
ارفق بعبدك لا تُطلْ أشجانه ... وارفق به يا صاحب الثغر النقي[٣٤]

ولم يقتصر اللهو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف الجميل الرقيق، وذكر الطرد والصيد كالذي رأيناه في قصيدة ابن البصري السابقة، بل نجد كثيرًا من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويذكرون مجونهم وفحشهم ويعرضون بالدين، فمثلًا الشاعر سعيد بن فاخر المعروف بقاضي البقر وكان شاعر الإخشيد وابنه،[٣٥] قال:

حي على الكأس في الصباح مطَّرحًا نصح كل لاح
وانتهب العيش ما تأتَّي فأنت منه على جناح
وأجرني من عقول قوم عموا عن الشرب والملاح
يا رب دعني بلا صلاح يا رب ذرني بلا فلاح
يدي مدى الدهر فوق ردف وراحتي تحت كأس راح[٣٦]

فهذا الشاعر المصري الذي أنشد مثل هذا الشعر لا يقل في الفجور والعبث عن أشد شعراء العراق مجونًا وفسقًا، فهو هنا قد تهكَّم بالدين ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين؛ مما يدل على أن حياة اللهو كان لها أثر كبير في شعراء ذلك العصر.

لم يكن قاضي البقر وحده الذي أنشد مثل هذا المجون والفحش، بل نجد الشاعر أبا هريرة أحمد بن أبي العصام وهو من شعراء أواخر الدولة الإخشيدية، وقيل إنه عُمِّر حتى شاهد عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي، قد انهمك في اللذات، وأسرف في اللهو، وأدمن على الشراب، فوصف الخمر ومجالس اللهو، وكان كزميله قاضي البقر متهاونًا في دينه، لم يخش صاحب زندقة، ولا سلطان أمير، وكان كزميله يتهكم بالدين، بل هو أشد تهكمًا من زميله بفرائض الإسلام:

مجلس لا يرى الإله به غيـ ـر مصلٍّ بلا وضوء وطهر
سُجَّد للكئوس من دون تسبيـ ـح سوى نغْمة لعود وزمر[٣٧]

إذن ظهر اللهو والمجون في الشعر المصري في هذا العصر، ولم يبال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد، ونعجب إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء على اتصال وثيق بالأمراء، فهل نفهم من ذلك أن أمراء مصر في هذا العصر تهاونوا بالدين إلى حد أنهم سمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا وينشدوا مثل هذا الأشعار؟

الواقع أن أمراء مصر في ذلك العصر قد أكثروا من الترف والنعيم، وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين في لهوهم ومجونهم، وشاركهم الشعراء والكتاب في اللهو، وإن كان الشعور الديني، والتمسك بأهداب الدين يعم البلاد، يحدثنا المقريزي أن أحمد بن طولون كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سمَّاهم المكبرين، يبيت منهم في كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل، ويكبرون ويسبحون، ويقرءون القرآن تطريبًا بألحان، ويتوسلون بقصائد زهدية، فلما ولي خمارويه أقرهم على حالهم، وأجراهم على رسمهم، وكان يجلس للشرب مع حظاياه في الليل وقيانه تغنين، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح في يده، وضعه بالأرض وأسكت مغنياته، وذكر الله معهم حتى يسكت القوم، لا يضجره ذلك، ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذة بالسماع،[٣٨] مما يدل على أن الشعور الديني كان متغلغلًا في نفس الأمير ولكنه كان يأخذ بحظه من اللهو، وشارك الشعراء أمراءهم في هذا اللهو وأخذ الشعراء يدعون بعضهم بعضًا على مجالس اللهو كما كان يفعل شعراء العراق؛ فالشاعر المصري عبد الله بن محمد بن أبي الجوع — وكان من شعراء الإخشيديين وعاش إلى أوائل الدولة الفاطمية، وصادق أبا الطيب المتنبي في مصر وروى عنه، وكان من أكبر علماء اللغة في عصره — دعا بعض إخوانه بقوله:

شعبان قد صار نضوا ... ولم نفد فيه لهوا
وليس ذلك منا ... جهلًا ولا كان سهوا
فبالمودة إلا ... بكرت للقصف عدوا
حتى نقوم فنَرْفُوا ... ما خرَّق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدي ... مسمَّن ظل يُشْوَى
له ثلاثون يوما ... يحبو إلى الضرع حبوا
لما انتزعت حشاه ... عوضته البقل حشوا
وقد عنيت بجام ... ملأته لك حلوى
وقهوة بنت كرم ... صفت من الذم صفوا
ما شعشعت قط إلا ... سطت على الهم سطوا
جنبتها كل وغد ... يمحو المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنصنا ... عذب الخلائق حلوا
وشادن ذي دلال ... يشدو فيلهيك شدوا

إمـــا غـــنـــاء وإمـــا   عجائبًا عنه تُروَى
حتى تظل بما فيــ   ــه من وقارك خلوا
وعـنـدنـا لـك ورد   يحدو المسرة حدوا
ريـحـانـه لا يُـوازَى   لـونًا وعطرًا وسروا
فما اعتذارك في أن   تفني زمانك صحوا
وأنـت بـعـد قـلـيـل   بالصوم والله تُطوَى[٣٩]

وهكذا أصبح الشعر المصري أداة للمراسلة بين الأصدقاء.

وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب، وهذا كله يدلنا على تطور الحياة المصرية، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها.

(٢) الطبيعة في الشعر المصري

ويظهر تطور الشعر المصري في هذا الفن الذي أجاده كثير من شعراء مصر في ذلك العصر، وهو فن الوصف، فالطبيعة وما فيها من جمال بعثت على إغراء الشعراء على وصفها، وشعراء مصر الذين لم يكن لهم نصيب في وصف جمال الطبيعة قبل عصر الطولونيين، أو قل إنه لم يصلنا عنهم شيء في الوصف قبل عصر الطولونيين، أصبح عندهم وصف الطبيعة فنًّا يُقصَد لذاته، بعد أن صقلت الحياة الجديدة مزاج الشعراء وصفتْ قريحتهم، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوي كان أقدر شعراء مصر في هذا العصر على الوصف، وكان له من فنه بل من حياته ما جعله في طليعة شعراء الوصف، فهو شاعر قال الشعر حبًّا في الفن الشعري، وعن طبيعة رجل فنان، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية، فاستطاع أن يمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة، وما فيها من جمال وبهاء فتأثر بما رآه، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذي فُتِن به، وأخذ في تشبيه الموصوف وسبغ عليه من الخيال، وألبسه ثوبًا يتفق مع مزاجه الشعري الفني، ففي وصفه للهلال قال:

وكـأن الـهـلال لـمـا تـبـدَّى   شطر طوق المرآة للتذهيب
أو كقوس قد انحنت أو كنُؤي[٤٠]   أو كنون في مهرق مكتوب[٤١]

ووصف البركة بقوله:

كم ليلة ساهرت أنجمها التي ... عرصات[٤٢] أرضٍ ماؤها كسمائها
قد سُيِّرت فيها النجوم كأنما ... فلك السماء يدور في أرجائها
أَحْسِنْ بها بحرًا إذا التبس الدجى ... كانت نجوم الليل من حصبائها!
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقة ... تبغي النجاء، ولات حين نجائها
تطفو وترسب في اصطفاق مياهها ... لا مستعان لها سوى إنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه ... قلب لها قد ريع في أحشائها[٤٣]

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها من أماكن اللهو، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع، ويتحدثون بطيبها وجمالها، ويترنمون بجمال طبيعتها، مما يدلنا على أن شعراء هذا العصر قد دقت شعورهم، ورق فنهم، فوصفوا الطبيعة وجمالها، ولا أشك أن شعرًا كثيرًا قد أنشد في الوصف، ولكن هذا الشعر فُقد، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة، وهي إن دلت على شيء فهي تدل على أن الشاعر المصري نظر حوله فرأى ما لم يره غيره، فأوحي إليه الشعر، ووصف ما رآه وما جال في خاطره، وصفا قربه إلى الطبيعة فأدركها، وفي هذا اللون من الفن يتجلَّى فن الشاعر المرهف الحس، الدقيق الشعور، الطبيعي الشعر، وهذا اللون نجده يغلب على شعراء هذا العصر مما يميزهم عن شعراء العصور السابقة فإنا لم نعهد شاعرًا من شعراء العصور السابقة قال مثل الذي أنشده الشاعر صالح بن موسى في وصف البركة:

أو ما ترى حسن الريا ... ض وما اكتسين من الزهر
وجه الربيع، وحبذا ... وجه الربيع إذا ظهر
الوشي ينشر، والملا ... حف والمطارف، والحبر
هذا البنفسج في الحدا ... د بغير حزن قد ظهر
وأتى البهار بصفرة ... فلكل حسن قد بهر
وكأن آذريونه ... كاسات خمر تبتدر
وكأنما المنثور عقـ ... ـد في جوانبه انتشر
والأقحوان فضاحك ... عن عسجد فيه درر

وشقائق النعمان كالـ أعلام ثم لمن نظر
وتورد الورد الذكيُّ وفاح مسكًا في السحر
وتجاوبت طير الغصو ن بكل لحن مشتهر
فمغرد حسن الغنا ءِ شدا وآخر قد زمر
وتسرقت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر[٤٤]

من ذلك كله نستطيع أن ندرك إلى أي حد تطور الشعر في مصر في هذا العصر. كما نلاحظ أن الشعراء عنوا بالمعاني كما أنهم عنوا بالألفاظ وتنسيقها وأكثروا من التشبيهات الرائعة التي أضافت إلى شعرهم جمالًا، كما نجد بعض الشعراء قد كلف بالزينة اللفظية وتعمَّدها كما كان يتكلفها أصحاب مسلم وأبي تمام، وفي حديثنا عن الشاعر ابن جدار سنجد كيف تلاعب هذا الشاعر باللفظ تلاعبًا غريبًا لم نجد له مثيلًا عند شعراء البديع.

(٣) أغراض أخرى للشعر

أما فنون الشعر التي طرقها شعراء مصر في هذا العصر فقد تحدثنا عن أكثرها كما أننا نجد شعرًا كثيرًا في الرثاء كقصيدة محمد بن الحسن بن زكريا في رثاء الإخشيد التي أولها:

في الرزايا روائع الأوجال والبرايا دريئة الآجال
وكذا الليل والنهار اعتبار للورى في تفكر الأحوال
كل شيء وإن تمادى مداه قصره للفناء أو للزوال[٤٥]

وكقول مهلهل بن يموت في رثاء الإخشيد أيضًا:

أي عز مضى من الإسلام! أي ركن أضحى حديث انهدام!
ذاق موتًا محمد بن طغج هو ليث الشرى وغيث الغمام
فقد الناس مُولي الإنعام فهمُ سائمون كالأنعام
مات رب العلا وراعي الرعايا والسرايا وكافل الأيتام[٤٦]

أما الهجاء فقد ذكرنا هجاء ابن أبي دؤاد في ابن طولون، وظهر في هذا العصر الهجاء بين الشعراء، كالذي كان بين صالح بن مؤنس، وعبد الله بن أبي الجوع،[٤٧] وفي هجائهما نرى شيئًا من الفحش كالذي في هجاء جرير والفرزدق، وهناك لون آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء، إنما كان هجاء بين العلماء كالذي رأيناه في العصور السابقة، وبخاصة هجاء القضاة، فابن سكرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضي المُتوفَّى سنة ٣٤٩هـ بقوله:

ولقد جنى قاضي القضا ... ة حسين نجل أبي الشوارب
هذا الذي هتك الشرا ... ئع بالبدائع والمثالب
هذا المضمِّر للفرو ... ج وللدماء بغير راكب[٤٨]

وبالرغم من أن القاضي محمد بن أحمد بن الحداد — الذي ولي قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة — كان عالمًا فقيهًا حتى قال عنه ابن زولاق: كان فقيهًا متعبدًا يُحْسِن علومًا كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والكنى والرواة والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب ويحفظ شعرًا كثيرًا، غير مطعون عليه في قول ولا فعل، مجموعًا على صيانة وطهارة، وكان من محاسن مصر، حاذقًا بعلم القضاء، حسن التوقيعات،[٤٩] بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصومه من الهجاء فقد رُميَت في ولايته رقعة في الجامع فيها أبيات شعر منها:

قولوا لحدادنا الفقيه ... العالم الماهر الوجيهِ
وليت حكمًا بغير عهد ... وغير عقد نظرت فيه
ثم أبحت الفروج لما ... وقعت فيها على البديه
هذي فعال حملت فيها ... وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذا ولست فيه ... بجائز من مخالفيه
أنكرت حالًا من ابن عمرو ... ما أنت فيه ومرتضيه
والمكر في الناس داء سوء ... والعُجْب أيضًا لمرتديه[٥٠]

ولم بلغت هذه الأبيات محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها:

ما يضر البحر أمسى زاخرًا إن رمى فيه صبي بحجر

والقاضي محمد بن بدر الذي ولي قضاء مصر ثلاث مرات آخرها سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، هجا زميله القاضي ابن الوليد — الذي عُزِل عن القضاء سنة ست وثلاثين وثلاثمائة — بقصيدة طويلة منها:

لو كنت تخشى قضيات المعاد لمَا ألفيت في كل أمر فاضح علما
أعمى عن الرشد في كل الأمور فقد أصبحت في الدين بين الناس متَّهما
يا ابن الوليد تدبَّرْ ما أتيتَ به ولا تكن للهوى مستكملًا عمما
لو كنت تعلم قول الحق معتقدًا أو كنت تخشى عذاب الله معتصما
لمَا استعنت بحماد اللعين وما رأيت أنت له في صالح قدما
جعلته كاتبا يمضي الأمور ولم يمسَّ في العلم قرطاسًا ولا قلما[٥١]

فهذا الهجاء يكاد يكون صورة لهجاء العلماء الذي رأيناه في العصر السابق للعصر الطولوني.

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة في مصر، وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها، وأن نقول إن مصر كانت عظيمة الحظِّ من العلوم الإسلامية والأدبية العربية، وساهمت في هذه الألوان المختلفة من الثقافات، فظهر الأدب المصري مصطبغًا بالصبغة المصرية الخالصة فاختلف الأدب المصري عن الأدب في الأقطار الإسلامية الأخرى.

(٤) الشعراء الوافدون

وكانت الحياة في مصر أيام الطولونيين والإخشيديين تجذب إليها شعراء وعلماء الأقطار الأخرى، وتحبب إليهم المقام في مصر أو الرحلة إليها، وسأحاول أن ألم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر.

المتنبي في مصر

إذا تحدثت عن المتنبي في مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الخشيدي ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له، هذا كله معروف متداول، حدَّث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين، وألموا بجميع نواحيه، ولكني سأحاول الحديث عما تركه الأدباء والمؤرخون ولم يتحدثوا عنه وهو أثرُ مصرَ في المتنبي وأثر المتنبي في مصر، فلا أشك أن المتنبي كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعرًا في بعض الشخصيات المصرية غير كافور الإخشيدي وفاتك، كما تحدِّثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبي وعاب شعره، وإذن فحياة المتنبي في مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته في حلب، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا في خدمة سيف الدولة الذين هاجموه واضطروه إلى الرحيل عنهم، وجد أمثالهم في خدمة أمير مصر فهاجموه واضطروه إلى الرحيل أيضًا.

وجد المتنبي في مصر خصمًا قويًّا في شخص الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة، الذي وزر لأنوجور بن الإخشيد ثم لأخيه أبي الحسن علي ثم لكافور إلى أن انقضت دولة الإخشيديين، وكان عالمًا محدثًا كما كان مكرمًا لأهل العلم والحديث وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطني وصنف له مسندًا، وكتب الدارقطني عنه مجالسه،[٥٢] كان يطمع ابن حنزابة في أن يمدحه المتنبي كغيره من الشعراء، وروى ابن خلكان أن المتنبي نظم قصيدته التي أولها:

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

في مدح الوزير ابن حنزابة، فلما لم يُرْضِه صرفها عنه ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة حوَّل القصيدة إلى مدح ابن العميد،[٥٣] فمعنى هذا أن الوزير كان حاقدًا على المتنبي؛ لأن الشاعر لم يمدحه، وكان الشاعر حاقدًا على الوزير؛ لأن الوزير لم يرضه، فكانت نتيجة ذلك أن أخذ الوزير يغري الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي، وكانت فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يحقدون على المتنبي ما بلغه من قوة الشعر وذيوع الصيت؛ فكثر حساد المتنبي في مصر، منهم أبو القاسم بن أبي العفير الأنصاري الشاعر، الذي قيل إنه كان في حضرة كافور الإخشيدي والوزير ابن حنزابة وأبي بكر بن صالح، وكان المتنبي حاضرًا ذلك المجلس، فعارض المتنبي قول الأنصاري:

نظر المحب إلى الحبيب غرام ... ...

فقال المتنبي: إن العرب لا تقول إليه غرام، وإنما تقول له.

فقال الأنصاري: تقول: إليه، ولديه، وله، وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض![٤٥] ويُخيَّل إليَّ أن أبا بكر بن صالح وابن حنزابة انتصرا للشاعر المصري؛ لأنه مدحهما وعرَّض بالمتنبي قوله:

أما الثناء فصادر بك وارد ... بادٍ بما تسدي إلي وعائد
لك يا أبا بكر إليَّ صنائع ... أيقظن أحوالي وجدي راقد
أَوْلَيْتني نعمًا متى أنكرتها ... شهدت علي مواهب وفوائد
وقصائد لي فيك لولا أنها ... كلم شهدت بأنهن مشاهد
ولهن في عين الولي شواهد ... تَتْرى وفي عين العدو جلامد
لما تعرَّض لي بمقت حاسدٍ ... أبدى الملام، وكيف يرضى الحاسد؟!
ما زال ينشد قائما حتى إذا ... أنشدتُ عارضني؛ لأني قاعد
في مجلس، أما الوزير فمنكب ... فيه يؤيده وأنت الساعد
ولى ولا أنا شاكر لسؤاله ... فيه ولا هو للإجابة حامد[٥٥]

وورد في كتاب الصبح المنبي وكتاب أخبار سيبويه المصري لابن زولاق أن محمد بن موسى الملقب بسيبويه كان يقول: مدح الناس المتنبي على قوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوًّا له ما من صداقته بد

ولو قال: ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود، واجتاز المتنبي به، فوقف عليه وقال: أيها الشيخ، أحب أن أراك. فقال له: رعاك الله وحياك. فقال له: بلغني أنك أنكرت عليَّ قولي: «عدوًّا له ما من صداقته بد.» فما كان الصواب عندك؟ فقال له: الصداقة مشتقة من الصدق في المودة، ولا يُسمَّى الصديق صديقًا وهو كاذب في مودته، فالصداقة إذن ضد العداوة، ولا موقع لها في هذا الموضع، ولو قلت: ما من مداراته أو مداجاته لأصبت، هذا رجل منا (يريد نفسه) قال:

أتاني في قميص اللاذ يسعى ... عدو لي يلقب بالحبيب

فقال المتنبي: أمع هذا غيره؟ قال: نعم.

وقد عبث الشراب بوجنتيه فصيَّر خده كسنا اللهيب
فقلت له: متى استعملت هذا لقد أقبلت في زيٍّ عجيب
فقال: الشمس أهدت لي قميصًا مليح اللون من نسج المغيب
فثوبي والمُدام ولون خدي قريب من قريب من قريب[٥٦]

فتبسم المتنبي وانصرف، وسيبويه يصيح عليه: أبكم الرجل وجلائل الله ...[٥٧] وهذا الشاعر الذي عارض المتنبي هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي، وُلِد بمصر سنة أربع وثلاثين ومائتين، وتُوفِّي في صفر سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة. كان عالمًا بعلوم القرآن والحديث أخذ عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم المنجنيقي والطحاوي وغيرهم، وكان يعرف من النحو والغريب ما لُقِّب بسببه بسيبويه، وتفقه على مذهب الشافعي وتَلْمذ لأبي بكر بن الحداد، وأخذ علم الاعتزال عن الواسطي وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك، وكان يظهر الكلام في الاعتزال في الطرق والأسواق فيحتمل لما هو عليه، وكان شاعرًا من فحول الشعراء جالس أنوجور بن الإخشيد أمير مصر، والحسين بن محمد المادرائي وزير مصر، ونادمهما، كما كان محبوبًا عند جميع المصريين.[٥٨]

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي، وُجِد آخرون صحبوا المتنبي وأخذوا عنه، وحدثنا الثعالبي عن كثير منهم أمثال عبد الله بن محمد بن أبي الجوع،[٥٩] وصالح بن رشدين الكاتب وكان أحد أئمة الكتَّاب المهرة في سائر الآداب، صَحِب المتنبي وروى شعره.[٦٠]

إذن انقسم الشعراء في مصر بين حاسد للمتنبي وبين صديق له يروي عنه، كما انقسم أمراء مصر في أمره، فكان ابن حنزابة الوزير ساخطًا عليه؛ لأن الشاعر لم يمدحه؛ ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه لكافور، فقد قيل إن المتنبي قصد الوزير بقوله:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نَبَطيٌّ منَ اهل السواد يدرِّس أنساب أهل الفلا[٦١]

أراد بالنبطي الوزير ابن حنزابة، بينما مدح المتنبي رجلًا من قيس هو عبد العزيز الخزاعي زعيم أهل الحوف، وهو الذي هيَّأ للمتنبي وسائل الهروب من مصر؛ ولذلك قال فيه المتنبي:

لئن مر بالفسطاط عيشي فقد حلا بعبد العزيز الماجد الطرفين
تناول ودي من بعيد فناله جرى سابقًا في المجد ليس برين

إذن اتصل المتنبي بالمصريين، كما ألقى عليهم بعض العلوم في مصر، ويحدثنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبي قرأ كتاب «المقصور والممدود» لابن ولاد، وأنه أخذ على مؤلفه غلطات وأن المتنبي أملى على المصريين ما أخذه على ابن ولاد من أخطاء. فإن صح هذا الخبر فإنه يدل على أن المتنبي لم ينقطع عن المصريين كما زعم القدماء بل كان يشارك في الحياة العلمية والأدبية في مصر.[٦٢] وتحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلًا عن أثر مصر في شعره، المتنبي،[٦٣] فذهب إلى أن مصر اضطرت المتنبي إلى أن يعرف شيئًا من الهدوء، وإلى أن يكثر التفكير وإمعان النظر في الحياة وإلى أن يحاول أن يستقصي أسرار الحياة، فظهر في شعره في مصر رنة حزن وشكوى الدهر ثم ينتهي به الأمر إلى لون من السخرية بالدهر وحوادثه وإلى الاستهزاء بكل ما يمر به في الحياة، وأن يهزأ بالناس وبالمجتمع وبأمير مصر الذي كان رفعه في شعره، وقد أسهب أستاذنا الجليل الدكتور طه بك في ذلك كله فلْيُرجَع إلى كتابه الممتع ففيه كل غناء.

الناشئان الأكبر والأصغر

أما الناشئ الأكبر، فهو أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير أو الناشئ الأكبر، ولد بالأنبار، وأقام زمنًا طويلًا ببغداد، وبها أنشد جلَّ شعره، وتلقى علومه التي عُرِفَ بها، وتكسَّب بهذه العلوم؛ فذاع فضله، وانقاد له الشعر وفنونه، حتى استطاع أن يعارض أشعار القدماء، وباتساع علمه في الكلام استطاع أن ينقض علل النحاة، فرماه أعداؤه بالوسوسة، ووشوا به، فخاف قوة أعدائه، فخرج إلى مصر يتَّجر بعلومه.[٦٤] لم نعلم أن الناشئ الأكبر اتصل بأمير من أمراء مصر؛ إذ أخذ من علمه وقوة فطنته مكتسبًا يغنيه عن سؤال الأمراء، فمكث في مصر يعلِّم ما حَذِقه حتى سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته كما كان بائسًا في حياته، فلم يُعنَ بشعره أحد حتى ضاع ديوانه، ولم يصلنا من شعره إلا النزر اليسير، مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشئ الأكبر يُعدُّ في طبقة ابن الرومي والبحتري وأنظارهما،[٦٥] ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء بسعة اطلاعه في العلوم، وكان أستاذ أبي الحسن الأشعري المعتزلي صاحب المذهب المعروف، وقد وصلنا شيء من نظمه في الكلام يدلنا على مقدرته واطلاعه، فمن ذلك قوله:

ونحن أناس يعرف الناس فضلنا بألسننا زينت صدور المحافل
تنير وجوه الحق عند جوابنا إذا أظلمت يومًا وجوه المسائل
صمتنا فلم نترك مجالًا لصامت وقلنا فلم نترك مقالًا لسائل[٦٦]

ويروي البغدادي في تاريخه أن للناشئ قصيدة واحدة في فنون من العلم على رويٍّ واحد تبلغ أربعة آلاف بيت، وروى ابن كثير في «البداية والنهاية» قصيدة للناشئ في نسب الرسول ﷺ وهي طويلة تبلغ نحو ألف بيت، ووصفها ابن كثير بقوله: «وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته، وعلمه وفهمه، وحفظه وحسن لفظه، واطلاعه واضطلاعه، واقتداره على نظم النسب الشريف في سلك شعره، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره.»[٦٧] وأورد الحصري في كتابه «زهر الآداب» مقالًا من كتاب للناشئ في الشعر، أوضح فيه معنى الشعر وأغراضه.[٦٨]

ولست أدري أي شعر الناشئ قيل في مصر، وأي كتبه التي ذكرها المؤرخون أُلِّفت بها، ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية في مصر كان لها أثر كبير في هذا الشاعر، وربما أنشد الناشئ بمصر بعض أشعاره في الصيد، فقد رأينا شعراء مصر في هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقطم للمطاردة والصيد، وقالوا أشعارًا في ذلك، فربما قلدهم الناشئ وتحدَّث في جوارح الصيد وآلاته، وما يتعلق به، وربما أخذ كشاجم شيئًا من أشعار الناشئ مستشهدًا بها عندما وضع كتابه في المصايد والمطارد.

أما الناشئ الأصغر فهو علي بن عبد الله بن وصيف، وكان متكلمًا بارعًا كسميه،[٦٩] أخذ علم الكلام عن أبي سهل بن نوبخت المتكلم، كما كان من كبار الشيعة، وفد على الكوفة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وأملى شعره بجامعها، وكان المتنبي وهو صبي يحضر مجلسه،[٧٠] ووفد على سيف الدولة بحلب ومدحه، ويحدثنا ياقوت أن الناشئ

الأصغر قصد كافورًا بمصر وامتدحه، وامتدح ابن حنزابة وكان ينادمه،[٧١] ولكن لم يصلنا شيء من شعره في مصر، وتُوفِّي سنة ست وستين وثلاثمائة ببغداد.

كشاجم

وفد على مصر في ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم، وهو من أهل إقليم الرملة الذي كان تابعًا لمصر في ذلك العصر، ونفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات، وكان كلما بعد عنها حنَّ إليها، وإلى ما بها من رياض وحوائط، وإلى حياة اللهو والمجون مما تصبو إليه نفس كشاجم الماجنة:

قد كان شوقي إلى مصر يؤرقني ... فاليوم عدت وعادت مصر لي دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبًا ... طورًا وطورًا أرجي السبر أطوارا
بينا أسامي رئيسًا في رئاسته ... إذ رحت أحسب في الحانات خمارا
أما الشباب فقد صاحبت شرهم ... وقد قضيت لباناتٍ وأوطارا
من شادن من بني الأقباط يعقد ما ... بين الكثيب وبين الخصر زنارا[٧٢]

أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التي كانت بمصر، وذهب كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة، ففي دير القصير كان كشاجم يتصيد الظباء لطعامه، أو ليتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه، بين عزف القيان وغنائهن.

سلامٌ على دير القصير وسجنه ... فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهن مآرب ... وكانت مواخيري ومنتزهاتي
هنالك تصفو لي مشارب لذتي ... وتصحب أيام السرور حياتي[٧٣]

فهذا يدلنا على أن الشاعر اختلط بالمصريين، ولها كما لهوا، والتمس من مجونهم ما تحدَّث به في هذا الشعر، وتأثر بالبيئة المصرية الخالصة فوصفها في شعره.

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان مكتسبًا بشعره، ولا ندري بمن اتصل من المصريين، وإن كنت أرجح أنه مدح كافورًا ثم عاد فهجاه، وعرَّض به في أشعاره، فقد قيل إن الشاعر كان له غلام اسمه كافور فكان يهجو غلامه ويعرِّض بالأمير:

حكيت سميك في برده وأخطأك اللون والرائحة

كذلك هجا القاضي عبد الله بن محمد بن الخصيب المتوفى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وكان القاضي قد اشترى دارًا كبيرة، وعمرها، وأقام فيها دعوة عظيمة فقال كشاجم:

اشترى الدار الكبيرة ودعا فيها الوكيره
صغَّر الباب وفي تصـ ـغيره أشأم طيره
قبره لاشك فيها بعد أيام يسيره[٧٤]

وقال فيه أيضًا:

قبح الله الخصيبي فما أقبح أمره!
اشترى الدار التي كا نت قديمًا لابن شعره
وهي الدار التي يبـ ـتز فيها الله عمره
لا يتم الحول حتى يجعل المجلس قبره[٧٥]

ومهما يكن من شيء فإن كشاجمًا كان فقيرًا، متكسبًا بشعره، ولكنه لم يستطع أن يفوز بالمال الذي كان يريده، ولعل غروره واعتقاده بأنه نابغة عبقري، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأدبًا، لعل هذا كله كان سببًا في شقائه، فقد زعم أنه نبي الشعر:

على أني نبي الشعـ ـر قد جئت على فتره

ويخيل إلي أن كشاجمًا اتخذ مصر مقرًّا له، فقد ترك بها أولاده وأسرته، فقد روى الثعالبي أن الشاعر المصري الهجاء صالح بن مؤنس هجا ابني كشاجم أبا النصر وأبا الفرج بقوله:

يا ابني كشاجم أنتما مستعملان مجربان
مات المشوم أبوكما فخلفتماه على المكان
وقرفتما في عصرنا ففعلتما فعل القران
لغلاء أسعار الطعا م وميتة الملك الهجان[٧٦]

ووفد على مصر في ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراعة الشاعر الذي اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها، وقد ذكرنا أنه كان صديقًا وفيًّا لابن الداية، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية في العراق.

كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم، وقد يطول بنا الأمر لو تحدثنا عنهم جميعًا، كما رحل عدد كبير من شعراء المصريين إلى الأقطار الأخرى، فالشاعر المغنم المصري أبو الحسن محمد بن سلمى الشيباني كان من شعراء سيف الدولة،[٧٧] ورحل كثير من العلماء في طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى، فكانت الرحلة في طلب العلم من أكبر المؤثرات التي ساعدت على انتشار الثقافات المختلفة، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية.

(٥) لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار، ذكره الصولي في كتاب «أخبار شعراء مصر» وقال: لم يكن بمصر مثله، كثير الشعر حسن البلاغة، عالم، له ديوان شعر، ومكاتبات كثيرة حسنة ...[٧٨] كان كاتبًا من كتاب الطولونيين، وشاعرًا من شعرائهم، واختص بالعباس بن أحمد بن طولون، فكان ينهي إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون، ويروي الحصري: أن أبا حفص عمر بن أيوب، كاتب أحمد بن طولون، قال لابن جدار: يا أبا جعفر، إنما مجلس المُدام مجلس حرمة، وداعية أنس، ومسرح لبانة، ونداؤهم، ومرتع لهو، ومعهد سرور، وإنما توسطته عند من

لا يتهم غيبه، ولا يخشى عتبه، وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل، أعز الله أمره، من أخبار مجالستي، فلا تفعل! ... فاعتذر ابن الجدار وحلف ما فعل، وقام من مجلسه.[٧٩]

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير في عصيان العباس بن أحمد بن طولون، فقد قيل إن العباس لما همَّ بالانخلاع عن طاعة أبيه، كان مرتبك الرأي، ولكن ابن جدار أنشده قصيدة يحرِّضه فيها على العصيان، وجاء في هذه القصيدة:

إذا هممت فلا ترجع وقم وثب فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب[٨٠]

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار، وخرج معه إلى برقة، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الثائر وأصحابه الذين أيَّدوه في حركته، بل الذين دفعوه إليها، فبُنيَت دكة عظيمة رفيعة السمك، وأحضر ابن جدار من خاصة العباس، فضرب ثلاثمائة سوط، وقطعت يداه ورجلاه، وألقى من الدكة سنة ثمانٍ وستين ومائتين.[٨١]

كان ابن جدار صاحب لهو، يميل إلى المجون، مع أن غزله الذي وصلنا يدلنا على أنه عفيف، مع رقة وعاطفة، من ذلك قوله في قَيْنَة أُعْجِب بها وفتن بجمالها وطرب لصوتها:

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن
ترنو بعينين من ليانهما من وسن في جفونها وسن
غنَّت فلم يبق فيَّ جارحة إلا تمنت لو أنها أذن[٨٢]

ومع ميله إلى اللهو نراه قد أظهر شدة تدينه في بعض أشعاره، فكان يطلب العفو، ويستغفر ربه، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار في الزهد هي من قول ابن جدار:

يا رب لي ألف ألف ذنب إن تعف يا رب فاعف جما
فابرد بعفو غليل قلب كأن فيه رسيس حمى[٨٣]

ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلاعبه بالألفاظ وتشبيهاته، ولكن لم يصلنا من ديوانه الذي حدَّثنا عنه ياقوت عن الصولي إلا عدة أبيات قليلة مبعثرة في الكتب، ومن شعره الذي أظهر فيه صنعته البيانية، وتكلفه في قول الشعر حتى إن ابن عبد ربه قال عندما روى هذا الشعر: وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد في غرائبه وبديع صنعته، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون:[٨٤]

وطفلة رخْصة المرائي ... ليست تجلى ولا تسمَّى
إلَّا وسلك من اللآلئ ... تعجز من يخرج المعمَّى
من طفلة بضَّة لعوب ... تلقاك بالحسن مستتما
منهن ريا وكيف ريا ... ريا إذا لاقت المشمَّى
تسحب ذيلين من خلوق ... قد أفنيا زعفران قما
كأنما أحنيا عليها ... من طِيب ما بشرا وشما
فألفيا زعفران قم ... فانغمسا فيه واستحما
فهل تظن اسمها المريا ... يفوح لا مرطها المذما
هيهات يا أخت أهل يما ... غلطت في الاسم والمسمى
لو كان هذا وقيل سم ... مات إذا من يقول سما
قد قلت إذ أقبلت تهادى ... كطلعة البدر أو أتما
لو كنت ممن لكنت مما ... لكنني قد كبرت مما
عاتبني الدهر في عذاري ... بأحرف فارعويت لما
قوِّس ما كان مستقيما ... وابيضَّ ما كان مُدْلهما
وكيف تصبو الدمى إلى من ... كان أخًا ثم صار عما
لي عنك يا أخت أهل يم ... شغل بما قد دنا وحما
فلست من وجهك المُفدَّى ... ولست من قدك المحمَّى
أذهلني عنك خوف يوم ... يحيا له كل ما أرما
ما كسبته يدي رهينا ... خيرًا وشرًّا أصبت ثما
تحشر فيه الجنان زفا ... وتحشر النار فيه زما
تقول هذي لطالبيها ... هيت، وهذي لهم هلما
نفسيَ أولى بأن أذما ... من أمرها كل ما استذما[٨٥]

ففي هذه القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ مما أضعف المعنى وشوَّهه، كما تظهر لنا وحدة القصيدة في الشعر المصري، وعدم استقلال المعنى في كل بيت كما ظن القدماء في الشعر العربي.

منصور الفقيه

هو منصور بن إسماعيل بن عمر أبو الحسن التميمي المصري الضرير، كان إمامًا في الفقه، وفقه الشافعي على الأخص،[٨٦] ووضع مؤلفات في المذهب الشافعي منها «الواجب والمستعمل» والمسافر والهداية وغير ذلك.[٨٧] اتفق ابن خلكان وياقوت[٨٨] على أن الشاعر ولد في رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيرًا، وأخذ فيها جميع علومه كما أنه أنشد بها جل أشعاره، وصار له منزلة رفيعة عند القاضي أبي عبيد، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم للمذاكرة والمحادثة، ولكن حلَّ البُغْض محلَّ هذا الود، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية، فقد قيل إن أبا عبيد كان له كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلًا من أهل العلم، وفي عشية منصور حدث بينهما مجادلات، انتهت بخصام العالمين، فتعصب الأمير «ذكا» وجماعة من الجند لمنصور، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الربيع الجيزي للقاضي، ثم حدث أن شهد ابن الربيع الجيزي على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه، فقال القاضي: إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الربيع ضربت عنقه، فخاف منصور خوفًا شديدًا حتى اعتل ومات سنة ست وثلاثمائة،[٨٩] وقيل إنه كان حول نعشه آلاف من الجند، أظهروا سب القاضي، وقذفوه، وندم القاضي نفسه على ما كان منه وتأسَّف على ما فاته من منصور.

رحل منصور إلى العراق؛ حيث اتصل بالخليفة المعتز العباسي ومدحه بقوله:

ما واحد من واحد أولى بمجد أو مروة
ممن أبوه وجده بين الخلافة والنبوة[٩٠]

وكل الرواة يجمعون على جزالة شعره وجودته، وأنه لم ينشد قصائد مطولة، بل كل شعره مقطعات، روى الحصري عن شعره: «وهو عالي المقطعات، لا تزال تندر له

الأبيات مما يستظرف معناه ويستحلى مغزاه، ويبقى سناه.»[٩١] وأورد له الثعالبي كثيرًا من الأبيات التي جرت مجرى الأمثال؛ لدقة معانيها كقوله:

شاهدِ ما في مضمري من صدق ودي مضمرك
فما أريد وصفه قلبك عني يخبرك[٩٢]

وكقوله:

من قال لا في حاجة مطلوبة فما ظلم
وإنما الظالم من يقول لا بعد نعم[٩٣]

وعاب عليه بعض المصريين التفقه فأجابهم:

عاب التفقه قوم لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر[٩٤]

ويُخيَّل إلي أن الشاعر كان يكذِّب التنجيم الذي كان منتشرًا بين طبقات الناس، وظهر ذلك في شعره:

من كان يخشى زحلا أو كان يرجو المشتري
فإني منه وإن كان أبي منه بري[٩٥]

وكقوله:

إذا كنت تزعم أن النجوم تضر وتنفع مَنْ تحتها
فلا تنكرنَّ على من يقول بأنك بالله أشركتها[٩٦]

من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه، وعلومه الإسلامية الخالصة التي تنكر مثل هذه الأقوال التي انتشرت بين الناس، ولا شك أن مثل هذا الرجل كان بعيدًا كل البعد عن حياة اللهو التي جرفت أكثر شعراء مصر، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء العلماء الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة في عصره.

(٦) ابن طباطبا

كان بمصر بعض سلالة علي بن أبي طالب، وأقاموا بها مكرَّمين معززين، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء، لا يعنيهم من أمر البلد السياسي شيء، فركنوا إلى الآداب والعلوم، وأخذوا من هذه وتلك، وأنشدوا الشعر ورووه، فمن أعظمهم شأنًا في ذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب،[٩٧] كان عالمًا فاضلًا، وإليه كانت نقابة الطالبيين بمصر،[٩٨] كما كان شاعرًا، وكان ابناه أبو محمد القاسم بن أحمد وأبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد شاعرين،[٩٩] وكان ابن ابنه الحسين بن إبراهيم شاعرًا، وقد روى لهم صاحب يتيمة الدهر بعض أشعارهم، وإذن نستطيع أن نعد أسرة بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر، ولكن أكثر شعراء هذه الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي نؤرخه — وسنعرض للحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصري في عهد الفاطميين — ويكفي أن نتحدث عن أبي القاسم أحمد بن محمد. درس هذا الشاعر الآداب وأكثرَ من إنشاد الشعر، وظهر أثر دراساته في شعره، فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبي تمام في الإكثار من الزينة البديعية، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البيانية، وأكثر شعره الذي وصلنا في الغزل، والغزل المبني على القصص حتى يُخيَّل إلينا أن الشاعر كان متأثرًا بمذهب عمر بن أبي ربيعة، ولكنه يختلف عن عمر، فقد كان عفيفًا في شعره، وهذا أمر طبيعي لمن كان في مثل مكانته الأدبية والدينية، فغزله يقوم على الوصف والحوار دائمًا كقوله:

عيَّرتني بالنوم جورًا وظُلما قلت: زدت الفؤاد همًّا وغما
لم أنم لذة، ولا نمت إلَّا طمعًا في خيالكم أن يلما[١٠٠]

وكقوله أيضًا:

قالت: أراك خضبت الشيب، قلت لها: سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجُّبها تكاثر الغش حتى صار في الشعر![١٠١]

ويُخيَّل إلي أن ابن طباطبا أُصِيب بفقد حبيب عزيز لديه؛ إذ ظل يذكره حينًا بعد حين، ويكثر من الحديث عنه في شعره، فقال مرة:

خليلي إني للثريا لحاسد وإني على صرف الزمان لواجد
أيبقى جميعًا شملها وهي سبعة وأفقد من أحببته وهو واحد
كذلك من لم تخترمه منية يرى عجبًا فيما يرى ويشاهد[١٠٢]

وقال مرة أخرى:

لا والتي تركتْني يوم فرقتها كأنما الرمل في عينيَّ منثور[١٠٣]

وقال مرة ثالثة:

ما اخترت تبديل المودة ساعة بعد الذي هجر الحمى وجفاني[١٠٤]

ومن يدري لعل هذه الأشعار قيلت في زوجه التي تكون قد تُوفِّيت وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها.

ولابن طباطبا بعض المقطعات في الخمر كقوله فيها:

يا بدر بادر إليَّ بالكأس فرُبَّ خير أتى على يأس
ولا تقبل يدي فإن فمي أولى بها من يدي ومن رأسي
لا عاش في الناس من يلوم على حبي وعشقي لأحسن الناس[١٠٥]

وكقوله:

قل للذي حسنت منه خلائقه باكر صبوحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعًا ومفترقًا يسير هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقًا يودعه قبل الفراق فآلى لا يفارقه[١٠٦]

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدر شعراء مصر في هذا العصر في وصف الطبيعة ومحاكاتها، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله يهيم إلى أحضان الطبيعة يناجي من غاب عنه؛ ليأخذ من الطبيعة سلوة، انظر إلى قوله:

رب ليل صحبته كاسف البا ل كئيبًا حليف همٍّ شتيت
تحت سقف من الزمرد قد رصـ ـع حسنًا بالدر والياقوت

اختلف المؤرخون في وفاة ابن طباطبا، فذكر ابن سعيد عن القرطي أنه تُوفِّي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة،[١٠٧] ونقل ابن خلكان عن المسبحي أنه تُوفِّي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة،[١٠٨] وقال صاحب «مطالع البدور في منازل السرور»: إنه تُوفِّي سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة.[١٠٩]

هوامش

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص١٢٤.

(٢) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج الذي أسر الخليفة المعتمد أثناء فراره من الموفق في طريقه إلى ابن طولون.

(٣) الكندي: ص٢٢٧.

(٤) هو صاعد بن مخلد الذي ساعد ابن كنداج في أسر المعتمد.

(٥) الكندي: ص٢٢٨، وقد وردت الأبيات الثلاثة الأولى في النجوم الزاهرة: ج٢، ص٢٠، غير منسوبة لأحد في رثاء ابن طولون، وهذا خطأ كما يفهم من الشعر.

(٦) الكندي: ص٢٣٦-٢٣٧.

(٧) الجزء الثالث من كتاب المغرب (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

(٨) في القاموس أرقأ: أصلح وفسد من الأضداد.

(٩) خطط المقريزي: ج٢، ص١١٩.

(١٠) الخطط: ج٢، ص١١٩ والكندي: ص١٣٢–٢٥٣.

(١١) سُمِّي هذا الرجل في الكندي ص٢٥٩ بابن الخيلج وفي المقريزي: ج٢، ص١٢٤، ولكن صاحب النجوم الزاهرة: ج٣، ص١٩٢ سمَّاه الخلنجي، وفي مروج

الذهب: ج٤، ص٢١٧ سُمِّي بالخليجي وكذلك في تاريخ الطبري: ج١١، ص٣٩٣، والذي يصح عندي أنه ابن الخليج أو الخليجي لقول الشاعر في مدحه:

وكان أبوك خليج العفاة وبحر الثغور التي عالها

(١٢) النجوم الزاهرة: ج٣، ص١٥١ وما بعدها.
(١٣) الكندي: ص٢٥٩.
(١٤) الكندي: ص٢٦١.
(١٥) خطط المقريزي: ج٢، ص١١٨ والكندي: ص٢٤٨.
(١٦) الكندي: ص١٦٠.
(١٧) شرحه.
(١٨) خطط المقريزي: ج٣، ص٢٩٣ والكندي: ص٢١٨.
(١٩) الكندي: ص٢٣٢.
(٢٠) خطط المقريزي: ج٢، ص١٢١ والكندي: ص٢٦٣.
(٢١) شرحه: ج٢، ص١٢٢ والكندي: ص٢٦٦.
(٢٢) يتيمة الدهر للثعالبي: ج١، ص٣٢٧.
(٢٣) فوات الوفيات للصفدي: ج١، ص٤٤٤ نسخة خطية بالمكتبة التيمورية.
(٢٤) الأذكياء لابن الجوزي: ص٤٩ (طبع سنة ١٢٧٧هـ).
(٢٥) سيرة ابن طولون لابن الداية: ص٤٩.
(٢٦) نشوار المحاضرة للتنوخي: ص٢٦١.
(٢٧) معجم البلدان: ج١، ص٩٣.
(٢٨) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبي الحسن الشابشتي نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٢٩) يتيمة الدهر للثعالبي: ج١، ص٣٢١.
(٣٠) ورقة ١٢٦ من كتاب الديارات.
(٣١) ورقة ١٢٠ من كتاب الديارات.
(٣٢) ورقة ١٢٨ من كتاب الديارات.
(٣٣) مسالك الأبصار: ج١، ص٣٦٢.
(٣٤) ورقة ١٢٩ و١٣٠ من الديارات.

(٣٥) المغرب في حلى أخبار المغرب: ص١٠٣.
(٣٦) المغرب: ص١٠٣.
(٣٧) المغرب: ص١٩٤.
(٣٨) الخطط: ج٢، ص١٠٩.
(٣٩) يتيمة الدهر: ج١، ص٣١٤.
(٤٠) النؤي: الحفير حول الخباء أو الخيمة لمنع السيل.
(٤١) المغرب: ص٥٠.
(٤٢) عرصات وعراص وأعراص: جمع عرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.
(٤٣) حلبة الكميت: ص٣٣٩ (مطبعة الوطن ص١٢٩٩هـ).
(٤٤) الديارات للشابشتي ورقة ١٢٨ وما بعدها.
(٤٥) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب للنويري: ج٥، ص١٨٤.
(٤٦) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب للنويري: ج٥، ص١٨٦.
(٤٧) يتيمة الدهر: ج١، ص٩٠٣ وما بعدها.
(٤٨) الكندي: ص٥٤٦.
(٤٩) شرحه: ص٥٥١.
(٥٠) شرحه: ص٥٥٦.
(٥١) الكندي: ص٥٧٠.
(٥٢) راجع ترجمته في ياقوت: ج٧، ص١٦٣ (طبعة فريد رفاعي بك) وابن خلكان: ج١، ص١١٠.
(٥٣) ابن خلكان: ج١، ص١١١.
(٥٤) يتيمة الدهر: ج١، ص٣٣٣.
(٥٥) شرحه.
(٥٦) يفهم من كتاب الصبح المنبي أن هذه الأبيات لسيبويه المصري، ولكن هذه الأبيات وردت في يتيمة الدهر: ج١، ص٣٣٨ منسوبة إلى محمد بن عباس البصري.
(٥٧) الصبح المنبي: ص٦٣، وأخبار سيبويه المصري لابن زولاق نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ.
(٥٨) راجع أخبار سيبويه المصري في معجم الأدباء، ويتيمة الدهر، وكتاب أخبار سيبويه المصري.

(٥٩) يتيمة الدهر: ج١، ص٣١٤.
(٦٠) شرحه: ص٣١٧.
(٦١) مسالك الإبصار للعمري نسخة خطية بدار الكتب المصرية، وابن خلكان: ج١، ص١١٢.
(٦٢) راجع ذكرى أبي الطيب للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ص٣٠٧ وما بعدها.
(٦٣) مع المتنبي للأستاذ الدكتور طه حسين بك من ص٥١١ إلى ٦٤٦.
(٦٤) ابن خلكان: ج١، ص٢٦٣.
(٦٥) شرحه.
(٦٦) زهر الآداب: ج٤، ص٣.
(٦٧) البداية والنهاية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية.
(٦٨) زهر الآداب: ج٣، ص٤٩.
(٦٩) ابن خلكان: ١، ص٣٥٤.
(٧٠) شرحه.
(٧١) معجم الأدباء: ج٥، ص٢٣٥ (طبعة مرجوليت).
(٧٢) ديوان كشاجم طبع بيروت سنة ١٣١٣هـ.
(٧٣) ديوان كشاجم.
(٧٤) الكندي: ص٥٧٨.
(٧٥) شرحه.
(٧٦) يتيمة الدهر: ج١، ص٣١٢.
(٧٧) الفهرست: ص٢٤٠.
(٧٨) معجم الأدباء: ج٥، ص٤١٥.
(٧٩) زهرة الآداب: ج٢، ص١٤٣.
(٨٠) المغرب: ص٨٦.
(٨١) المقريزي: ج٢، ص١١٥ والكندي: ص٢٢٤.
(٨٢) معجم الأدباء: ج٥، ص٤١٥.
(٨٣) العقد الفريد: ج٣، ص٤٢٨.
(٨٤) العقد الفريد: ج٣، ص٤٢٦.
(٨٥) هذه القصيدة بأكملها في العقد الفريد: ج٣، ص٤٢٦.

(٨٦) طبقات الشافعية الكبرى: ج٢، ص٣١٧.
(٨٧) ابن خلكان: ج٧، ص١٢٥.
(٨٨) معجم الأدباء: ج٧، ص١٨٥.
(٨٩) ابن خلكان: ج٢، ص١٢٦.
(٩٠) المغرب: ص٩٤.
(٩١) زهر الآداب: ج٣، ص٣٢١.
(٩٢) لطائف المعارف نسخة خطية بمكتب الأزهر رقم ٥٦٢.
(٩٣) شرحه.
(٩٤) طبقات الشافعية: ج٢، ص٣١٧.
(٩٥) معجم الأدباء: ج٧، ص١٨٥.
(٩٦) شرحه.
(٩٧) ابن خلكان: ج١، ص٣٩.
(٩٨) المغرب: ص٤٩.
(٩٩) يتيمة الدهر: ج١، ص٣٣٠.
(١٠٠) شرحه: ج١، ص٣٢٩.
(١٠١) شرحه.
(١٠٢) المغرب: ص٤٩.
(١٠٣) المغرب: ص٤٩.
(١٠٤) شرحه: ص٥١.
(١٠٥) يتيمة الدهر: ج١، ص٣٢٩.
(١٠٦) شرحه.
(١٠٧) المغرب: ص٥١.
(١٠٨) ابن خلكان: ج١، ص٤٠.
(١٠٩) ج١، ص٣٦.

خاتمة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر في هذا العصر منذ دخلها العرب فاتحين، ثم استقروا بها، حتى دخلها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة من الهجرة، وانتزع مصر من الإخشيديين، فقد كان أثر العرب في مصر كبيرًا جدًّا، تدركه في تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية واتخاذهم اللغة العربية لغة للتخاطب ولغة لآدابهم، ثم تدركه في هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات في مصر، حتى صارت مركزًا من مراكز الحياة العقلية في الأقطار الإسلامية.

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحتفظ بشخصيتها، فقد اضطرت العرب إلى أن يندمجوا في المصريين، وأن يكون الجميع شعبًا واحدًا هو الشعب المصري الإسلامي.

وقد نقلت مصر جُلَّ المدنيات القديمة، وأخذت منها بحظوظ تختلف قوة وضعفًا، ولكن مصر استطاعت أن تمصِّر هذه المدنيات جميعًا، فلما أن جاءها العرب المسلمون يحملون الثقافة الإسلامية العربية، التقت هذه الثقافة بالثقافات التي كانت في مصر قديمًا، وامتزجت هذه الثقافات جميعًا، فكان ثمرة هذا المزج هي الثقافة المصرية الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك العصر الذي أرخناه في هذا الكتاب.

ولعلك أدركت أيضًا أثر مصر في الشعر الذي أوردنا لك صورًا منه، فإنك لم تر المعاني البدوية القديمة، ولا تشبيهات الجاهليين أو شعراء الأمويين، وظهر في شعر المصريين الآراء المصرية والحوادث المصرية، التي لا تصدر إلا عن قوم عاشوا في مصر، وإذن فقد كان أثر مصر في الشعر كبيرًا كما كان أثرها في العلم كبيرًا.

وبعدُ، فهذا البحث الذي تحدَّثت فيه عن مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر، أرجو أن أقدمه للطبع قريبًا وهو بحث «الأدب في مصر الفاطمية» وهو تاريخ الأدب في العصر الذي أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية في الآداب والعلوم.

ثبت بالمراجع والمصادر

- آثار البلاد للقزويني، طبع جوتنجن ١٨٤٨م.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا للمقريزي، طبع ليبسك ١٩٠٩م.
- أحسن ما سمعت للثعالبي، طبع مطبعة الجمهور بمصر ١٣٢٤هـ.
- أخبار سيبويه المصري لابن زولاق، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ع تاريخ.
- أخبار قبط مصر للمقريزي، طبع جوتنجن ١٨٤٥م.
- أخبار مصر لعبد اللطيف البغدادي، طبع أكسفورد ١٨٠٠م.
- أدب النديم لكشاجم، طبع بولاق ١٢٩٨هـ.
- الأغاني للأصفهاني، طبع مطبعة الجمهور ١٣٢٣هـ.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٩ تاريخ.
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق، ج٤ و٥ طبع بولاق ١٣٠٩هـ.
- الأنساب للسمعاني، طبع ليدن ١٩١٢م.
- بدائع البداية لابن ظافر المصري، طبع بولاق ١٢٧٨هـ.
- بدائع الزهور لابن إياس، طبع بولاق ١٣١١هـ.
- بغية الوعاة للسيوطي، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦هـ.
- البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب للمقريزي، مطبعة المعارف ١٣٣٤هـ.
- تاريخ ابن الأثير، طبع بولاق ١٢٩٠هـ.
- تاريخ ابن خلدون، طبع بولاق ١٢٨٤هـ.

- تاريخ ابن الراهب، طبع بيروت ١٩٠٣م.
- تاريخ أبي صالح الأرمني، طبع أكسفورد ١٨٩٤م.
- تاريخ الطبري، طبع المطبعة الحسينية بمصر.
- تاريخ الإسلام للذهبي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ.
- تاريخ الأمة القبطية، طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١م.
- تاريخ التمدن الإسلامي، طبع مطبعة الهلال.
- تاريخ يحيى بن سعيد، طبع بيروت ١٩٠٥م.
- تاريخ اليعقوبي، طبع ليدن ١٨٨٣م.
- تاريخ ووصف الجامع الطولوني للأستاذ عكوش، طبع دار الكتب ١٩٢٧م.
- تراجم رجال صحيح البخاري، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣١٤ (حديث).
- تحفة المجالس للسيوطي، طبع دار السعادة ١٣٢٦هـ.
- تهذيب الأسماء للنووي، القاهرة ١٣٤٥هـ.
- ثمرات الأوراق لابن حجة، على هامش محاضرة الأدباء.
- الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب، نسخة فتوغرافية بمكتبة جامعة فؤاد الأول.
- الجوهر النفيس في أشعار الإمام ابن إدريس، طبع مطبعة النيل ١٣٢١هـ.
- حديث الأربعاء للأستاذ الدكتور طه حسين بك، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.
- حسن الجمع فيما قيل في قصر الشمع، نسخة فتوغرافية بالمكتبة الأميرية رقم ٢٥٤٤.
- حسن المحاضرة للسيوطي، طبع دار الوطن ١٢٩٩هـ.
- حلبة الكميت للنواجي، طبع دار الوطن ١٢٩٩هـ.
- الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، الطبعة الثالثة ١٩٢٣.
- در السحابة فيمن نزل مصر من الصحابة للسيوطي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٩م.
- الدر المنظوم فيما ورد في مصر من موجود ومعدوم للجوهري، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٨٦٣.
- دمية للقصر للباخرزي، طبع حلب ١٩٣٠.
- الديارات للشباشتي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٧٥٦.

- ديوان أبي تمام، طبعة محي الدين الخياط.
- ديوان ابن قيس الرقيات، طبع فيينا ١٩٠٢.
- ديوان كشاجم، طبع بيروت ١٣١٣هـ.
- ديوان المتنبي، طبع مصطفى محمد.
- ديوان أبي نواس، طبع مصر ١٢٧٧هـ.
- ذكر دخول قبط مصر في دين النصرانية للمقريزي، طبع ١٨٢٨م.
- ذكر ديار مصر، طبع جوتنجن ١٧٧٦م.
- الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية لابن حجر، طبع بولاق ١٣٠١م.
- رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥.
- زهر الآداب للحصري، المطبعة الرحمانية ١٣٤٥هـ.
- سيرة الآباء البطاركة لابن المقفع، طبع بيروت ١٩٠٧.
- سيرة ابن طولون لابن الداية، طبع برلين ١٨٩٤.
- صبح الأعشى للقلقشندي، طبع دار الكتب المصرية.
- طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية ١٣٢٤هـ.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع ليدن ١٣٢٢هـ.
- العقد الفريد لابن عبد ربه، طبع مصر ١٩٢٨.
- العمدة لابن رشيق، طبع مصر ١٩٢٥.
- فتوح مصر للواقدي، ليدن ١٨٢٥.
- فتوح مصر لابن إسحاق الأموي، مصر ١٢٧٥هـ.